
الجدار
رواية
نورا ناجي
الرواق للنشر والتوزيع

الجدار

الجدار (رواية)

نورا ناجي

■ الطبعة الأولى.......... إبريل 2016

الغلاف:

التصحيح اللغوي: محمد هشام

رقم الإيداع: / 2016

الترقيم الدولي: - - 5153 - 977 - 978



3 شارع إدريس – أول شارع الوحدة – إمبابة – الجيزة

هاتف وفاكس: 33100951 (202)

محمول: 01147379183

rewaq2011@gmail.com

facebook.com/Rewaq.Publishing

الجدار

روايـة

نورا ناجي

الرواق للنشر والتوزيع

إهداء

إلى فاتيـــمـا

سيول ٢٠١٥

يشعل آدم سيجارته بعود ثقاب طويل، ويجلس واضعًا ساقًا فوق ساق أمامي، ينظر إليَّ، ويقول: ما الذي حدث اليوم؟

أجلس أمامه، مطرقةً رأسي إلى كفَّيْ يدي، أفركهما بعنف، أبتلع ريقي الجاف قبل أن أرد، ألا تشاهد الأخبار؟

ـ لا أفعل.

ـ كم أحسدك.

يغادر مقعده متجهًا إليّ، يجلس بجواري على الأريكة غير المريحة، أمام النافذة الكبيرة، والتي تدخل بعض الضوء الخافت للغروب، ينظر إليّ قائلاً: ألم أطلب منك التوقف، عن متابعة الأخبار من هذا النوع؟

ـ كيف أفعل ذلك، وأنا أعمل في وكالة إخبارية؟

ـ يمكنك دائمًا العمل على الأخبار العادية، المحلية، والمنوعات.

ـ لا يوجد خبر لا ينتشر، أنت نفسك سمعت بالتأكيد عما حدث، لكنك تريد فقط التظاهر بالجهل.

الجهل مريح، الجهل يمنحك الفرصة، للنوم بضمير مستريح كل ليلة، الجهل هو ما يُفرّق بيني وبينك، الجهل لا يحولك لمعتوه مثلي، تزوره الكوابيس في فراشه، وهو نائم، وهو مستيقظ.

ـ حياة، أريدك أن تسترخي قليلاً، هل اليوم هو اليوم؟

ـ لا أعرف.

ـ لكنك تعرفين أن عليك البدء في الحكي، منذ متى ونحن نجلس معًا؟ شهرين؟ تتحدثين عن حياتك هنا، عن الكوابيس المستمرة، لكنك تعرفين كما أعرف، أن الأمر بدأ قبل ذلك بكثير.

أَرفع رأسي إلى وجهه البارد اللامبالي، عيناه الخضراوان تلمعان، مع بقايا الضوء الأحمر، المنعكس عليهما من النافذة، ينفث دخان سيجارته في وجهي بلا حرج، يثبت عينيه في عينيّ، فأشعر برغبة في الاستسلام، والحكي...

كان على حق، كل ما يحدث الآن، بدأ منذ فترة طويلة جدًا، أريد أن أخبره بكل شيء، التخلص من هذا العبء، الذي لم أقصه كاملاً على بشر، أريح رأسي على مسند الأريكة، أتذكر لقطة ضبابية عن البداية، أحاول تجميع المشهد الأول كما كان، تذكّر التاريخ، الطقس، المكان، ملابسي، أحاول تذكر ما أريد أن أقصه عليه منذ فترة، ولا أفلح.

تعلمت حمل أوراق بيضاء فارغة معي في كل مكان، قصاصات أخط عليها بعض المشاهد التي تخطر لي فجأة، مشاهد ماضية من حياتي، مشاهد من حيَوات أخرى لأشخاص آخرين، تهبط عليَّ مثل الوحي، فأخرج ورقة، وأكتب سطرين، لأتمكن من تجميع أفكاري المتناثرة.

أخرج بعض الأوراق من حقيبتي، أعيد ترتيبها قليلاً، أبحث عن الورقة التي أريد البدء بها، العناوين القصيرة تذكرني بالتفاصيل الخفية، تمنحني القدرة على السرد من دون توقف، أغمض عينيّ، وأبدأ في الكلام.

القاهرة ٢٠٠٩

كان الشتاء لا يزال رفيقًا، تبدو الأمطار الخفيفة، أقرب لقطرات ندى عابرة، عصر ذلك اليوم من شهر يناير، أرتدي معطفي الجلدي الأسود الطويل، أحاول الإسراع في خطواتي، متجهةً نحو مدخل المقهى الهادئ في حي المعادي، كانت ريم تنتظرني داخله، استعدادًا للانطلاق نحو ندوة أدبية في مكتبة قريبة، أعرف أنها برفقة أحمد، كنت أُعدّل من ملابسي أمام الباب الزجاجي حين لمحتهما، جالسين قُابلتي على مائدة تتصدر المكان، دفعت الباب، وأنا أتساءل عن الشخص الثالث، الذي يعطيني ظهره، الشخص الجالس معهما، ولم أره من قبل.

أقترب ببطء نحو المائدة، وكأنني أقترب ببطء نحو موعد حاسم، لم أكن أعرف أن هذا الرجل، الذي لم أره حتى تلك اللحظة، ربما يكون هو الأكثر تأثيرا فيّ، حياتي، الشخص الذي رسم بيده مساري بعد ذلك، حدده وحضره كما لو كان يعرف تمامًا، ماذا سيحدث، ولما سيحدث.

قلبي يدق، وحاجباي ينعقدان، وريم هناك تلوح لي بذراعها، مطالبةً إياي بالإسراع.

ـ مساء الخير.

ـ أهلاً، لم تأخرت؟ ننتظرك منذ ساعة.

ـ آسفة، من الصعب الحصول على سيارة أجرة في هذا الطقس.

كنت أصافحهم بسرعة، محاولة ألا ترتطم عيناي بعينيه، لكنه وقف أمامي مثبتًا نظراته على وجهي، وريم تصيح بصوتها الطفولي، تعرفني به، وتعرّفه بي.

عيناي معلقتان بوجهه، ثابتة بشكل لم أعهده في نفسي، أتذكر تمامًا المرة الأولى التي أسمع فيها اسمه، خالد.. قالتها ريم ليصبح من فورها، اسمي المفضل على الإطلاق، خالد.. يا لجمال الاسم، ويا لعذوبته.

هل كان اسمك مجرد وصف لوجودك في حياتي أيضًا؟ كنت خالدًا من قبل أن أعرفك، أتيت، وأخذت مكانك ببساطة في عقلي، مطمئنًّا لبقائك الدائم، فقط بمجرد أن نطقته ريم بحروفه الأربعة.

ـ خالد، هذه حياة.

حياة.. يكرر اسمي من خلفها من دون تكلف، يبدو وكأنه يختبره أيضًا، يمرره على شفتيه، يتذوقه، يتنفسه، يلمسه، حياة.. يقولها بأريحية، وكأنه يعرف أن هذا اسمي، وكأنه ينتظرني مثلما كنت أنتظره، أسمعه من بين شفتيه فاستغربه، وكأنه ليس اسمي، الذي عاش معي طيلة عمري، وكأنه اسم جديد يطلقه عليَّ منذ هذه اللحظة، أنا اليوم فعلاً حياة.

ـ أهلاً.

أتمتم بالكلمة، فلا يسمعها أحد سواي، وريم لا تزال في محاولاتها المتحمسة، لتعريفنا على بعضنا البعض، في دقيقة ونصف، تخبره بأنني تخرجت من كلية الصيدلة، تخبرني أنه يدرس الهندسة مع أحمد، تغضب عندما يعلق على دراستها هي في كلية الطب، التي يبدو وكأنها لن تنهيها أبدًا.

أما خالد، فكان ينظر إليّ مبتسمًا، عندما تكلم، كان صوته هادئًا، مألوفًا.

ـ لكنك لا تبدين أكبر سنًّا.

نظرت له بدهشة، لماذا تهتم إن كنت أكبر أم أصغر، كيف فكرت في وقتها؟ لماذا رغبت في أن تثبت تقدمك العمري عليّ؟ وكنت أنا ملهوفة، لطمأنتك بأنني أماثلك في العمر، إن لم أكن أصغر.

ـ أعتقد أننا في نفس السن، أبي أدخلني إلى المدرسة مبكرًا.

ـ ربما أكون أكبر.

ـ هل السن مهم بالنسبة لك؟

ـ أبدًا، لكنك تبدين، كما لو كنت طفلة صغيرة في الثانوية العامة.

ـ لا أعرف إن كان هذا مدحًا أم ذمًا!

ابتسم من دون أن يجيب، راشفًا القطرات الأخيرة في كوب الشاي، سألتني ريم إن كنت سأتناول شيئًا أم ننطلق، نهضت من مقعدي لأجيب سؤالها من دون كلام.

في الخارج كانت الأمطار تزداد قوة، أشار خالد بيده نحو سيارته، اتجهنا نحوها لأجد نفسي جالسة، بجواره على المقعد الأمامي، التفت إلى الخلف، كانت ريم تحتضن يد أحمد، وهما جالسان في الأريكة الخلفية، يراقبان قطرات المطر على الزجاج، ابتسمت محاولةً تحاشي النظر إلى وجه خالد، ألمحه بطرف عيني، وهو يلتفت إليَّ كل لحظتين، أشعر بنظراته على جانب وجهي، فأنشغل أكثر بتأمل قطرات المطر على الزجاج المجاور.

ـ لماذا لا تريدين النظر إليَّ؟

ـ أبدًا، لم أفكر في ذلك.

وصلنا أخيرا إلى مقصدنا، كانت الندوة في مكتبة قريبة داخل حدود المعادي، أحاول تذكر تفاصيلها اليوم فلا أستطيع، لا المضيف، ولا الموضوع، ولا حتى شكل المكان، كل ما أذكره، هو جلستنا الطويلة المنعزلة في الصفوف الخلفية، أنا وهو فقط، لا أذكر حتى كيف وصلنا إلى تلك المقاعد، أو لم جلست بجواره بعيدًا عن ريم.

كان الأمر سهلاً وسلسًا، وكأنما هناك يد خفية تحركنا جميعًا، كنت أشعر بأنني أعرفه وآلفه، حتى وجهه كان قريبًا وعزيزًا.

تجاذبنا أطراف الحديث حول الأدب، الأفلام، السياسة، لم أكن أملك أي صداقات إلى جانب ريم، حتى علاقتي بأحمد، كانت مقتصرة بعلاقتها هي به، لذا كنت أشعر أنني شخص آخر، أتحدث بحرية، أضحك من دون خجل، أسرد أفكاري، وأصفها بوضوح لم أفعله من قبل.

كانت هذه هي المرة الأولى، التي أتحدث فيها حديثًا مطولاً مع شاب لا أعرفه، ليس التزاما بقدر ما هو انعزال اجتماعي، كان الكلام سهلاً بالفعل، ينساب من دون أن أشعر، أو أفكر، كنت أبدو معه أكثر ذكاءً وثقافةً، أفهم تمامًا كل ما يتحدث عنه، حتى تلك الأمور المتعلقة بدراسته للهندسة المدنية.

أخبرته بأفكاري، فابتسم ونظر إليّ، والسعادة تظهر ببطء في عينيه.

بعد ساعتين من حديث الكاتب الذي لا أذكره، وساعتين من حديثنا معًا، الذي أذكر خطوطه الرئيسة، بشكل ضبابي أقرب إلى الحلم، وجدت

نفسي فجأة من جديد، بجواره في السيارة، هذه المرة وحدنا، والمطر لا يزال مُصرًا على مشاركتنا هذه اللحظات الأولى.

كان ينظر إلى الطريق أمامه، وهو في طريقه لمنزلي الذي أصفه له، أما ريم وأحمد ففضّلا التمشية معًا، في جو الشتاء الرومانسي.

كنت أشعر بالبرد، والأضواء القادمة من الاتجاه المنعكس، تتكسر على قطرات المطر، صوت المساحات منتظم بشكل ميكانيكي، وصوت فيروز ينساب من الراديو، فيزيد من إحساسي المباغت بالتحليق، أشعر أنني أطفو على المقعد، قلبي يطفو، وكأنه يدق في عنقي، أنظر إلى الأريكة الخالية من خلفي، وأتساءل، ترى ماذا تفعل ريم الآن في الشارع المظلم البارد؟ ألتفت إلى خالد، قائلة:

ـ لا يزال المطر يتساقط، لا أعرف كيف سيتمكنان من الوصول إلى منزل ريم.

ـ لا أعتقد أنهما يفكران في ذلك، للمطر وجهه المختلف لدى العشاق، بالنسبة لهما، هو قطرات ناعمة من الجنة.

ـ أنت رومانسي جدًا.

ـ أبدًا، لكني أتفهم رغبتهما.

ـ وأنا أيضًا، أنا فقط قلقة عليهما.

ـ أعتقد أنك تقلقين كثيرًا.

ـ من أخبرك؟

ـ لا أعرف، أنا فقط أعرف.

المميز فيه أنه لم يكن مميزًا، عيناه العسليتان تلمعان كلما ابتسم، أحب أنفه الطويل، وذقنه الحليق، كان نحيفًا مثلي، يبدو على وجهه، لمسة واضحة من الثِقَل، وكأنه مثقل بشيء ما، وكأنه دائم التفكير أو الحزن.

ـ لم تبدو مثقلاً بالتفكير؟

نظر إليّ، وابتسم فلمعت عيناه، أتذكر لمعتهما حتى اليوم، أتذكر عينيه العسليتين، وأرتجف، هناك دائمًا لحظة ما في كل قصة، عندما تشعر فجأة، بأن هذا الشخص الجالس أمامك، مختلف عن جميع من تعرفهم، وأنك ـ ربما ـ في سبيلك للوقوع في حبه من دون مقاومة، من كلمة عابرة، من مصافحة سريعة عادية، من التفاتة، من نظرة، من جملة معتادة مثل: لا أعرف.

كانت هذه الجملة، هي التي طرقت جدران قلبي وخدشته، كنت أنحدر منذ النظرة الأولى إلى فخه، وكان هو هادئًا، واثقًا ينتظرني حتى أتم السقوط.

ـ فعلاً؟ هل أبدو كذلك؟

لم أرد، أشحت بوجهي نحو النافذة، وقلبي يرتعش، لم أعرف هذه المشاعر من قبل، ولم أصدق وجودها، كنت أسخر من ريم، التي تبدو طائرة من الفرحة بعد لقائها بأحمد، ولو للذهاب في رحلة عبثية، بحثا عن مسكن الزوجية القادم، أو للحصول على أفضل سعر، في عملية شراء المفروشات والأثاث.

كانت تصف سعادتها بالفراشات، المحلقة حول رأسها عند رؤيته، بأصوات العصافير، التي تتصاعد في أذنيها من اللا مكان، كنت مثلها

أشعر بالفراشات، تحلق الآن في بطني وصدري، تصعد لتخرج من فمي مع كل كلمة، العصافير تغني في أذني، فلا أسمع بوضوح ما يقول.

أشرت له بيدي فجأة، نحو البيت القديم القريب من وسط البلد، هذا هو منزلي، أشكره بصوت خافت، أبتسم له وأنا أغادر السيارة في طريقي إلى المنزل، كنت أفكر في إمكانية لقائه من جديد، عندما سمعت صوته ينادي باسمي.

ـ حياة.

توقفت عن المشي من دون أن أستدير، ليلحقني هو ويقف أمامي، اقترب مني وقال بسرعة، وكأنه يمنع نفسه من التراجع:

ـ هل سأبدو وقحًا، لو طلبت رقم هاتفك؟

ـ أبدًا، بالعكس.

كنت سعيدة جدًا، قلبي يرتعش من السعادة، أمليته رقم هاتفي بسرعة ليسجله، وصعدت إلى المنزل ببطء، أجر أقدامي، وكأن شيئًا يجذبني إلى الأسفل، إلى الشارع، إليه.

كانت أمي لا تزال مستيقظة، تشاهد التلفاز كالعادة، حييتها، واندفعت من دون كلمة إلى الغرفة، كنت أريد الانفراد بنفسي قليلاً، التفكير فيه، استرجاع تفاصيل ملامحه، نبرات صوته، كل كلمة وكل رأي، لكنني لم أفعل، كان رنين الهاتف يتصاعد برقم لا أعرفه.

ـ ألو.

ـ أهلاً، أنا خالد.

ـ أهلاً.

ـ هذا رقمي، حتى تتمكني من تسجيله.

ـ شكرًا.

ـ حياة.

ـ نعم؟

ـ أريد أن أراك غدًا.

ـ غدا؟

ـ وبعد غد، وبعد بعد غد.

ـ ماذا تقول؟

ـ أقول أريد أن أراك كل يوم، هل يمكن ذلك؟

كنت أبتسم عاجزة عن الرد، لم أعرف ماذا أقول، ضحكت فقط.

ـ سأعتبر هذه موافقة، سأمر عليك في الخامسة.

أغلق الهاتف بسرعة، من دون أن ينتظر إجابتي، ظللت دقائق صامتة، لا أستطيع التفكير أو الحركة، لا أعرف ما الذي حدث لي، من أين أتيت يا خالد؟ ولماذا؟

كان حبًا من النوع الذي تعرف جيدًا أنه سيستمر، كان حبًا يماثل تمامًا ما أريده، ما حلمت به، وأتمناه، وأخافه، عرفت منذ اللحظة الأولى، أننا لن نكمل الحياة ببساطة، مثل ريم وأحمد مثلاً، اللذان يستعدان لزواجهما السريع، بعد انتهاء أحمد من الدراسة، أدركت فورًا أنني لن أكون له، ولن يكون لي، لكننا بشكل أو بآخر، سنكون معًا للأبد، كان حبًا من

الطراز الذي يأتي ليظل، ليبقى حافرًا ندباته على القلب والروح، وبقدر ما أسعدني ذلك، بقدر ما أرعبني، كنت أحب الممنوعات، لكني أخاف التورط فيها، هل تعرف، هذه الغصة الدائمة في حلقي، وُلدت في ذلك اليوم البارد من شهر يناير، واستمرت إلى يومنا هذا.

هذه الغصة يا آدم لا تذهب أبدًا، ولا بكل سعادة الدنيا، ولا بكل سوائلها الساخنة والباردة، ولا بأي شيء.

أحمل غصتي في حلقي وأسير، أتذكر خالد، وعينيه وكلماته، أتذكر شكل الشوارع، والمطر في طريقنا للمنزل، أتذكر ابتسامته ونظراته، أتذكرني جميلة، كما لم أكن أبدًا بعدها، أتذكر وأتحسر، وأتمنى لو توقف الزمن عند ذلك، عند هذه اللقطة، وأنا واقفة خلف الباب الزجاجي أتأمله، وهو يعطيني ظهره، وأعرف أنه هو الذي سيتحكم في حياتي المقبلة، وتاريخي الحالي.

هل أبدو مبالغة يا آدم؟ ربما لم أكن أحبه هكذا في يومها، ربما كان هذا الكلام كله من وحي خيالي، ربما لم يكن لقاؤنا الأول بهذا السحر، ربما لم أكن جميلة كما أتذكر، ربما لم يكن هو لطيفًا كما أتذكر، ربما لم نقع في غرام بعضنا البعض، منذ النظرة الأولى كما أتوهم، ربما نسيته فورًا بمجرد أن تركته، ربما لم أهتم به من الأساس في هذا اليوم، ربما كان كل هذا، تراكمًا عن كل السنوات التي قضيتها بعد ذلك، أحلم به، أتمنى لقاءه، أدعو الله أن أراه ولو صدفة، أتجول في الشوارع القريبة من منزله، القريبة من عمله، أزور الأماكن التي ارتدناها معًا، ألمس المقاعد التي جلسنا عليها معًا، أبحث بعيني عن طراز سيارته، عن لونها، عن أرقامها، أجلس بالساعات لأتأمل صفحته الشخصية على فيسبوك، صفحته التي لا يظهر منها، سوى صورة صغيرة، وعلامة تطلب مني إضافته كصديق، بعد أن

قام بحذفي من قائمة أصدقائه، وكأنه يعتقد بأن هذا الأمر، كافٍ لحذفي من حياته، أو حذفه من حياتي.

أتعرف ما المشكلة يا آدم؟ المشكلة أنني لا أذكر شيئًا، أذكر مشاهد عريضة لقصتنا معًا، أذكر لقاءنا الأول وحدنا، تِجوالنا بالسيارة من دون هدف ثابت، أذكر الشوارع التي ذهبنا إليها، أذكر ملابسي، وملابسه، لكني لا أذكر حديثنا، لا أذكر ضحكاتنا وشجاراتنا، لا أذكر سوى حبي الجارف له، سوى ارتعاشة قلبي، عند احتضان كف يده لكف يدي، عن عينيّ الدامعتين، وهو يبتعد بعد إيصالي إلى منزلي، عن رغبتي الحارقة في الحديث إليه كل يوم، كل ساعة، كل دقيقة.

ملكني خالد، ملكني وسيطر عليّ، استولى على قلبي كاملاً، فلم يُبق مكانًا لغيره، أبحث عنه في الوجوه فلا أراه، أبحث عنه في كل مكان، أذهب إليه فلا يأتي، أبحث عن صدفة ما تقودني إليه، فلا تحدث.

يقال إن هناك سبعة أشخاص، بين كل شخصين على الكوكب، سبعة يقفون في الطريق بين بعضهما البعض، سبعة معارف، شخص يعرف شخصا يرى شخصا يعرفه، كنت أبحث عن السبعة أشخاص، فلا أجد سوى ريم وأحمد، اللذيْن ينظران إليّ بإشفاق، اللذيْن يطالبانني بنسيانه، والاستمرار في حياتي.

وأنا لا أعرف كيف أفعل ذلك، كيف أقوم بهذا الفعل، السهل مثل النسيان، من دون أن أشطر قلبي إلى نصفين، من دون أن أنتزع مُخي من رأسي، وأفرغه بسكين حاد من آثار خالد، كيف أفعل ذلك، من دون أن أترك ندباته الباقية على روحي؟ كيف أفعل ذلك، من دون أن أثبته أكثر في عروقي، في خلاياي؟ أخبرني أنت يا آدم، بعد كل هذه السنوات، كيف أفعل ذلك؟

سيول ٢٠١٥

ناطحات السحاب، تحيط بي من جميع الجهات، فلا أرى السماء، سوى من فتحة ضيقة فوق رأسي، ناطحات السحاب متلاصقة بشكل مريب، من منظوري ـ منظور النملة ـ أراها مائلة للأمام، تحيط بي في دائرة مكتملة، تنظر إليّ باحتقار فأشعر بالتضاؤل، أضع يدي في جيوبي، وأكمل السير.

أتضاءل أكثر، كلما تقدمت في المشوار، طقس سبتمبر اللزج يشعرني بالثقل، هناك ضباب ما مخيم على عقلي وعينيّ، لا أستطيع الرؤية بسهولة، عندما لا أتمكن من رؤية الأشياء بوضوح، أو عندما أفقد نظارتي الطبية لسبب ما، أشعر بثقل حقيقي على عيني، ينتقل إلى عقلي، فلا أستطيع السماع بوضوح، ولا الكلام، ولا التنفس.

يتحول الطنين إلى شيء مادي، يجثم على روحي، يحوم حول أنفاسي فتتثاقل، عقلي خاوٍ تمامًا، بلا أفكار، بلا ذكريات، بلا هدف.

هذا الصباح، كنت أرتدي العدسات اللاصقة الطبية، خفت من المطر المتساقط دائمًا في هذا الطقس الحار، أن يبلل النظارة، ويمنعني من الرؤية، ويدفعني فورًا إلى الجنون.

لكني ورغم كل الاحتياطات، ما زلت أشعر بهذا الضباب، يمتد إلى

روحي، إلى قلبي، إلى حلقي، وحتى إلى أصابع يدي، فتسري الكهرباء الإستاتيكية فيها، أضم قبضتي بقوة داخل جيوب سترتي، وأكمل السير.

يسير البشر من حولي كالنمل، نمل سريع يسعى بين ناطحات السحاب إلى رزقه، في المدينة الكبيرة، النظيفة، الجميلة، لا أحد يتوقف ليرى الآخر، لا ابتسامات في غير موضعها، لا مجاملات، هناك أماكن مخصصة للمشي، أماكن مخصصة لعبور الشارع، أماكن مخصصة للدراجات، أماكن مخصصة للأمهات مع أطفالهن، أماكن مخصصة لأصحاب الكراسي المتحركة، أماكن مخصصة للتوقف، والالتفاف حول حاوية مليئة بالرمال لتدخين سيجارة، وإلقاء العقب فيها، من دون أن يلوث باقي الشارع.

المباني تختلف، من ناطحات عملاقة لشركات كبرى، وأخرى للسكن، بعضها مبانٍ إدارية، تمتلئ بالمكاتب، والعيادات، والشركات، ومدارس تعليم شيء ما، النقوش المزخرفة للكلمات، تغطي اللافتات التي تغطي بدورها واجهة البناية، نقوش ملونة، مضيئة، مهرجان مستمر حتى ساعات الصباح الباكر.

تشعرني الناطحات دائمًا بالاختناق، لذا أعيش في بناية متوسطة، تبدو قصيرة وسمينة وسط بقية مباني المدينة، في حي جانبي متواضع، لا يطل على شيء محدد، إذا مددت رأسي خارج النافذة، يمكنني أن أرى جبالاً متوسطة الطول مغطاة بالأشجار، تتخللها بعض المباني المكونة من طابق واحد، وسلالم منحوتة نحتًا في الصخر، من أجل هواة التسلق، الرياضة الأشهر في المدينة.

العمارات التي دائمًا ما يسكنها الأجانب، القادمون للبحث عن لقمة العيش، لونها أحمر طوبي، بلا شرفات، نافذة أو اثنتين في الشقة الصغيرة المكونة من غرفة واحدة، تمنحانك بعض القدرة على رؤية الشارع،

تمنحانك بعضًا من القدرة، على ألا تفقد عقلك من الكليستروفوبيا.

أسكن في شقة صغيرة، إستوديو، لا حاجة لي في أكثر من ذلك، لا أراها إلا للنوم، صباحًا أنطلق إلى العمل، لا أعود إلا في المساء، أتمشى قليلاً، أذهب لتناول الطعام مع تيو، أجلس مع يانج شين في مقهاها الصغير المقابل للمنزل، ثم أذهب إلى النوم.

ينظر المارون إلى وجهي باندهاش، خاصة النساء والأطفال، أنا هنا أجنبية بملامح مختلفة، كما ننظر نحن إلى وجه سيدة شقراء، أو رجل ببشرة حمراء غريبة، الناس ودودون، لكنه ود الروبوتات الغريب، أشعر أحيانا بأنهم كائنات فضائية متنكرة، يسيرون وفقًا لنظام قاسٍ، لا يستطيعون التصرف وحدهم، لا يستطيعون مثلاً الفرار من مأزق، أو إنهاء مشاحنة، أو إقناعهم بأي شيء آخر، يختلف عن النظام الذي تعودوا عليه، إن فكر أحدهم في ارتكاب جريمة، سيعد خطة عبقرية بالتأكيد، لكن عند التنفيذ قد ينتهي به الأمر في السجن، إن حدث وتغيرت خطوة صغيرة في نظامه المحكم.

مثال متطرف تمامًا، يناسب مزاجي السوداوي الكئيب، مناسب لعملي أيضًا، ربما جاء نتيجة تفريغ الأخبار كل يوم، من تقارير وكالات الأنباء العالمية، إلى بيانات مكتوبة ومفسرة، لتتمكن المذيعة الحسناء، التي خضعت إلى عشرين عملية تجميل في وجهها، من التحدث عنها بشكل يجعلها تبدو على معرفة بما يحدث.

أجلس أمام الشاشات العملاقة، وأضع السماعات في أذني، أسمع، وأسمع، كلاما بالعربية، بالكورية، الفرنسية، الإنجليزية، لا أفهم سوى الكورية، العربية، والإنجليزية، وأحاول تفسير ما يدور بالفرنسية، أو أي لغة أخرى، من خلال بعض الكلمات، أملك قدرة على فهم محادثة ما تدور بلغة أخرى، من خلال حركة الجسم والعيون، أستطيع تخمين

ما يتحدثون عنه، من بعض المصطلحات العامة، تتردد كلمات مثل داعش، أمريكا، سوريا، بشار، المالكي، الأنبار، لأتمكن من فهم القصة، ثم البحث عن تفاصيلها، وإعدادها لنشرة السابعة.

هؤلاء القوم، لا يهتمون كثيرًا بأخبار العالم، لكن النشرة الإخبارية مستمرة رغم ذلك، الحقيقة أن معدل مشاهداتها مثير للضحك، أتوقع أنها لا تُشَاهد سوى على الشاشات العملاقة في المقاهي، أو بعد نسيان التلفاز مفتوحًا على هذه القناة، بالصدفة في المنزل، أثناء تناول العائلة للطعام، البرامج الحقيقية التي تجلب ملايين المشاهدات، لا تخرج عن برامج الطبخ، الطعام بمختلف أنواعه، الكاميرا الخفية، برامج المنوعات الكوميدية والفنية، وبالتأكيد قنوات الأغاني.

لكننا نتظاهر هنا بالأهمية والخطورة، أترجم الكلمات بدقة، وأنا أبحث في القاموس أمامي، أستعين ببعض المساعدة الإلكترونية في الترجمة، اللغة سهلة لكنها مليئة بالأفخاخ، التي لا يمكن ملاحظتها.

يمد لي تيو يده بكوب القهوة الورقي الساخن، «ملعقتا سكر وحليب»، يقول وهو متجه للجلوس خلف مكتبه، أبتسم ممتنة، أي رجل يجلب لي القهوة، أعرف أنني سأقع في غرامه يومًا ما، لكن تيو يجلب لي القهوة منذ عامين، ولم أعترف بحبه بعد.

ما هي إمكانية لقاء شخصين أحدهما من مصر، والآخر من هولندا، في كوريا الجنوبية، ليعملا معًا في ترجمة الأخبار الوحشية من حول العالم، وصبها صبًا في أذن المذيعة الحسناء، التي تم تصغيرها، لتنطقها بشفتيها المنتفختين بالفيلرز، وهي تظهر بعض التعاطف في عينيها، التي قامت بتوسعتهما وشد جفنيهما، حريصةً على ألا تسقط الرموش الصناعية الطويلة التي أضافتها، مع أنفها الطويل الذي استبدلته بأنفها الأفطس،

كهدية نجاح من والديها، بعد اجتياز الثانوية العامة؟ مثل العادة هنا، لم تنس أيضا نحت عظام الوجنتين، وتشقير الشعر بعد التخرج، هذه نجمة هوليودية شقراء، وليست فتاة كورية معروفة.

أخبر تيو عن أفكاري بالإنجليزية فيضحك، أقول: «في مصر يمكن أن تقتل الأنثى في سبيل الحصول على شعر أسود فاحم ناعم، مثل الذي كانت تمتلكه يوما».

ـ كلنا نسعى إلى الأشياء التي لا نمتلكها عادة.

يقولها، وهو ينظر إلى جانب وجهي، أشعر بنظرته فأتظاهر بعدم الانتباه، أضع السماعات على أذني، وأعود إلى ترجمة الأخبار المقززة، شيئًا فشيئا، أتغلب على شعوري بالغثيان، أتغلب على هذا التقلص في أمعائي، ولا يظل سوى أثر الصداع المزمن، وبعض الصور التي تُطبع فورًا في تلافيف عقلي، لتزورني بعد ذلك في الكوابيس القادمة المستمرة.

القاهرة ٢٠٠٩

يرن هاتفي، فأعرف أن خالد ينتظرني أسفل البناية، أهرع لأرتدي حذائي، لأُلملم محتويات حقيبتي، أبعثر شعري قليلاً على جبهتي، وأنا أضع بعض العطر، أمر على أمي في جلستها الدائمة أمام التلفاز، لأخبرها بكلمات سريعة، أنني في طريقي إلى الخارج.

ـ أين ستذهبين؟

ـ لا أعرف، ربما سنتناول العشاء أو السينما.

ـ ألن يصعد لأراه؟

ـ ليس هذه المرة يا ماما، لم أفاتحه بعد.

ـ كما تشائين.

ألقي عليها نظرة أخيرة، وهي تجلس على الأريكة، تنظر إلى التلفاز في صمت، أشعر بالذنب لتركي إياها دائمًا وحيدة، تصاحب الأصوات الصادرة، من برنامج واقع غريب يعرض على الشاشة.

سألتها ذات يوم، لماذا تشاهدين هذه البرامج الواقعية السخيفة؟ نظرت إليّ، وابتسمت من دون رد، لكني اليوم أفهم، أنها كانت تشاهدها طلبًا لبعض الونس، كانت تعرف عن الفتيات، الحمقاوات الجالسات

أمامها في الشاشة طيلة اليوم، ما لا تعرفه عن ابنتها نفسها، تشاركهنّ أفكارهن، حديثهن، شجارهن، تدريباتهن الغنائية، للفوز بلقب ما لا يعنيني، لكنه يعنيها إلى حد التصويت لمن تحبه كل أسبوع، من أجل أن يبقى أكثر أمامها على الشاشة، من أجل أن يؤنسها أكثر في وحدتها، التي كنت طرفًا فيها.

كنت قاسيةً فعلاً، ربما لم أقصد ذلك في حينها، لكني لم أفهم أبدًا، أنني أشبهها بشدة، أن مصيري سيشبه مصيرها تمامًا، وأنني اليوم سأعيش وحدي، كما كانت تعيش، الفارق أنها كانت تتابع برامج الواقع، لتتلصص على حياة أشخاص آخرين، كانت تتمنى لو عاشت حياتهم، أما أنا، فأتابع الأخبار المأساوية الحزينة، أتخيل أنني أعيش فيها، أنني أتسبب فيها، وأنني ربما لا أختلف كثيرًا عن سفاحيها وضحاياها.

أدلف إلى السيارة فينظر إليّ خالد، يفهمني من دون أن أنطق، يسألني ماذا بك؟ فلا أرد

ـ هل حدث شيء؟

ـ لا، كنت أشعر بالقلق، فقط لتركي أمي، وحيدة هكذا كل يوم.

ـ أعدك لن نتأخر، ما رأيك لو تناولنا بعض الساندوتشات في السيارة، ثم أعيدك؟

ـ هكذا فقط؟ تتركني وتذهب؟

ـ لا أريد أن أكون السبب في ضيقك.

ـ أنا بخير، دعنا نذهب، سأمضي نهار الغد بالكامل مع أمي.

ـ لم تحكِي لي أبدًا عن سبب الانفصال.

ـ بينها وبين أبي تقصد؟

ـ نعم.

ـ في الواقع كنت صغيرة جدًا، لم أتجاوز العاشرة، لم تخبرني أبدًا، تتحدث عنه دائمًا بكل خير، لم تمنعني عنه، أسافر له أحيانا إلى دبي، لكنني لم أسافر منذ عامين، كنت أفكر فعلاً في السفر قريبًا.

ـ وتتركينني؟

نظرت له بحيرة، كان ينظر إلى الطريق أمامه، تبدو عيناه مجهدتين كالعادة، لم أعرف بما أجيب، ترددت لحظات وقلت:

ـ خالد، متى ترى خطيبتك، إن كنت تراني كل يوم؟

التفتت عيناه لا إراديًا إلى الدبلة الفضية في يده اليمنى، أراها منذ اليوم الأول للقائنا، أراها وأعرف جيدًا أنه مرتبط بفتاة أخرى، يستعدان معًا للزواج، أخبرتني ريم أنها رأتها مرة واحدة، عندما تقابلوا صدفة في معرض مفروشات، كانا معًا وكأنهما ليسا معًا، تشاهد هي المعروضات، تتناقش مع مهندس البيع، وهو يقف بعيدًا، يراقب الأمر من دون إبداء رأي.

ـ أراها أحيانا، بيتها قريب من منزلنا.

ـ كانت هذه المرة الأولى، التي أفتح فيها الحوار، مر شهران، ونحن نرى بعضنا البعض كل يوم، حتى ولو لدقائق، حتى ولو مر أسفل المنزل، لينتظرني في مدخل البناية، نتبادل بعض الكلمات، ويرحل.

ـ هل سنتحدث أبدًا في الأمر؟

ـ لا أعرف.

ـ أعرف أننا لم نقل شيئًا صريحًا، لكن خالد، أنا أحبك.

لم يستدر، لم ينظر إليّ حتى، كانت عيناه تبديان أكثر حزنًا، كما لو كان يعلم أن هذا الحديث، لن يقود إلى شيء، كانت هذه المرة الأولى، التي أقولها صراحة: أحبك، أحبك يا خالد، أعشقك، أذوب في كلماتك، في عينيك، في أنفك، في أصابع يديك الطويلتين، في الندوب الرمادية، التي تبدو كالوشمات على ساعديك، لا أعرف لماذا لم أسألك أبدًا عن سببها، ربما كانت بقايا جرح قديم، ربما كانت وشمات طبيعية، لا أعرف، لكني أحفظها، أحفظ شكلها، وعددها، أحفظ عدد التجاعيد الرفيعة، المحيطة بعينيك عند التعب، أحفظ لمعة عينيك عند الكلام، أحفظ أنواع ابتساماتك، أحفظ كلماتك، أعرف ما الذي تفكر فيه، أنطقه قبلك فتنظر إليّ بلا دهشة، كأنك أيضا تعلم ما الذي يدور في عقلي.

بقينا صامتين في المقهى، أخبرته أنني سأكتفي بالقهوة، ففعل المثل، ثم عادت السيارة المظلمة، لتحتوينا على الطريق الطويل، من مدينة نصر إلى وسط البلد.

أسفل بيتي، ترددت لحظتين في النزول، ترددت لحظتين في إغلاق الباب، ترددت لحظتين قبل السير ببطء نحو المدخل، لكني لم أتردد وأنا أعود أدراجي، وأنا أنحني على نافذة سيارته لأكرر.

ـ خالد، أحبك.

ـ للأسف.

نظرت له بلا تصديق، فلم ينطق، كنت أصعد السلالم، وكأنني أترنح من السكر، تتردد كلمته في أذني فلا أفهم، للأسف، ماذا؟ للأسف أحبه ولا يحبني؟ للأسف أحبه ولا يمكن أن يظل معي؟ للأسف أحبه، وهو مرتبط بفتاة أخرى؟ للأسف أحبه في وقت خاطئ، للأسف أحبه فقط.

للأسف، أحبه.

سيول ٢٠١٥

الظلام والصمت يلفان الوكالة، لم يعد هناك أحد سواي، وتيو، وبعض عمال النظافة، رئيس التحرير غادر مسرعًا مع المذيعة الحسناء، للحاق بحفل عشاء ما، يختلط الصمت التام بـ«خرفشة» الأوراق، وصوت الطابعة الضخمة، الذي يشبه الأزيز الخافت، وأنا أقف أمامها، في غرفة جانبية نصف مضيئة في الوكالة، يأتي تيو ليقف على الباب، يراقبني وأنا ألتقط الصورة المطبوعة، لأضعها بعناية وسط الملف الذي قمت بتحضيره.

ـ ما زلت تجمعين الصور؟

ـ ولم لا أفعل؟

ـ ولم تفعلين؟

لا أعرف، جمع الصور الوحشية المؤثرة، هي هوايتي الغريبة، صور أطفال محترقين، نساء يحاولن مقاومة موج البحر، وهن يحملن أطفالهن الرضع الميتين، رجال غارقين، أطفال أقرب للهياكل العظمية، بيوت مهدمة، عربات متفحمة، أكتفي بأفكاري المريضة، وهي تسترجع صور اليوم في عقلي، بانتظار خروجها من الطابعة، لتظل ماثلة أمامي ما تبقى لي من العمر، يقطع صوت تيو وتيرة أفكاري من جديد.

ـ ماذا تفعلين بهذه الصور؟

لا أرد، أنتهي من جمع حصيلة اليوم، وأضع الملف في حقيبة يدي العملاقة بصمت، أقف أمامه تمامًا، وأقول: هل ستأتي أم أغادر أنا؟

يرتدي سترته، وهو ينظر إليّ بلوم، نظارته الطبية تلمع في الضوء الخافت، يفسح لي مكانًا للمرور، فأسبقه بخطوات، نظل صامتين في المصعد الواسع والردهة الطويلة، أنتبه إلى أننا في الشارع أخيرا، نسمات باردة، تنذر بشتاء مظلم قادم، أغلق حزام المعطف، وأقول: جائعة.

يفتح لي باب السيارة كعادته، لم أستطع الحصول على رخصة للقيادة بعد، الحقيقة أنني لم أسعَ لذلك كثيرًا، هو أيضا لا يترك لي الفرصة للتفكير، يصر على إيصالي كل يوم تقريبًا، ما لم يطرأ أمرٌ ما، يقود السيارة نحو أقرب مطعم متاح لمنزلي كما أحب، مطعم كوري تقليدي دافئ، نخلع أحذيتنا على الباب، يسندني بيديه، كما يفعل دائمًا فأبتسم له ممتنة، تتلاقى نظرات عينينا فيبتسم، أحاول الابتسام فترتعش شفتاي قليلاً، أشيح بوجهي عنه، وأسرع إلى الداخل، أختار مكانًا منزويًا في زاوية المطعم، يساعدني في الجلوس على الأرض، فوق الوسادة الرفيعة، أمام الموائد المنخفضة.

أفكر في طلب وجبتي الدائمة، بولجوجي، أقول من دون أن أنظر حتى إلى القائمة، أما هو فيصر على قراءتها باستغراق، كأنه سيخضع للاختبار في محتوياتها، ثم يشير للسيدة الكورية المبتسمة دائمًا، تأتي وهي تنحني أمامنا مرحبة، تتبادل مع تيو بعض الكلمات المرحة، والغزل في عينيه الزرقاوين، كما تفعل السيدات الكوريات دومًا مع الأجانب هنا، يبادلها بعض المجاملات، فتضحك مغطية أسنانها بكف يدها، كما تقتضي التقاليد الكورية، ثم يطلب لي الوجبة الشهيرة، من لحم البقر مع

الصوص الكوري الخاص، بينما يطلب هو طبقًا كبيرًا من حساء النودلز مع البيض، قطع الدجاج المحمر، وبعض السلطات.

الأرض دافئة جدًا، بسبب نظام التدفئة، الساري في جميع المباني الكورية، اتقاءً للبرد القاسي في مواسم الشتاء، الوسادات الرفيعة، تشعرني بالخدر في ساقي، فأمدهما قليلاً أسفل المائدة المنخفضة.

مطعم خالٍ إلا من بعض الرجال المسنين، الذين يلتهمون طعامهم، ويضحكون بصوت عال، الكوريون مزعجون جدًا، عندما يتعلق الأمر بالطعام، يتلذذون بتناوله بصوت مرتفع، يحتسون الحساء مصدرين صوت «السلرب» الشهير، يصيحون ويضحكون، يزيدهم السوجو الذي يعبونه عبًا مرحًا وإزعاجًا.

تحضر لنا المضيفة العجوز، علبتين باردتين من السوجو، فأطلب منها تبديل خاصتي بمياه غازية، بينما يفتح تيو علبته بسرعة، أنظر له، فيقول:

ـ أشعر بالعطش.

ـ هذا ليس بماء.

ـ آسف يمكنني التوقف عن الشرب أمامك، إن كنت لا ترغبين.

ـ لا، لم أقصد، أنت تعلم رأيي في كل هذه الأشياء التي تذهب العقل، العالم لا ينقصه المزيد من فاقدي العقول.

ـ لم أفقد عقلي بعد.

ـ نشكر الله على ذلك.

يبتسم تيو ابتسامة جانبية، يفهمني تمامًا، رغم صمتي الدائم واكتئابي، لا أعلم ما الذي يدفعه للاستمرار في علاقته غير المصنفة بي، أعامله

بجفاء مطلق، واحتياج دائم في نفس الوقت، أمل منه وأتوقف تمامًا عن الحديث معه، ثم أعود إليه فيتقبلني من جديد.

تذكرت يومًا، كنت في موقعه تمامًا، أتذكر ذات الشعور بالألم، والصمت، والاكتفاء بنظرة، كلمة، رسالة صغيرة، لأشتعل فرحًا، أشعر بالذنب بسبب تحولي لشخص آخر، لم يفعل شيئًا سوى إيذائي، أخاف من شعوري، بأنني أنتقم منه في تيو، أحاول طرد صورته من عقلي، وتناول الطعام في صمت.

ـ حياة، أين ذهبت؟

ـ آسفة تذكرت شيئًا هامًا.

ـ أتريدين الذهاب؟

ـ لا.

يلتقط لي تيو بهاتفه بعض الصور، أحاول إيقافه عن ذلك فلا يستجيب، لا أستطيع تناول الطعام، وأنت تلتقط لي الصور، أبدو كالوحش الذي يفترس ضحيته المسكينة.

يضع الهاتف أمام وجهي، قائلاً: أليست أفضل من صورك الكئيبة؟ أبتسم له، ولا أرد، ننهي طعامنا بسرعة ونستعد للنهوض، يسرع لمساعدتي كالعادة، أحب معاملته لي كالأميرة، أستند على ذراعه، وأنا أرتدي حذائي من جديد، أشعر بوجهه يلتصق بخصلات شعري، أتوقف لحظتين لأمنحه بعض الوقت، قبل أن أبتعد مسرعة نحو باب المطعم.

نخرج من جديد إلى الشارع الهادئ، غدًا عطلة نهاية الأسبوع، والجميع يسهرون الليلة في المقاهي، والحانات الكبرى، في الأماكن الفاخرة مثل حي كانجام، أو منطقة الأجانب في إيتوان، أما أنا فأفضل العودة إلى منزلي والبقاء وحيدة.

يسير معي إلى البناية القريبة، كما أرغب كل يوم، أحب التمشية في الظلام والهدوء ليلاً، ويجاريني هو في ذلك، من أجل البقاء معي لأطول وقت، ثم يعود من جديد إلى سيارته.

تبدأ أوراق الشجر في التساقط على جانبي الطريق، الخريف بنسائمه الباردة ليلاً، يدفعني دومًا للحزن، الخريف فصل المكتئبين، وهو يلائم مزاجي بقوة، ثقيل، باهت، شاحب، متساقط، ميت.

بالنسبة لتيو، كان الجو لا يخرج عن كونه رومانسيًا جدًا، يمد يده ليلتقط يدي فأتأبطه، أشعر بدقات قلبه المسرعة في جانبي، فأنظر له وأبتسم.

ـ كيف تحتفظ برومانسيتك في هذا العالم؟

ـ لست رومانسيًا يا عزيزتي، الحب شعور طبيعي يصيب البشر، وهو لازم لاستمرار الحياة رغم قسوتها.

ـ لا أؤمن بالحب.

ـ أنت كاذبة، أنت لا تعانين من أي مشكلة سوى الحب، الحب المبالغ فيه، الحب المَرَضي.

ـ لا أفهم.

ـ أنا أفهمك تمامًا، حبك المطلق للعالم، يجعلك تتحملين مسؤوليته، يبدو أن مهنتك لا تلائمك يا حياة، الأجدر أن تبحثي عن مهنة خالية من الأخبار، أو الضغط العصبي، أنا أراك كل يوم تذبلين أمامي، وجهك يشحب، يصفر، شفتاك ترتعشان طيلة الوقت، يداك أيضًا، أنت خلقت لمهنة أخرى، الرسم ربما، الكتابة.

ـ أنت تريدني أن أموت جوعًا إذن.

ـ أستطيع أن أطعمك.

ـ تتحدث مثل الشرقيين، نتزوج وتجلسين في البيت لتربية الصغار.

ـ بقاؤك في المنزل لتمارسي ما تحبين، لا يعني أن تتحولي إلى جارية وأنا سيدك، يمكنك الاستمتاع بعالمك بعيدًا عن المشكلات، لماذا تحبين الصور المظلمة الحزينة، لماذا تطبعينها كل يوم؟ أين تحتفظين بها؟ حياة، أنا أشعر بالقلق عليك.

ـ لا تفعل، أنا بخير.

نصل إلى بوابة البناية نصف المفتوحة، فأتخلى عن ذراعه استعدادًا للصعود.

ـ ألن تدعيني إلى كوب من الشاي في هذا البرد؟

ـ لا.

يبتسم وهو يقبلني على وجنتي، وينتظر حتى دخولي إلى المصعد، أعلم أنه سيعود إلى سيارته، ليقود إلى إيتوان، ويكمل سهرته في حانة خاصة، يجتمع فيها الهولنديون في كوريا ليلة كل جمعة، قبل الذهاب إلى المنزل، أصحبه أحيانا، عندما أشعر برغبة في رؤية البشر، ومقت شديد للمنزل المظلم الكئيب، وعندما تكون يانج شين خارج المدينة برفقة صديقها الحميم.

لكن الليلة سهرتي مختلفة قليلاً، أبدل ملابسي وأحضّر كوبًا من الشاي، الذي أحضره خصيصًا من متاجر الهنود في إيتوان، أعيد تشغيل البلاي، ليست المتوقفة على أغنية ويتني هيوستن I've Nothing، تبدأ من منتصفها، فلا أهتم بإعادتها للبداية، أخرج ملف الصور من الحقيبة،

وأضعه على المائدة الصغيرة باهتمام، ثم أجلس لأفحص كل صورة من جديد.

صورة الطفل الصغير الغارق، كانت هي المتصدرة لهذا اليوم، أكدت الأخبار أن اسمه ألان، طفل كردي، غرق برفقة أخيه وأمه في البحر، أثناء محاولة العائلة الوصول إلى تركيا، أتأمله من جديد، وهو نائم في سلام، تذكرت كلامي، الذي رددته المذيعة بعينين زجاجتين في النشرة، «غرق الطفل الكردي ألان، كفيل بإيقاظ العالم من غفوته تجاه اللاجئين السوريين، الذين يعانون من ويلات السفر عبر البحر الهائج، هربًا من وضع لا يتحمله أي شخص، مضحّين بحيواتهم وحيواة أولادهم، في سبيل بصيص من الأمل في حياة كريمة، وخوفًا من الموت رعبًا، وهو بالتأكيد أسوأ أنواع الموت».

لا أعتقد أن الحسناء فهمت معنى كلمة الموت رعبًا، كنت أتحدث عن نفسي في الحقيقة، أنا لا أخاف الموت، لكنني أخاف خوفه، أخاف اللحظات القليلة التي تسبقه، رعب الموت في طائرة تهوي من حالق، رعب الموت ذبحًا على يد داعش، رعب الموت من نزيف مستمر أمام عيني، حتى أفقد الوعي، رعب الانتظار، هو ما أكرهه، الانتظار وحده كافٍ لقتلي مللاً، أكره الطوابير، أكره المواعيد المؤجلة، في طفولتي كنت أكره جملة «إن شاء الله»، التي يصر الجميع على قولها لي، لذا أكره كثيرًا انتظار الموت، أعتقد أنني إن حدث وأصبحت في موقف، يستدعى انتظار النجاة أو الموت فورًا، فسأختار الموت فورًا بلا تردد.

هل تعذب الصغير المسكين؟ لا أعتقد، أتمنى لو لم يكن قد تعذب، ربما شعر بالرغبة في النوم وسط البحر البارد، ربما نام فورًا من دون أن يتألم، كانت أمي تخبرني دائمًا، أن الملائكة تحمي الصغار من الألم، تلهو

معهم لتشغلهم عن أي شيء آخر، تحملهم معها عندما يموتون لتدخلهم الجنة فورًا، لكني أعرف أنها كاذبة، أمي المسكينة، كانت دائمًا ما تجد أي سبب، يمنحها بعض الأمل في العالم، بعض الأمل في مستقبل أفضل، ظلت محتفظة بسذاجتها الطيبة، حتى ماتت مثلما أرادت، نائمة في فراشها المجاور لفراشي.

لم أكتشف رحيلها إلا في الصباح، رغم أنني كنت ساهرة في فراشي، أتابع الموقف المتصاعد في الشارع المصري، ليلة ٢٥ يناير ٢٠١١، ماتت أمي ليلة بداية الثورة، عندما ذهبت لدفنها، كانت القاهرة كلها تتابع الشوارع المكتظة بالبشر، حتى اللحاد كان يرغب بالانتهاء سريعًا من الأمر، الوجوه المحتقنة من حولي، لم تدع لي فرصة للبكاء أو الانهيار، كنت وحدي تمامًا، صحبتني ريم في شراء الكفن، وأحضرت جارتي بعض النساء، اللاتي تولين الغسل والتكفين، لم أشارك، ولم أرغب في إلقاء النظرة الأخيرة عليها، كنت أجلس على الأرض، ساندة رأسي على الحائط من خلفي في صمت، مكالمة هاتفية قصيرة من أبي، يسألني إن كنت أرغب في شيء ما، شكرته وأغلقت.

أسأل ريم، هل علم خالد؟

ـ لا أستطيع الوصول إليه، هو في الشارع منذ ليلة أمس.

ـ فعلاً؟

ـ نعم، سأتوجه أنا أيضا إلى الميدان، أحمد هناك معه، لا أستطيع تركه.

ـ ريم لا تذهبي، أعتقد أن الوضع سيتطور، ربما يلقون القبض عليكِ.

ـ يجب أن أذهب يا حياة، لا مزاح في هذه الأمور، أشعر أن هذه فرصتنا الذهبية، هل ستكونين بخير؟

ـ نعم.

تصل سيارة نقل الموتى، لنقل أمي إلى المقابر، الشوارع فارغة جدًا، الناس محبوسون في منازلهم، في انتظار انتهاء العاصفة، ومن بعيد، تتردد أخبار عن حملة الاعتقالات، وبعض العنف اتجاه المتظاهرين.

وحدي مع بعض الجيران، الذين تطوعوا للمشاركة، أشكرهم جميعًا وأودعهم بعد الانتهاء، يسألني جاري الأستاذ مجدي، إن كنت أرغب في أن يوصلني بسيارته، لنعود إلى المنزل، فأوافق، أصل منهكة إلى البيت الفارغ، أشعر أنني لا أستطيع التصديق، ما الذي حدث بالفعل؟

أريد أن أنادي أمي، لتشاهد معي التلفاز قليلاً، كما نفعل كل ليلة، أتردد هل أنادي حقًا، أم أنها بالفعل ذهبت؟ هل كنت أحلم؟ كيف ماتت؟ أين؟ ما الذي حدث؟ كيف ظلت ميتة بجواري ساعات طويلة، من دون أن أراها؟ كيف سأنام الليلة في ذات الغرفة؟

أغنية سريعة مفاجئة لـDuffy تنطلق بقوة، بعد انتهاء ويتني هيوستن فأنتفض، أعود من أفكاري لما كنت أفعله، ألتقط صورة الآن، وأقص حدودها بدقة وبطء، باهتمام أزيل كل ما يحيط بجسد الصغير، من فراغ وبحر ورمال، أقص حدود باقي الصور أمامي، أطفال نائمون على شريط السكة الحديدية، نساء مغللات بالقيود الحديدية، فتاة تحمل طفلاً، يبدو وكأنه أخوها وليس ابنها، وتسير في أرض جرداء صوب اللا شيء.

أحمل الصور المقصوصة، وأتجه للجدار المواجه للفراش، المزدحم بصور مماثلة متراصة، ملتصقة بجوار بعضها البعض، فوق بعضها البعض، مئات الصور المحتشدة تحمل وجوها كثيرة، وجوه أطفال، نساء، شباب، رجال، قتلة، ملثمين، مبانٍ مهدومة، حشود مستنجدة، طائرات محلقة، أبحث عن

فراغ ما بين صورة رودينا الطفلة، التي وجدوها ملقاة في صندوق القمامة، مكسورة الظهر والساقين في مصر، وبين مآب الطفلة اليمنية، التي قتلها أبوها بالرصاص منذ شهور.

أرقد على الفراش أمام الجدار في الظلام، ضوء اللاب توب الخافت موجه إليّ، مع ضوء صغير منبعث من الحمام، أتأمل الصور بدقة، أتأمل التفاصيل بجوار الوجوه، وجوه مبتسمة، وجوه نائمة في سلام، وجوه جامدة بلا حياة، أجسام ممزقة، شعر ثائر، ملابس رثة، أحذية متناثرة.

أخرج كشافي الصغير من الحقيبة، أسلطه على صور بعينها، أسلطه على صوري الجديدة، عيناي تهتزان، والهواء من أمامي يثقل ويتذبذب، أرى ألان يخرج من الجدار زاحفًا، يزحف على الهواء، في المسافة الفاصلة بينه وبين وفراشي، ينام على طرف السرير، ووجهه إلى الأسفل مثل الصورة، وخلفه تخرج مآب ماشية، تضع الطرحة السوداء على شعرها الثائر، وتعيد ضبط عباءتها السوداء الممزقة، تجلس بجواره، وتربت على ظهره، وهي تبتسم.

ـ ما الذي حدث؟ أسألها.

تكمل تربيتها على ظهر الطفل النائم، وكأنها تخاف أن توقظه، تلملم أطراف عباءتها الممزقة، حول جسمها النحيف المتسخ، وتقول: بردانة.

أود القيام، واحتضانها لكنني متجمدة في مكاني، راقدة على ظهري بلا حركة، رأسي نصف مرفوع، أتابعهما أمامي كالأشباح، هم بالفعل أشباح أم حقيقة؟

أهلوس كعادتي كل ليلة، كل ليلة، يخرج أحدهم من الجدار، ليظل

جالسًا بجواري طيلة الليل، يقص حكايته كاملة على أسماعي، أو يظل مبتسمًا بلا صوت، أحيانا يبكون، يبكون فقط طيلة الليل، أستيقظ في الصباح، لأجد الشراشف مبتلة، وكأنما غسلها المطر، أبحث عن مصدر لتسرب الأمطار داخل البيت فلا أجد، أرتجف وأقشعر، هل يخرجون حقًا؟ هل أهلوس، أم أن هذا المنزل مسكون؟

في هذه اللحظة بالذات، تعيد مآب قص حكايتها، للمرة الألف على مسامعي.

ـ جسمي النحيل لا يغطيه شيء، أجبرني أبي على خلع ملابسي ليقوم بتصويري، يجذبني من ذراعي لألتفت، يصور ظهري الذي يؤلمني بشدة، يقرب الكاميرا من وجهي المنتفخ، من عيني اليمنى، التي لا أرى بها، يقول: «الله يلعنك أنت وأمك» يجبرني على الاعتراف بأشياء لا أفهمها، يقول: قولي والله العظيم فأقول، والله العظيم أمي دعت هؤلاء الرجال للعبث في جسدي أنا وأختي، لا أعرف ما الذي يعنيه هذا الكلام بالضبط، عمري ١٠ سنوات فقط، لم أعش يومًا خارج المنزل، أمي ألقتني إلى أبي، أبي يضربني، يكويني، يجلدني، أشعر بحرقان شديد في ظهري، وشعور بالبلل، دماء؟

تلتفت إليّ تريني ظهرها الممزق بفعل السوط، الدماء تنز على الملاءات البيضاء، على الأرض، تعيد رفع العباءة، وتنظر إليّ بثبات، وهي تكمل.

ـ أحاول مداراة صدري الذي لم ينبت بعد بيديّ، لا أفكر في أي شيء، غير الألم، حتى شعري يؤلمني، جذوره المشدودة، وخصلاته المعلقة على خطاف ما في الحائط، يجعل عيني السليمة تدمع من الألم، يقولون إن هناك أماكن أخرى في العالم، يلعب فيها الأطفال مع أهلهم، يجرون في

الحدائق، تصفف الأمهات شعر فتياتهن في ضفيرة طويلة، يضحكون، تلمع أعينهم بالحياة.

أنا عيني متجمدة، منتفخة، دامعة، عليها غشاوة، لا أرى بوضوح، لا أفكر بوضوح، لا أفهم حتى ما الذي تعنيه كلمة لعب، ضحك، مرح، ضفيرة، لا أحقد عليهم، لست حزينة، لا أشعر بالقهر ولا الحزن، لا أشعر بالظلم ولا القسوة، يداي تخدّلتا تمامًا، وقدماي ترتعشان، أعتقد أنني بللت نفسي، لا أعرف دماء أم ماء، أشعر فقط بالألم، أريد فقط أن أنام، ترفع عينيها المتعبتين إلى وجهي، فأهمس.

ـ نامي، نامي يا مآب.

تمد يدها إلى ألان، تداعب شعره الصغير.

ـ أخبرني ألان أنه لم يتألم، كان هناك على كتف أمه ثم نام، عندما استيقظ وجد نفسه أمامي، يجلس معي، ومع باقي الأطفال في الجدار، لكنه نائم الآن، ينتظر أمه، هل تستطيعين العثور عليها؟

ـ نعم، سأفعل، غدًا سأحضر صورة أمه وأخيه.

تبتسم مآب، وتحمل الطفل الصغير بين يديها، وتعود ببطء إلى الجدار، تذوب داخله لتظهر من جديد في صورتها الصغيرة بجوار ألان، أظل راقدة على ظهري دقيقتين، أتنفس بسرعة، أشعر بالغثيان، أحاول استعادة القدرة على الحركة، أنهض لأزيح الملاءات التي أغرقتها الدماء، ألقيها داخل الغسالة في الحمام، وأعود مرتجفة إلى السرير، ضوء الشمس يتسرب من الشباك، وأزيز الهاتف يرجع لي بعضًا من عقلي، أضغط زر الرد بسرعة.

ـ تيو؟

ـ حياة، أنا تحت منزلك، دعيني أصعد.

ـ أنت سكران؟

ـ لا، لا أعرف، لكن أرجوك، أريدك، أنا أحبك حياة.

ـ أرجوك دعني أنام، أنا مرهقة.

ـ حياة.

ـ اذهب الآن، سآتي أنا إلى منزلك غدًا، سأقضي الليل معك، ونهار الأحد أيضًا.

أغلق الهاتف قبل أن يرد، لا أستضيف أي شخص في منزلي، عندما يزعجني تيو بالضغط، أذهب أنا إليه، ماذا لو رأى جداري؟ ربما يتهمني بالجنون، بالاختلال، ربما صحبني بنفسه إلى مصحة نفسية، أو إلى أقرب مركز بوليس.

ألقي نظرة سريعة إلى الجدار، قبل أن أغمض عيني، هذا الجدار هو كل حياتي، وهو ما يدور حوله يومي، ربما هو ما يجعلني مستمرة في العمل، في الحركة، أنا مثلهم تمامًا، ميتة منذ زمن، ربما أكون مجرد صورة أخرى في الجدار أيضًا، أخرج فقط لأقوم ببعض الواجبات، ثم أعود إليهم من جديد.

الضوء يزداد قوة، لكنني لا أبالي، أسقط في النوم بسرعة، نوم معتم بلا أحلام، لا أفكار، نوم مقبض، وصامت كالقبور.

ينظر إليّ آدم بتركيز، يسأل، من أين جاءت كل هذه الدماء على الملاءات؟

ـ لا أعرف، أخبرتك من قبل أنني لا أعرف، لكني شعرت بالبلل، فتحت عيني لأرى الدماء تغرق الملاءات، أزحتهم جميعًا لأتمكن من النوم.

ـ أنت تعرفين جيدًا، أن الأحلام لا تترك أثرًا ملموسًا على الواقع.

ـ من أدراك؟ ربما تفعل.

ـ حياة، دعيني أرى ذراعيك.

ـ لا.

ـ لم؟

ـ ولم تريد رؤيتهما؟

ـ أنت تعرفين لماذا أريد رؤيتهما.

أدير وجهي، فيتنهد.

ـ ألم تخبرني أنني هنا ليس بصفتي مريضتك، بل كصديقة ترغب في الكلام؟

ـ حسنا، تكلمي إذن، لم لا تكملين لي ما حدث في القاهرة.

ـ أخبرتك بما حدث في القاهرة أكثر من مرة، لماذا تريد أن تسمع من جديد.

ـ لا أريد أن أسمع، أريدك أنت أن تسمعي، هناك جزء ما لا يزال خفيًا، تحتفظين به لنفسك.

أسند رأسي على الأريكة كالعادة، أطلب منه سيجارة، فيخرج علبة من جيب معطفه المعلق على المشجب، يناولني إياها بصمت، يشعلها لي فأشكره، أحاول تذكر اليوم الغريب، اليوم العادي جدًا، الذي لم يحدث فيه أي شيء، سوى مكالمة هاتفية، مكالمة واحدة، فعلت كل شيء.

القاهرة ٢٠٠٩

أشعر بقلبي ينعصر بين ضلوعي، كما كان يومها تمامًا، وأنا أسمع رنين هاتف المنزل في القاهرة، أعرف أن خالد على الطرف الآخر ينتظرني، أسحب السماعة إلى داخل الغرفة المجاورة وأغلق الباب، أجلس على الأرض في الظلام، وأقول: أوحشتني.

صوته العزيز مختلف عن كل يوم، يخبرني أنه يفتقدني أكثر، كان صوته مرًا، وكأنه يحاول التظاهر، بأن كل شيء على ما يرام.

ـ ماذا بك؟

ـ أنت تعرفين ماذا بي.

ـ ألم نتفق على عدم الحديث في هذا الأمر.

ـ كيف يمكنني ذلك؟ حياة، الأيام تسير بسرعة فائقة، في أي وقت يمكن أن أخبرك بأن كل شيء انتهى، أمس أخبرتني أمي بأنهم يبحثون لي عن شقة الزوجية، يريدون أن ينتهوا من كل شيء سريعًا.

ـ وأنت، ماذا أخبرتهم؟

ـ ماذا أخبرهم؟ ولا شيء.

كانت غصته قد انتقلت إلي، كنت أشعر بأنه يريد أن ينهي الأمر اليوم،

الحل الأسهل في نظره، هو عدم المقاومة، خوض المعركة الخاسرة، هو قمة الغباء في رأيه، كنت أحاول إقناعه، أن خوض المعارك الخاسرة هو قمة الشجاعة، هو دليل كونه على حق، هو الأمل الوحيد لقصتنا معًا، لكنه ضحك بسخرية، ضحكة مكتومة قصيرة تنهي كل النقاش.

ـ خالد، يمكنك أن تفعل ما تريد، لا أطيق سماع صوتك بهذا الشكل، أنا لا أملك شيئًا لأفعله.

ـ أنا لا أريد شيئًا، أنا فقط أخبرك بما يحدث.

ـ لا داعي، الأمر كله بين يديك يا خالد، أنا مجرد كومبارس في حياتك، بيدك أن تجرني معك للضوء، وبيدك أن تتركني هكذا في الظلام.

ـ أنت لست كومبارس، أنت بطلة حياتي.

ـ حياتك الخفية فقط، أنا أعفيك من أي شيء، إن كنت تريد التوقف عن الحديث فتوقف، إن كنت تريد أن تستمر في صداقتنا المعلنة أمام الجميع، فإليك ذلك، أنا أترك لك كامل التصرف.

أنهيت المكالمة الهاتفية بلا قرار، أسباب خالد الخفية، في رفض علاقتنا تصيبني بالجنون، هناك أسباب يمكنني تخمينها، وأسباب لا أستطيع حتى فهمها، كان الوضع كئيبًا مقبضًا، ربما فكرت فعلاً في الانتهاء من كل شيء، ربما كان إنهاء العلاقة أفضل لكلينا، هذه العلاقات المدمرة تصيبني بالإرهاق، كنت أكرهه يومًا، وأحبه عشرة، منذ تلك الليلة التي نبهته فيها لوضعنا، وهو لا يكف عن الحديث في الأمر، عن التساؤل عما يحدث بيننا، عن التفكير في وضعه العالق، بين خطيبته التي لا يكرهها، وبيني أنا.

بين خطيبته التي نالت بركة العائلة الكبيرة، وبيني أنا، التي لا يعرفون بأنها موجودة أصلاً.

بين خطيبته التي يشعر نحوها بالالتزام، بعد بقائها لسنوات في انتظار تخرجه، وبيني أنا، التي لم يعرفني سوى منذ شهور، لكنه لا يقوى حتى على الابتعاد.

كانت الأيام تمضي، تسلمت تكليفي أخيرا في مستشفى حكومي، قريب من وسط القاهرة، كان حظي طيبًا، فلم أُضطر للسفر إلى محافظة أخرى مثل بعض الزملاء، اعتدت على العمل الصباحي، عدة أيام في الأسبوع، أجلس وحيدة غالبًا، أقرأ، أفكر، ربما ينتهي اليوم بمكالمة من خالد، نتحدث كصديقيين قديمين، أسأله عن أحواله فيقول: بخير.

كم كنت كاذبًا يا خالد، وكم كنت غبية.

عندما أتذكر هذه اللحظات الفاترة، اللحظات التي أضعتها بكبريائي ويأسي، حتى من مجرد المحاولة، من استغلالها لأعيد شرح مشاعري نحوه، لأحاول إفهامه أنه سيعاني مثلي وأكثر، أنه سيظل معلقًا، هكذا للأبد في قصة غير مكتملة، أشعر بالقهر.

لحظات باهتة جدًا، أيام كاملة سقطت من ذاكرتي، لا شيء يميزها، أيام كان يمكن أن تكون الأجمل، كان يمكن أن أستغلها في تكوين المزيد من الذكريات مع الرجل الذي أحب، ذكريات أسترجعها في ليالي وحدتي الدائمة فأشعر بالدفء، بالألم، بالحنق حتى، بالاختناق.

كان يجب أن لا تمر لحظة، من دون أن أحاول إقناعه بفداحة ما يفعل، كنا نقترب من بداية النهاية، بداية اللا عودة، كانت هذه الفترة في نهاية عام ٢٠٠٩، فرصتنا المثالية للبحث عن منفذ، منفذ ما ربما يجعلنا

قادرين على تصحيح الوضع، على البقاء معًا رغم كل شيء، ليتني طالبته حتى بالهرب، بالابتعاد عن عائلتينا معًا، بالابتعاد عن الأصدقاء، عن المشكلات، عن المعارك الخاسرة، عن رحلته في البحث عن مسكن الزوجية، مع فتاة أخرى غيري، لا يعرف حتى لم عليه الارتباط بها، وتركي من دون أسباب مقنعة.

كان ينتظرني في مقهى قريب من المنزل، وكنت أرتدي سروالاً من الجينز، وكنزة صوفية زهرية اللون، أضع وشاحًا صوفيًا بنفس اللون حول رقبتي، أذكر المكان، أذكر الأغنية المذاعة وقتها، أذكر ملابسه، شكل المائدة، شكل النادل، أذكر كل شيء، وكأنه حدث أمس.

أراه فور دخولي إلى المكان نصف الفارغ، وأتجه إليه فورًا، أجلس على المقعد المجاور له، وأبتسم.

ـ كيف حالك؟

ـ بخير، أفتقدك.

لا يرد، ينظر إلى هاتفه، كما يفعل عادةً، عندما لا يجد ما يقوله، ثم يرفع نظره إليّ.

ـ رأيت الشقة الجديدة، جيدة، ربما تصبح هي فعلاً منزلي المستقبلي.

ـ رائع، لم يتبق سوى الزفاف إذن.

ـ همم

ـ هل أنت واثق من أن هذا ما تريد فعله؟

ـ لست واثقًا من شيء، أريد فقط الانتهاء من كل هذا.

كنت أحدق في وجهه من دون كلام، لا أعرف لماذا أتحمل كل هذه الأمور، والكلمات المزعجة، لماذا أتحمل قسوتك غير المبررة، وكأنك تعاقبني على ذنب ما، هل تعرف أنت يا خالد؟ لم لا تخبرني إذن.

ـ مشكلتك يا خالد، أنك لا تتحدث كثيرًا، لا أعرف أصلاً فيم تفكر، بم تشعر، هل تفتقدني؟

ـ لا داعي لهذه الأسئلة.

ـ كيف؟ أريد أن أفهم، هل تعرف أن الاشتياق إليك، ربما يتوقف عن إحداث كل هذا الألم في قلبي، لو علمت فقط أنك أيضا تشتاق إليّ.

ـ لا أرى أي فائدة من هذا الحديث.

أهز رأسي في يأس، أحدق في الوردة الزهرية الصغيرة في المزهرية أمامي، يسألني هل تعجبك؟

ـ أمد لها أصابعي، كانت صناعية من المطاط الناعم.

ـ نعم جميلة، تشبهني.

يمد يده ليقطعها من فرعها، ويعطيها لي.

ـ يا أحمق لو رآك النادل لطردنا شر طردة.

ـ لا أهتم.

أبتسم، أضع الوردة في كف يده، أمسك بأصابعه، وأغلقها عليها برفق.

ـ حتى تحمل رائحتك.

يضع كف يده الأخرى، على كف يدي، يظل عالقًا بين كفيه، كنت

أشعر برغبة عارمة في البكاء، في الصراخ، ماذا سيحدث لو أخذتني وذهبنا الآن، إلى مكان آخر بعيد، لا أريد شيئًا، لا أريد أي شيء سواك وهذه الوردة الصغيرة.

ـ خالد، أنا أحبك.

يصمت للحظات، يتحاشى النظر إلى وجهي، يرفع كف يدي إلى شفتيه ويقبله، أسحبه من بين يديه، أتظاهر بمتابعة شاشة التلفاز، وأنا أداعب الوردة الزهرية الصغيرة.

لم يبق لي منك سوى هذه الوردة، وبقايا عطر «هوجو بوس» العالق بها رغم السنين، ليتك لم تعطني إياها يا خالد، ليتك تركتني بلا ذكرى، بلا عبق، بلا دليل على أنك يومًا وُجدت هنا، إلى جواري، ممسكًا بيدي بين يديك، ليتك لم توجد، وليتني أيضا لم أوجد.

سيول ٢٠١٥

أطرق باب تيو، فيفتح لي وكأنه واقف خلفه، تنبعث من خلفه رائحة طعام طيبة، يبتسم وهو يحمل في يده ملعقة خشبية طويلة، ويدعوني للدخول.

ـ أرجوك أخبرني أنك لا تطهو.

ـ بالطبع أفعل.

ـ يجيد تيو إشعاري بالذنب بمعاملته الطيبة، وأجيد أنا إفحامه بعدم إظهار تأثري.

أضع معطفي على ظهر الأريكة وأجلس لمتابعة الأخبار على شاشة التلفاز.

ـ لماذا لا تدعيني أصعد لمنزلك؟ هل تحتفظين بجثث معلقة في سقف البيت؟

ـ نعم.

ـ لا تقلقي لن أشي بك للشرطة.

ـ لكنك لن تتحمل الرائحة.

أكاد أراه، وهو يبتسم بجانب فمه كعادته، أتأمله بطرف عيني، مهندم

ومرتب حتى في مريول المطبخ، يبدو أقرب للبريطانيين الراقين، الذين أحب التعامل معهم، حتى إنجليزيته راقية مثلهم بذات اللهجة، أخبرني أنه درس الصحافة في بريطانيا لعدة سنوات، من هناك اكتسب اللهجة الرصينة التي تثير إعجابي.

أنهض من مكاني، أتوجه إلى خلف بار المطبخ لصنع القهوة، يحتضنني تيو من ظهري مقبلاً عنقي، أستدير له، وأحيط وجهه بكفي.

ـ آسفة لكني أحب المجيء لمنزلك، منزلي فوضوي تمامًا، ملابس وأوراق ممزقة، أشياء لا أدري كنهها، ستكرهني إن رأيته، يبدو وكأنه حظيرة خنازير برية كريهة الرائحة.

ـ لا مانع لدي.

ـ أنا أمانع.

يحملني من خصري، ليجلسني على بار المطبخ، يقبلني برفق، فأتجمد كعادتي للحظات، ثم أستجيب له ببطء، يتوقف عقلي عن التفكير، ثم أدفعه قائلة: الطعام سيحترق.

يسند جبهته على جبهتي ثانية، وهو يلتقط أنفاسه، ثم يتركني، ويعود لتحضير باقي الأطباق، بينما أصب أنا القهوة في المج الخاص بي لديه، وأسبقه إلى الأريكة، أمام مائدة القهوة الصغيرة، يحمل طبقين كبيرين ويضعهما أمامنا، بعض الدجاج المقطع مع الصوص الأبيض، والأرز بالخضراوات، وزجاجة من النبيذ.

يصب لنفسه فقط، في كوب فخاري آخر.

ـ أتمنى لو تجربي النبيذ.

ـ لم؟

ـ ربما يخرجك من أفكارك قليلاً.

ـ يا عزيزي، أنا لا أفكر كثيرًا، لماذا تعتقد أنني مصابة بهوس ما من الأفكار، أفكر كما يفكر جميع البشر.

ـ لا أنت مختلفة.

ـ لهذا تحبني؟

ـ لا أعرف.

أقبله على وجنته، وأسرع في تناول الطعام، أرتشف بعض القهوة، وأتأمله لحظات، وهو يأكل، أحمل طبقي إلى المطبخ، وأتوجه لحوض الغسيل، يأتي خلفي حاملاً طبقه، هو الآخر.

ـ دعه سأغسل أنا الصحون، ما دمت أنت أعددت الطعام.

ـ أهذا تمرين على حياة الزوجية؟

أبتسم، وأقول مازحة: ـ لا تحاول.

يجرني من يدي قبل أن أنتهي، يهمس، دعيها حياة، لا داعي لأي شيء الآن.

أنظر إليه بصمت، وأترك نفسي إليه، يخلع عني قميصي من دون أن أقاوم، أسبقه إلى الفراش، وأندس أسفل الغطاء الخفيف.

ـ أغلق الضوء أرجوك.

يفعل، ثم يقف أمامي، من دون أن يحول نظره عني، يفك أزرار

قميصه بهدوء، منظم جدًا حتى في عاطفته، يضعه على ظهر المقعد الخشبي المجاور، ويجلس بجواري.

لا أخلع ملابسي إلا أسفل الغطاء، ينام بجواري، ويمد يده إلى نظارتي الطبية التي نسيتها، ينزعها ليضعها بجوار نظارته على الكومود، ويبتسم.

ـ أحب عينيكِ بلا نظارات.

ـ أنا أحب عينيكَ بالنظارات.

يقبلني على مهل، يداه تعرفان طريقهما جيدًا على جسدي، لا أتحدث كثيرًا ولا هو أيضًا، يعلو صوت أنفاسنا فقط شيئًا فشيئا في الظلام، لا أبدو متحمسة في البداية، لكنه يعرف كيف يثير حماسي ببطء.

ـ أغلق عينيك، لا أحب أن تراني هكذا ضعيفة.

ـ أراك جميلة، دائمًا.

ـ أرجوك أغلقهما.

أضم رأسه إلى عنقي حتى لا يراني، يستمر في تقبيلي برفق، يحتلني كاملة من دون جهد، يقول لي دائمًا: إننا متوافقان جدًا في الفراش، وهذا في نظره دليل كافٍ على توافقنا كثنائي.

أحاول كتم شهقاتي المتتالية، تفلت من بين أسناني آهة، فيرفع رأسه ناظرًا إليّ.

ـ أرجوك لا تنظر إلي.

ـ أحبك حياة، أرجوك أنتِ.

ـ أرجوك ماذا؟

ـ ألا يمكنك أن تحبيني ولو قليلاً؟

أرفع رأسه بكفي وأقول: أحبك بالطبع، لا داعي لأن أنطق بها كل خمس دقائق، لماذا أنا هنا الآن إن كنت لا أفعل؟

يرقد بجواري على جانبه، يتأملني في الظلام، ألملم أطراف الملاءة حول جسمي، استعدادًا للنهوض.

ـ سأستحم.

ـ لماذا لا تدعين ذلك للصباح؟

ـ لا أحب النوم هكذا.

ـ لماذا، هل تشعرين بالذنب؟

ـ لم؟

ـ لا أعرف، بسبب الدين.

ـ أنت تعلم أنني غير متدينة.

هل تشعرين بالذنب بسببي؟

أقترب منه، وأجلس على طرف الفراش أمامه، لينهض جالسًا على الفراش.

ـ لا أفعل شيئًا لا أريده، عليك أن تعي ذلك جيدًا.

ـ لماذا تشعرينني أنك مضطرة إذن؟

ـ لماذا تشعر بذلك؟ أنت تعلم مقدار حاجتي إليك.

ـ حاجتك أم حبك؟

ـ لا فارق.

ـ إذن ظلي بجواري قليلاً، دعينا نتحدث، أو نشاهد أي برنامج سخيف، ربما فيلمًا.

ـ لا أحب.

ـ إذن، أريدك مرة أخرى.

ـ كاذب.

يجذبني من جديد لأرقد فوقه، يعيد خصلات شعري المتساقطة على عيني خلف أذنيّ، أحب تأمل وجهه والحديث معه، لماذا أتيت يا تيو في وقت خاطئ؟ ربما كنا بالفعل زوجين سعيدين بلا مشكلات الآن، ربما مع طفل أو اثنين.

يدفعني إلى جواره فأقاومه قليلاً، أحب استفزاز هدوئه، ليصبح أكثر عنفًا وعاطفة، يثبت ذراعيّ خلف ظهري، ويتأمل وجهي قليلاً، أغمض عيني، وأتركه يفعل ما يريد، هذه المرة أنغمس سريعًا داخله، أذوب أكثر، هذه المرة لا أترك الفراش بعد الانتهاء.

في الصباح، قررنا الذهاب معًا إلى ميدان سي يونج، الشارع الضخم الذي يحوي السفارة الأمريكية، القصر الملكي، وتمثال الملك سي يونج المحبوب لدى الكوريين، أمامه يقع ستار باكس في ثلاث طوابق فوق بعضها البعض، كل طابق يضم مساحة صغيرة، كعادة البنايات الكورية القديمة، بار الخدمة وبعض المقاعد العالية المواجهة للنافذة الزجاجية الكبيرة، أريكتين أو أكثر.

تركنا السيارة في «مآرب» بعيد في بداية الشارع، وقطعنا هذه المسافة مشيًا، كان الشارع والميدان مزدحمين بالسائحين، يشق الطريق الطويل حدائق طولية منتظمة، بعض النصب التذكارية، التي يحتشد حولها الجميع لالتقاط الصور، بحيرات صناعية منخفضة عن مستوى الشارع، محاطة بسياج حديدي، يمكن الوصول إليها عبر بعض درجات السلالم، بجوارها يحتشد الشباب والشابات يمزحون ويضحكون، الأطفال يطعمون الأوز البري، الذي يسبح فيها، هناك موسيقى منبعثة من مكان ما بعيد، وعلى الناحية الأخرى يحلق علم أمريكا فوق سفارتها.

أقف أمام البحيرة، أتأمل جمالها الصناعي الأقرب للطبيعي، يعطي تيو ظهره للسياج الحديدي، ويشعل سيجارة، نسمات الهواء البارد تثير خصلات شعري، فيرمقني مبتسمًا، وكعادته، يخرج هاتفه لتصويري من دون أن أنظر له.

- يكفي تصوير أرجوك.

- لكنك جميلة.

أبتسم له، وأعود لتأمل البحيرة الصغيرة، ويواصل هو التقاط الصور لي، من دون أن أنظر حتى.

يجذبني فجأة من ذراعي، ويتجه نحو ستاربكس.

ندلف إلى أول طابق بسرعة، أجلس على الأريكة الوثيرة، في انتظار تيو الذي يملي على النادل طلباتنا، قهوة أمريكية مع الحليب لي، وكابتشينو له.

يأتي تيو ليجلس بجواري، ألتصق به ساندة رأسي على المسافة الضيقة بين عنقه وكتفه، كنت أميل له هذه الأيام، وأرغب في البقاء أكثر بجواره.

ـ لماذا لا تظلين هكذا طيلة الأسبوع؟

أنا أتحول فعلاً في أيام العمل، أجلس بجواره بالساعات، من دون أن أتبادل معه، ولو كلمة، أندمج في العمل، والأخبار، وأفكاري الخاصة، حتى يعتقد أنني وقعت في غيبوبة ما.

ـ أنت تعرف أنني أنغمس في العمل فقط، لا أقصد تجاهلك.

ـ حياة، لما لا نتزوج؟

ـ ماذا؟

ـ نتزوج، تعالي معي إلى هولندا في إجازتي السنوية، سأسافر في بداية ديسمبر قبل الكريسماس، نتزوج هناك زواجًا مدنيًا، ونعود معًا.

ـ أخبرتك أنني غير مؤمنة بالزواج.

ـ لا تؤمنين بالأديان أو الزواج أو الحب، بم تؤمنين إذن؟

ـ أنا أؤمن بوجود الإله، لكني لا أؤمن بأي قوانين، وأعراف، ومظاهر دينية، ولا اجتماعية أيضا، ومن ضمنها الزواج، كما أنني لا أؤمن بالناس.

ـ لم تجربي الزواج حتى تحكمين.

ـ أعرف الكثير من القصص عنه، كما أنني لا أرغب في الإنجاب.

ـ لا أريد أطفالا.

ـ أنت كاذب، أنت أب بالفطرة، أحيانا أحسبك أبي.

ـ تكفيني أنت طفلتي إذن.

ـ تيو، لا تشعرني بالذنب، أخاف عليك كثيرًا، أنت تعرف أنني سأرحل يومًا، عليك أن تتقبل هذه الحقيقة.

ـ لا يجب عليك أن ترحلي، إن كنت لا تحبين الحياة هنا، فدعينا نعود إلى هولندا إذن، إن كنتِ تودين العودة إلى دبي، فسأذهب معك، أستطيع العمل في أي مكان.

ـ لا أريد الذهاب لمكان معين، أنا لا أستقر في مكان واحد كثيرًا.

ـ أنت هنا منذ ثلاث سنوات.

ـ هذا يعني أنني اقتربت من الرحيل.

يصمت تيو مطرقًا، ألتصق به أكثر، يداعب شعري بحركات آلية، قبل أن ينهض ليحضر كوبي القهوة الكبيرين، ثم يأتي ليجلس في المقعد المقابل.

ـ لماذا تجلس أمامي.

ـ أريد أن أبقى على مسافة كافية من بعدك.

ـ لا داعي لهذه الجمل الدرامية المضحكة، أخبرتك من البداية، أنني لن أبقى.

ـ لكني أعرض عليك البقاء، أنت تحبينني كما تقولين، لماذا لا تمنحي

نفسك الفرصة للاستمتاع بشيء واحد، شيء طبيعي واحد، بعيدًا عن أفكارك السوداء المستمرة؟ بعيدًا عن الأخبار وصور القتلى، واكتئابك الدائم.

أنظر إليه دقيقة، ثم أنهض، وأنا أرتدي المعطف.

ـ أين ستذهبين الآن؟

ـ يبدو أنني سأرحل مبكرًا جدًا.

يحاول الإمساك بي، فأنزع ذراعي من كفه، وأهرع إلى الخارج، يلحقني إلى الشارع المزدحم بالسائحين، ينظر المارة الفضوليون إليّ، في اندفاعي وهو خلفي، فأتمهل قليلاً في السير، مظاهرة ملونة بعيدة أمام السفارة الأمريكية، تطالب بعدم التدخل الأمريكي في شؤون البلاد، يحملون البالونات الملونة واللافتات المرسومة، يتحدثون في مكبرات الصوت، ويغنون، ويعزفون الجيتار برقة، مظاهرات ناعمة، لا تشبه مظاهراتنا في أي شيء، أقف لأتأملهم وهم يلتقطون الصور، ويضحكون كأنهم في نزهة، أهز رأسي وأتجه إلى جانب الطريق، في انتظار أي سيارة أجرة، لتحملني إلى المنزل، يقف تيو بجواري، محاولاً الاحتفاظ بهدوئه، وهو يلتقط أنفاسه.

ـ حياة لا داعي لتصرفات المراهقين، سأقلك إلى منزلك، لن أتحدث، أعدك.

أفكر لحظتين ثم أسير بجواره، لا أتحدث حتى نصل إلى السيارة، يقود في صمت من دون أن يتحدث، يخرج سيجارة من العلبة الملقاة بجوار مقعده ويشعلها.

ألتقط سيجارة أنا الأخرى، وأشعلها ببطء، ينظر إليّ بدهشة، ويهز رأسه من دون أن يعلق.

ـ أنا آسف حياة.

ـ لا داعي للأسف، لم تقل شيئًا.

ـ أنا أحبك.

ـ للأسف.

تصدمه إجابتي، فلا ينطق طيلة المسافة إلى منزلي، أراقب الطريق النظيف الخالي من نافذتي المغلقة، لا يوجد أمام عيني سوى حواجز مرتفعة، تمنع وصول صوت السيارات إلى البنايات السكنية على الجانبين.

الحواجز متتالية، مزخرفة، عالية، على الجانب الآخر، هناك أشخاص يعيشون، ويتنفسون، ويأكلون، لا يدرون بأي شيء يحدث على الطريق، ولو كانت كارثة.

هناك أشخاص طبيعيون، يتزوجون وينجبون، يتناولون طعامهم، ويشاهدون البرامج المضحكة على شاشة التلفاز، يحبون وينامون ويعملون، حياة بسيطة جميلة، عسيرة على التصديق، أنظر إلى تيو، وأفكر لِمَ أمنع نفسي من الحصول على مثل هذه الحياة؟ لم أحاول بكل الطرق، البقاء في الحزن والظلام والاكتئاب كما قال، لما غضبت عندما واجهني بالحقيقة؟ ما الذي تحبه فيّ أيها البائس؟ لماذا تحبني عليك اللعنة؟

يجلس آدم بجواري مبتسمًا، فأنظر له أنا بتعجب، أرفع حاجبي للأعلى فيسارع إلى سؤالي

ـ هل تحبين تيو؟

ـ لا أعرف.

ـ هل تشعرين أنه يحبك؟

ـ لا أعرف أيضًا.

ـ ما الذي تفعلينه معه إذن؟

ـ أخبرتك من قبل، أنا أميل إليه، أحبه نعم، لكن لا أعرف إن كان حبًا، أم مجرد احتياج لشخص مثله في وحدتي الدائمة.

ـ هل تفكرين في خالد؟

ـ نعم، كل يوم.

ـ ما الذي تتوقعينه؟ أن يترك زوجته ويعود إليك؟

ـ لا أفكر هكذا.

ـ ما الذي تفكرين فيه إذن؟

ـ لا أعرف، أنا فقط أتذكر ما حدث بيننا، كلما حدث، أشعر أنني لم أحصل على نهاية منطقية حتى اليوم معه.

ـ يمكنك أن تحكي لي ما تريدين، ما زلت تخفين عني أحداثا كثيرة.

ـ بالتأكيد أفعل، لم أنته من قصتي بعد.

ـ أنا لا أتعجلك، لكنك تصرين على اللف والدوران، تحكين لي قصة

عظيمة رومانسية لطيفة، بين شابين عاديين، فرقت بينهما الحياة، لست أول ولا آخر شخص يحدث له هذا، حياة.

ـ ألم أخبرك أنني لم أنته بعد.

ـ كلي آذان صاغية إذن.

القاهرة ٢٠١٠

اسمح لي أن أستعين ببعض قصاصاتي الورقية هذه المرة، كان عام ٢٠١٠ غريبًا وطويلاً، هل تصدقني إن أخبرتك بأنني لا أتذكر معظمه، تعرف، الثورة المصرية حدثت في بداية ٢٠١١، مشكلتها أنها كانت سريعة جدًا، متعاقبة، مليئة بالتفاصيل والمشاعر، كانت حدثًا رئيسًا في حياة الجميع، حتى هؤلاء الذين لم يشاركوا فيها مثلي، الذين لم يتحمسوا كثيرًا لأي شيء يحدث، ولم يروا حتى فائدة للأمر.

لكنها بشكل أو بآخر، كانت حدثًا رئيسًا في حياتي، جعلني أنسى كل ما سبقها، جعلني أنسى حتى رحلتي إلى دبي، في العام الذي يسبقها، جعلني أنسى السبب الرئيس، الذي دفع خالد لإنهاء حتى صداقتنا المزعومة معًا.

أنهاها في الهاتف كما يفعل دومًا.

أذكر فقط لهجته الحادة يومها، ردوده الباردة، سؤاله، ألم أطلب منك أن تتوقفي عن الاتصال بي؟ سأتصل أنا بك إن أردت.

ـ لماذا، لم تعطني سببًا.

ـ أنا مشغول دائمًا، محاط بالناس دائمًا، لا أستطيع الرد في أي وقت.

ـ حسنًا يا خالد كما ترغب، لكني أرغب في الفهم، لماذا توقفت عن رؤيتي، ألم نتفق أننا أصدقاء؟

ـ نحن لسنا أصدقاء، لم نكن ولن نكون.

ـ أنت تقرر وحدك؟

ـ هذا القرار يجب أن أتخذه وحدي.

ـ كما تشاء.

أغلقت الهاتف، وجلست أحدق في الفراغ ساعة، تنبهت على صوت الباب، وهو يغلق، انتبهت وقتها فقط، أن أمي غادرت المنزل، ربما ألقت عليّ السلام ولم أرد، كانت هذه من المرات النادرة، التي تغادر فيها أمي المنزل وحدها، التفت إلى فراشها، لأجد صندوقًا عتيقًا أقرب لصناديق الجواهر القديمة، أعرف أنها لا تحتفظ بأية أشياء ثمينة، لذا لفت انتباهي شكله الغريب، ولونه الأحمر الداكن.

اقتربت من الصندوق لأفتحه، كان قفله مفتوحًا، لكن يبدو أنها تحرص دومًا على غلقه، ربما تركته اليوم بالصدفة، الصندوق يمتلئ بالرسائل الورقية الصفراء، رسائل غرامية؟ نظرت سريعًا للتوقيع لأرى اسم أمي، كانت تكتب لشخص آخر اسمه حسن، لم أسمع عنه من قبل، رسائل يبدو أنها لم ترسل أبدًا، كتبتها وطوتها في هذا الصندوق وانتهى الأمر، أفتح الرسالة الأولى، وأنا أشعر بذنب التلصص، لكن مشاعري تذهب فور البدء في القراءة، فور اكتشافي لهذا الجزء الغريب الذي لا أعرفه عن أمي.

عزيزي حسن

أعرف أنني لن أرسل هذه الرسالة أبدًا، لكنني لم أجد سوى الورق لأخبرك بما أشعر.

يوم الزفاف، كنت تجلس أمامي مع والدتك، على المائدة المواجهة لي تمامًا، وأنا بفستان العروس على الجانب الآخر، بجوار رجل لا أعرفه، أزف إليه اليوم وليس إليك، كنت تنظر إليّ بحزن، وكنت أحاول كتم دموعي حتى لا أفتضح.

تجذب أمي والدتك من يدها، لتقف بجواري من أجل صورة تذكارية، تنهض أنت بخجل وتقف بجوار أمي، أملك هذه الصورة، قصصتها حتى لم تعد تضم سوى ثلاثتنا، كنت أحب تخيلك عريسي، تقف بيننا أمي لمباركتنا، قبل أن نبدأ حياتنا الجديدة معًا، حياتنا التي لم تحدث أبدًا، سوى في خيالي الدائم كل يوم.

توفيق رجل جيد، أنا الآن حامل في شهري السابع، وهو لا يتوقف عن رعايتي والاهتمام بي، رجل صالح مهذب، لكنه ليس أنت.

أشعر بالمرارة تملأ حلقي يا حسن، بعد أن أخبرتني أمي اليوم أنك خطبت كريمة جارتنا، كريمة الصغيرة التي كانت تلهو في الشارع، ونحن نقف في شرفتي منزلينا، نتبادل النظرات والابتسامات، من دون حتى أن نملك الجرأة على الكلام.

لماذا لم نتحدث؟ لماذا لم تخبرني بشيء؟ لماذا تركتني أتزوج رجلاً آخر، بينما كنت أنت الرجل الذي أتمناه، أريده، أعرف منذ اللحظة الأولى، أنه هو الوحيد المناسب، أنه هو الذي خلقه الله ليكملني، كان الله رحيمًا بنا، فلم يقذفك في الجانب الآخر من الكرة الأرضية، حتى لا نلتقي أبدًا، لكنه جعلنا نعيش بجوار بعضنا البعض، نشب معًا، ونتعلم معًا، ونرى بعضنا البعض كل يوم، كل هذا ليتزوج كل منا بشخص آخر لا يعرفه، لا يحبه، لا يتمناه.

حبيبي حسن، أتمنى لك السعادة مع كريمة، وبالتأكيد لن أحضر الزفاف، فأنا لا أملك شجاعتك، سأخبر أمي أن الحمل يرهقني حتى لا تمطرني بالأسئلة، ربما أرسل لك باقة من الورود حتى، أنا فعلاً أتمنى لك التوفيق.

أنهيت قراءة الخطاب، وأنا لا أصدق، أعدت قراءة اسم أمي عشرات المرات في أسفله، تناولت آخر، يقص على حسن قصة أخرى من معاناتها معي في طفولتي، في الإرهاق والسهر والتعب، في تأكيدها الدائم عن كرم أبي وطيبته، ومساعدته لها في رعايتي، وكأنها تعدد مزاياه لنفسها في رسائلها التي لم يقرأها أحد.

صورة الزفاف المقصوصة، كانت قابعة في قاع الصندوق، صورة لأمي عروس جميلة، بفستان طويل ضيق، وتاج من الورود البيضاء على رأسها، كانت تبدو كالملاك الشفاف، أستطيع أن أرى عروق يديها، وعنقها في الصورة العتيقة بالأبيض والأسود، بجوارها تقف جدتي رحمها الله، وبجانبها شاب نحيف، أسمر، يرتدي بذلة كاملة محكمة، وينظر في حزن إلى أمي، ربما نظرة لم يلحظها أحد حينها، لكنها بقيت دائمة في الصورة، التي أبقتها هي بجوارها طيلة هذا العمر، في صندوق أحمر عميق مغلق، داخل كومود فراشها الصغير، مع رسائلها الحزينة، التي عرفتني للمرة الأولى سبب الانفصال، سبب عدم قدرتها على إكمال حياتها مع رجل طيب، لكنها لا تحبه.

هل كان حسن بنفس شجاعة أمي؟ هل ترك زوجته من أجلها؟ بالطبع لم يفعل، وإلا لماذا تعيش هي معي الآن وحيدة، حزينة لم أفهم أبدًا أنها حزينة، بسبب قصة حبها غير المكتملة، كنت طيلة الوقت، أعتقد أنها حزينة على أبي، حزينة بسبب طلاقها شابة يافعة، حزينة بسبب بقائها

وحيدة هكذا، بلا حب، بلا أصدقاء، بلا شيء، سوى ابنة حمقاء لم تقدرها يومًا.

أعيد وضع الرسائل والصورة من جديد في الصندوق، وأتأكد أنه في مكانه السابق، كما رأيته للمرة الأولى.

تدخل أمي إلى الغرفة ببطء، تخلع حجابها الأسود، وهي تتنفس بسرعة وإرهاق، تجلس على الفراش من دون قوة، أسألها أين كنت؟ لماذا ترتدين الأسود؟

ـ كنت في عزاء.

ـ من مات؟

ـ شخص لا تعرفينه، جار قديم لي في العباسية، علمت اليوم فقط، رغم وفاته منذ يومين، تربطني صداقة قديمة بأخته، فكان واجبًا أن أذهب.

ـ بالطبع، بالطبع.

أعرف الجواب من دون أن أسأل، لكني أشعر برغبة حارقة في إلقائه رغم ذلك.

أحاول النظر إلى أي شيء، إلا وجه أمي، أداعب شرشف السرير بأصابعي وأسألها، ما اسمه؟

تصمت هي لحظات، أراها بطرف عيني، تنظر إلى الصندوق الأحمر على سريرها، كأنها تراه لأول مرة، تحاول تذكر إن كان بنفس وضعه أم تحرك قليلاً، تفكر هل رأيت ما فيه، بعدما نسيته هي في غمرة حزنها، وارتباكها من الخبر، أم تجاهلته كما أتجاهلها طيلة عمري.

سمعت صوتها خفيضًا مترددا، مفعمًا بحسرة لم أسمعها منها من قبل، وهي تقول:

ـ اسمه، اسمه حسن.

كوريا ٢٠١٤

أفتح عيني ببطء، جدار أبيض ناصع يصادفهما فأنتفض، أين أنا؟

أنظر بجواري لأرى تيو ممددًا على السرير، أنا في بيته؟ ما الذي جاء بي إلى هنا؟

كانت هذه هي زيارتي الأولى لمنزل تيو في سيول، صداع فظيع يحيط برأسي من جميع الجهات؟ لماذا أشعر بأعراض السُكر، وأنا لا أسكر؟

أهز تيو فيستيقظ ببطء، يبتسم قائلاً: صباح الخير.

ـ ما الذي أتى بي إلى هنا؟

ـ لا تذكرين؟ كنت متعبة جدًا، تهلوسين طيلة الوقت بأشياء غير مفهومة.

ـ مثل ماذا؟

ـ لا أعرف، أشياء مرعبة مثل الدماء، تغرق كل شيء، أنا قاتلة، بصراحة، حياة.. كنت أشك فيك بالفعل، الآن بت متأكدا.

أنظر للتقويم، في المنبه الرقمي على المائدة الصغيرة بجوار الفراش، أرى تاريخ أمس، ٢٥ أبريل ٢٠١٤، ثلاثة أعوام على الأمر، ولا أزال أعاني من نفس الشيء إذن.

ـ هذه هلاوس، بالتأكيد كنت مريضة.

ـ فعلاً، أنت محمومة، لا تزالين مريضة.

ـ هل حدث بيننا شيء؟

ـ بالتأكيد لا، ماذا تحسبينني؟ وحشا؟

أرقد من جديد على الفراش، أرتدي «تيشيرت» رماديا واسعا قصيرا، بالتأكيد يعود له، لا أسأله من نزع عني ملابسي، فالأمر واضح، كنت مجهدة جدًا لدرجة أنني لا أمانع.

يستيقظ هو متجها إلى الحمام، أسأله عن العمل فيرد: عطلة، بسبب عيد ما من أعيادهم الكثيرة، حظنا حسن.

أغلق عيني من جديد، ثلاثة أعوام، ثلاثة أعوام بأكملهم، لماذا يا رب لا أنسى، لماذا لا أنسى؟

أسمع صوت الدش منبعثا من الحمام، أشتهي أن أستحم أنا أيضا لكني خجولة، لا أحب استخدام الحمام خارج بيتي أبدًا، لا أعرف كيف سأتجه إليه بعدما يخرج هو.

دقائق، ويخرج والمنشفة حول خصره، يتجه للمطبخ الصغير ليعد بعض القهوة.

ـ يمكنك استخدام الحمام على فكرة.

لا أعرف كيف يفهمني هذا الرجل هكذا، ولا أعرف لماذا أعامله بكل هذا السخف، أنهض ببطء وخجل إلى الحمام، وأحكم إغلاقه، أنزع التيشيرت الواسع وملابسي الداخلية، وأقف أسفل الدش، لا أشعر بالغرابة فحمامي يماثل هذا الحمام، بلا أي اختلاف، على الرغم من أن شقته تقع في عمارة سكنية فاخرة، بينما تقع شقتي في عمارة عتيقة.

أخرج أنا أيضا بعد دقائق بنفس التيشيرت، أسأله عن ملابسي، فيشير إلى الأريكة، مطوية ومرتبة بعناية، في الحقيقة كل شيء يبدو في مكانه الصحيح في هذا المنزل، منظم بشدة، يبدو منزلي بجواره كغرفة مراهق أحمق.

أتجه إلى المطبخ لأقف بجواره، يصب لي بعض القهوة في مج ملون، فأشكره.

ـ هل تشعرين بتحسن؟

ـ نعم.

يقترب مني قليلاً، وجهه أمام وجهي تمامًا، يحاول تقبيلي، فأبعد وجهي عنه.

ـ تيو لا أريد.

ـ لم؟

ـ هكذا.

ـ أسباب دينية؟

ـ لا.

ـ أسباب شخصية؟

ـ نعم.

يبتعد عني من دون كلمة، لا أعرف كيف أفكر، أكذب إن قلت إنني لا أشتهيه، كان وسيما جدًا، ذكيًا، أقرب إلى الأمراء البريطانيين في العائلة المالكة، يذكرني قليلاً بالأمير ويليام، حب مراهقتي الدائم، كنت أفكر فيه

منذ المرة الأولى، التي وقعت عيناي عليه، كان مختلفًا عن كل من عرفتهم، في الحقيقة كنت أشعر بالفخر، عندما يغازلني ببعض الكلمات اللطيفة، أو يحضر لي القهوة في الصباح، للعرب ضعف خاص أمام الأوروبيين، خاصة عندما يتحدث بلكنته البريطانية المحببة، أو عندما يعلمني بعض الكلمات الهولندية، غريبة الوقع على مسامعي.

أتردد قليلاً، ثم أتجه نحوه، وأحتضنه من ظهره، يحيط ذراعيّ الملفوفين حول خصره بذراعيه من دون أن يتحدث، يستدير إلي، فأقرب وجهي من وجهه، يقبلني لأول مرة، فأتركه يفعل، لا أتفاعل بسرعة، لا أشعر بحاجتي إلى الجنس في الظروف المعتادة، أتذكر المرة الأولى والأخيرة لي منذ سنوات، فأصاب بالقشعريرة.

أرتجف قليلاً، فيبتعد.

ـ هل ضايقتك؟

ـ لا.

ـ أحاول طرد الأفكار من رأسي، أشعر أنني أريد أن أفعل هذا، أنا ضعيفة جدًا هذا الصباح، لا أعرف إن كان من تأثير تاريخ اليوم، أو من حمى الليلة الماضية، أو لشعوري بأنني خذلته، أم بسبب رائحته الجميلة التي تفعم أنفي، وتقنعني بالاستمرار، فطرة الانجذاب بين رجل وامرأة، تلغي عقلي، تلغي قراراتي بمقاطعة الحب، وكل ما يقاربه.

أنغمس في الأفكار، ولا أشعر بما يفعله تيو، مستسلمةً له تمامًا، يرقدني على الفراش من جديد، أتركه يفعل ما يحلو له، لا أنطق، لا أتأوه، أتنفس فقط بصوت عال، أنفاسي تتلاحق، وهو أيضًا، أبدأ في الاستمتاع بالأمر، فأركز معه قليلاً، دقائق تمر، دقائق أوقف فيها بعض أفكاري، يقبلني من جديد، فأفتح عيني وأنظر له، لماذا تبتسم؟

ـ لا أعرف، أنا سعيد.

ـ لم؟

ـ ما هذا السؤال السخيف؟

يرقد قليلاً إلى جواري على جانبه، ينظر إليّ، وأنا ملقاة على ظهري، الشراشف البيضاء تحيط بساقي وخصري، فأرفعها لأحيط بها جسمي كله، أنهض من جديد متجهة إلى الحمام.

ـ ابق إلى جواري.

ـ لا.

أشعر بالذنب، أسفل المياه المتدفقة، لماذا أشعر بالذنب؟ أحاول البحث عن سبب فلا أجد، ساقاي تهتزان بقوة، الدوار يلف رأسي، أستعيد بعض اللحظات التي حدثت بيننا منذ قليل فأرتعش، أسند جبهتي إلى الجدار البارد، أحاول استجماع أنفاسي.

كانت مشاعري مختلطة بين الذنب، التوتر، والإحساس بالخيانة، كيف أمارس الحب مع تيو، وأنا أحب آخر، والأدهى، لماذا لا أزال أحب هذا «الآخر»؟

كان اهتزازي يفضح ضعفي، وكذب لا مبالاتي، لم أكن «كافرة» حقيقية كما لم أكن.

قرري حياة، قرري ما الذي تريدينه بالفعل.

أؤمن بالروح فقط، الروح السارية بين الأشخاص، عبر العوالم المتتالية، الروح هي دليلي على وجود الرب، والروح هي السبب في الانجذاب بين شخصين، إهدار الروح هو أكثر ما يؤلمني، أؤمن أيضا بالحياة الأخرى

بعد الموت، لا أعرف في أي مكان، جنة، نار، عالم آخر جديد مثالي يُكافأ فيه أصحاب الأرواح الطيبة، بكل ما حرموا منه في حيواتهم السابقة، بينما يعاقب الأشرار بحياة بائسة، حياة تشبه حياتي، هل كنت شريرة إذن في حياتي السابقة، من كنت يا ترى؟ ماري الدموية؟ سالومي؟ ريا أم سكينة؟

أنهي الحمام، وأحاول إنهاء أفكاري المختلطة المبعثرة، أبحث عن أي شيء أستر به جسمي فلا أجد، أفتح الباب نصف فتحة.

ـ تيو.

من دون كلمة ينتظرني على الباب، وهو يمد يده بملابسي، أرتديها بسرعة، وأخرج له.

كان جالسًا بشورت قصير على الأريكة، يشعل سيجارة.

ـ لم أرك تدخن من قبل.

ـ لا أدخن في العمل.

أجلس بجواره، وأحاول أن أبتسم، أحاول ألا أبدو باردة، إلى جانب الرجل الذي شاركته الفراش منذ لحظات.

ـ حياة، أعرف أن العربيات لا يمارسن الجنس من دون زواج.

ـ هذه ليست مرتي الأولى.

ـ لا أهتم

ـ أنا أخبرك فقط.

ـ هل أنت نادمة؟

ـ لا.

أسحب سيجارة من علبته، وأشعلها.

ـ لم أعرف أنك تدخنين.

ـ لا أدخن فعلاً.

يضحك، ينظر إليّ بطريقة مريبة، أرجو ألا يقع في غرامي الآن.

ـ هل تحبين العمل في الوكالة؟

ـ نعم أفضل من عملي السابق.

ـ كان صعبا؟

ـ كان مملا.

٤ شهور، على بداية عملي معه في هذه الوكالة الإخبارية، قبلها بقيت عامًا كاملاً في كوريا أدرس اللغة، وأعمل في شركة كبرى للسيارات.

أبي هو من عثر لي على هذه الوظيفة، أولا في فرع الشركة في دبي، بعدها، عرضوا علي الانتقال بعد عام كامل قضيته هناك، وافقت فورًا، رغم معارضة والدي على السفر، لأبعد نقطة على الكوكب، كما يقول.

كنت أرغب في اكتشاف بلد جديد بعيد، والأهم كنت أرغب في الهرب إلى مكان، لا أعرف فيه أي شخص، لا ألتزم بشيء، يمكنني أن أفعل ما أشاء، أدخن مثلاً مثلما أفعل الآن، رغم أني لم أفعلها طيلة عام كامل، أسهر، أجلس وحدي صامتة، من دون أن يجبرني أحدهم على الحديث، أحدهم مثل أبي، أو زوجته، التي لا تفعل شيئًا سوى محاولة إرضائي.

كنت أجلس على مكتب واسع في الشركة الضخمة، بلا عمل حقيقي أمارسه، كان أمامي متسع من الوقت لأدرس اللغة أكثر، طيلة عامي الأول هنا، ملل، ملل، ملل، لا أصدقاء سوى صاحبة مقهى صغير أمام بيتي، لا تتحدث الكثير من الإنجليزية، حتى اسمها لا أستطيع نطقه بطريقة سليمة، يانج شيء ما، ملل، ملل.

ـ كيف وجدت العمل إذن؟

ـ قرأت الإعلان على الموقع الإلكتروني، وتقدمت، أنا أتقن الثلاث لغات، كنت صيدًا ثمينًا، تحتاجون إلى العربية اليوم.

ـ هذا صحيح.

٢٠١٤، عام ازدهار داعش، سيطرتها على الساحة، تصيب الجميع بالرعب، توجه الأنظار أكثر إلى المنطقة العربية المشتعلة، ربيع عربي، حروب أهلية، مظاهرات، رؤساء متتالون، كوارث.

ـ هل شاركت في المظاهرات المصرية ٢٠١١؟

تلسعني السيجارة فأنتفض، ينزعها هو من يدي، يلاحظ ارتجاف فمي، فلا يعيد السؤال، لكني أجيب.

ـ لا، لم أغادر المنزل.

ـ ربما كان هذا أفضل.

ـ نعم، كان أفضل جدًا.

أصمت للحظات، أشعر بالثقل، لا أعرف حتى ما الذي يجب على أن أفعله الآن، أريد الاختلاء بنفسي، استرجاع ما حدث وما سيحدث، لا ينقصني المزيد من التعقيد في حياتي، أشعر أكثر بالتوتر، يخرج صوتي من دون أن أشعر.

ـ أنا مضطرة للذهاب الآن.

ـ لِمَ، ظَلّي، ربما نذهب لنتناول إفطارًا متأخرًا.

ـ لا، سأتناول الإفطار مع يانج شين، أتحدث معها بالكورية الآن، هي صديقتي الوحيدة.

يودعني على الباب، لا أعرف كيف أودعه الآن، بقبلة رومانسية؟ أم أكتفي بمصافحة؟ أتردد قليلاً فيميل برأسه على وجنتي في قبلة لطيفة كالأصدقاء.

أغادر بسرعة، الطقس الحار، والضباب ينذر بسقوط الأمطار الغزيرة، كعادة كوريا في الصيف.

أشير لسيارة أجرة، أدلف إلى الأريكة الخلفية، وأغلق الباب، تمطر السماء، وكأنها تنتظر إشارتي.

أهمس، ما الذي حدث بالضبط؟

القاهرة ٢٠١٠

أرسل لخالد رسالة على فيسبوك الذي حذفني منه، أسأله باختصار، ما رأيك في الـBonus Date؟

انتظر دقيقتين قبل أن يرد، الـBonus ماذا؟

ـ البونس ديت، ألا تعرف أن لكل ثنائي افترقا، الحق في اللقاء مرة أخيرة، إضافية، بعد تركهما لبعضهما البعض؟

ـ من قال ذلك؟

ـ هذه هي القاعدة.

ـ أعتقد أنك أنت من وضع هذه القاعدة التخيلية.

كنت سأكتب لا، وإنما رأيتها في مسلسل تلفزيوني شهير، لكني لم أجرؤ على كتابة ذلك، اكتفيت بتأكيد أن هذه قاعدة معروفة، ومعمول بها في العالم.

صمت للحظات، بعدها أرسل لي كلمة واحدة، موافق.

كنت أفتقده للغاية، لم أحدثه منذ أن طلب مني التوقف عن ذلك، لكنه كان يحتل تفكيري كله، أشعر بالاحتراق في حدقتي عيني، وكأنهما متلهفتان لرؤيته، عظامي تؤلمني، قلبي يؤلمني، أصابع يدي تؤلمني.

أخبرني أنه سيمر عليّ كالعادة اليوم في السابعة، نهضت لأرتدي ملابسي، لأضع عطري الذي يحبه، كنت أحاول نسيان حقيقة أن زفافه لم يتبق عليه سوى شهور، مع بداية العام المقبل، قررت نسيان كل شيء، نسيان معاملته الجافة، نسيان محوه لي من على فيسبوك، نسيان توقفه عن الكلام، اختفائه التام، رفضه حتى لقاء أحمد، حتى لا يجدني مع ريم، كما كنت أفعل أحيانا.

أقفز على درجات السلالم لأنتظره في المدخل، أسترجع رسائل أمي، التي لم أتوقف عن قراءتها، ولم تتوقف هي عن تحديثها المستمر، لا تزال تكتب إليه، وكأنه على قيد الحياة، الحقيقة أن لا شيء اختلف، سواء كان حيًا أم ميتًا، أمي تكتب هذه الرسائل لنفسها، وأنا أفهمها تمامًا، كانت تزداد نحولاً وذبولاً، تزداد تعلقًا ببرامج الواقع السخيفة، تزداد صمتًا وجلوسًا في الفراش وحدها في الظلام.

كانت تحكي لحسن عن أمنياتها برؤيته، ولو لمرة واحدة قبل أن تموت، لكنها لم تفعل سوى رؤية عزائه، سوى مصافحتها لزوجته وشقيقته، لم تحظ أمي من حسن، بعد كل هذه الأعوام، سوى بدخول بيته للمرة الأولى، برؤية مقعده المفضل، صوره على الحائط، ملامحه في وجوه أولاده، الذين يماثلونني في العمر أو أصغر.

كنت قد فهمت وقتها، أنني سأصبح صورة من أمي، سأتزوج رجلاً لا أحبه، لأتطلق بعد عامين أو ثلاثة، وسينجب خالد أطفالا كثيرين من زوجته، ولن نرى بعضنا البعض ثانية حتى الموت.

يقف بسيارته أمامي، فأقفز فيها بسرعة، من دون تفكير، أنحني على وجهه لأقبل وجنته، ينظر إليّ بدهشة، قائلاً: ماذا تفعلين؟

ـ أقبلك.

ـ هل هذا من شروط «البونس ديت» أيضًا؟

ـ نعم، قررت الاستمتاع باليوم من دون أي تحسبات، قررت أن أعلن عن حبي لك على الملأ، اليوم فقط ستنسى كل شيء، وأنسى كل شيء، ونظل معًا، وكأننا سنظل معًا إلى الأبد.

ابتسم لي أخيرا، كانت ابتسامته هذه المرة ابتسامة اشتياق، مد يده ليحتضن يدي طيلة الطريق، كان يحرك ذراع السيارة، وهو يمسكها، يسحبها معه نحو المقود، يضغط بها على البوق، يضعها على ساقه، يمرر أصابعه فوقها، في باطنها، يداعب كف يدي، وكأنه يداعب جسمي كله، كنت أشعر أنني اليوم قد أتركه يفعل ما يشاء، قررت أنني سأسير الطريق لآخره، سأستمتع بحبه في الفترة الصغيرة، التي سمح لي بها، ربما أشفى منه بعدها، ربما لا يبقى طيفه يؤرقني كما حدث لأمي، ربما سأشعر بالامتلاء منه، ربما سأملّ، ربما سأستسلم، ربما أنساه.

كنت حمقاء تمامًا يا آدم، كنت أسير نحو نفس الطريق، الذي ينتظرني منذ البداية، بثقة مراهقة غبية صغيرة، هو أيضا لم يكن يشعر بشيء، كان قد قرر للمرة الأولى، أن يتخلص من عبء التفكير، العرض المغري ليوم إضافي بلا مشكلات، بلا مسؤوليات، بلا جدال، بلا قلق، قد منحه الفرصة لإطلاق مشاعره الحبيسة، للتعبير عن عشقه الذي يظهر فقط في عينيه، لصب كلمات الغزل على أذني، للجلوس بجواري في المقهى، وضمي إليه بذراعه من دون خجل، لإمساك يدي في الشارع، ونحن نعبر الطريق، في القول للمرة الأولى والأخيرة: أحبك.

كان الوقت بات متأخرًا، الساعة اقتربت من الثانية عشر، كان مصرًا

على تركي في منتصف الليل تمامًا، حتى لا يخرق قاعدة البونس ديت التخيلية التي وضعتها أنا.

يقف بالسيارة أمام مدخل بيتي، الشارع المظلم تمامًا سمح له بالاقتراب، من جذبي إليه وتقبيلي، قبلتنا الأولى، أذكرها تمامًا، سريعة، خجلة، قلقة، شعرت بالكهرباء، تسير من شفتي إلى أصابع قدميّ، ابتعدت بوجهي عنه فنظر إليّ بتساؤل، قلت: لا أستطيع، فأومأ برأسه بهدوء، ضغط على كف يدي، وقال: أحبك يا حياة، أنت تعلمين ذلك.

ـ لكنها مختلفة تمامًا عندما تقولها.

ـ هل شككت لحظة؟

ـ لا، لكني كنت أتمنى سماعك، قلها مرة أخرى، قلها مرتين، قلها ثلاث، قلها عشرات المرات حتى أكتفي، ولن أفعل.

نظر إلى ساعة يده لحظة ثم قال: لا أستطيع، الساعة الآن الثانية عشر.

نظرت له بعدم تصديق، انفرجت شفتاي، بحثا عن كلمة مناسبة ولم أجد، شعرت بالدوار، ثم قررت أن أصمت تمامًا.

ـ أليست هذه قواعد اليوم؟

ـ نعم طبعًا، وأنت تلتزم جيدًا بالقواعد.

ـ حياة.

ـ لا داعي لقول أي شيء، سأغادر السيارة الآن.

أغلق الباب خلفي وأنظر له من النافذة.

ـ لكني لن أعود يا خالد، سأسافر.

استدرت لأصعد الدرج بسرعة، كنت أبكي، لأول مرة في قصتنا كلها أبكي، أنهنه، أفتح الباب وأهرع إلى أمي الجالسة أمام برنامجها الواقعي السخيف، أريد أن ألقي نفسي في أحضانها، لكنني لا أجرؤ، أجلس بجوارها، أنظر إليها، وتنظر إليّ بتعجب.

ـ لماذا تبكين؟

ـ خالد، تركني.

تهز رأسها بأسًى، لا تعلق، تربت على كتفي، وتمسح على شعري، في النهاية تقول:

ـ لا تبكي، أرجوكِ.

لا أعرف ماذا أقول، لم أشاركها مشاعري من قبل، كنت أعتقد أنها ستفهمني الآن، بعدما عرفت قصتها التي لم تخبرني بها قط، لكنها نهضت متجهة إلى المطبخ..

ـ سأعد لك العشاء والنسكافيه.

تتوقف فجأة، ثم تقول من دون أن تنظر إليّ:

ـ أعدك ستكونين بخير.

كيف تقول أمي ذلك، وهي التي لم تصبح أبدًا بخير؟ هل تشكك أمي في صدق عاطفتي نحوه، ربما لم تشعر أنه حب عمري، مثلما تصف هي حسن في خطاباتها الكثيرة، ربما لا تدرك أنني أعيد قصتها من جديد، وأنني حتمًا سأتزوج رجلاً لا أحبه، لأنفصل بعد أعوام حاملة طفلتي على كتفي، وأعود لأجلس بجوارها نشاهد برامج الواقع، ونعقد صداقات وهمية مع المشتركين.

نهضت ببطء، اتجهت إلى المطبخ، ووقفت على بابه.

ـ ماما، سأسافر دبي الأسبوع القادم، اتفقت مع بابا على قضاء شهر ديسمبر هناك، الطقس الآن جيد، وسيتيح لي فرصة التعرف على البلد، لم أفعل أبدًا في الصيف، لم أجرؤ حتى على الخروج من المنزل.

نظرت لي أمي طويلاً، انفرجت شفتاها، حتى ظننت أنها ستقول لا ابقِ معي، كنت أنتظر أن تقولها لأوافق فورًا، كنت أشعر أنني أتخلى عنها الآن، وهي في حالة سيئة، ربما أسوأ مني.

ـ على راحتك، اذهبي واستمتعي بوقتك، ربما يكون هذا في صالحك.

لم تقل أمي شيئًا، لم تحاول حتى أن تدعوني للبقاء.

لم أفهمها أبدًا، طيلة عمري وأنا أعتقد أنها المذنبة في الانفصال، كنت أسألها فتقول: نصيب، كنت أسأل والدي، فيتهمها بالرعونة وعدم المسؤولية.

لم تتحمل مسؤولية الزواج، طلبت الانفصال بعد أعوام، ماذا كان في يدي لأفعله؟ أجبرها على البقاء معي؟

الآن، أنظر لها بنظرة أخرى، مسكينة، منكسرة، خذلتها الحياة، وخذلها الحب، كنت أقرأ المزيد من رسائلها كل يوم، أحبته عشر سنوات، وأحبها عشرًا، ثم وقف صامتًا يراقبها، وهي تتزوج شخصًا آخر لا تعرفه، هكذا بكل بساطة، ينتهي كل شيء، بقرار أشخاص ليس لديهم الحق، في تحديد حياة أشخاص آخرين.

ينفث آدم دخان سيجارته، ويسأل.

ـ لماذا برأيك لم ترسل والدتك الرسائل إلى حسن؟

ـ لا أعرف، ربما لم تستطع ذلك، الرجل متزوج ولديه أبناء، هل تعلم،

أحيانا أشعر أنه نسيها تمامًا، ظلت هي مسجونة في حبه، أما هو فاستمر في حياته غير عابئ، لم يحاول حتى معرفة مكانها، أو التواصل معها.

ـ من أخبرك بذلك؟ ربما كان يفعل من دون أن يشعر به أحد.

ـ ربما.

ـ ما رأيك لو تكتبين إلى خالد رسائل لا تُرسل أبدًا، كما كانت تفعل والدتك.

ـ لم؟ لم أفعل ذلك؟ هذا هو الشيء الأكثر إثارة للشفقة في العالم، لا أزال أشعر بالحزن على أمي ـ رحمها الله ـ كلما نظرت إلى هذه الرسائل، أو إلى صورتهما معًا، ينظر إليها بحزن، وتنظر هي إلى العدسة بقلة حيلة.

ـ هل أخذت رسائل والدتك معك إلى هنا؟

ـ نعم.

ـ لماذا؟ ما الذي دفعك لأن تحمليها معك؟

ـ لا أعرف، رفضت تركها، في الواقع هذه الرسائل هي أمي، هي كل ما تمثله أمي، أمي التي ماتت، من دون أن أعرفها جيدًا.

ـ أنا أعتقد أنها إشارة، علامة، هل تؤمنين بالعلامات؟

ـ لا.

ـ حسنًا، أنا أفعل، وأنت وعدتيني أن تستمعي إليّ.

كان آدم مصرًا على بدء كتابتي للخطابات اللعينة، المشكلة أنني أملك بالفعل رسالة واحدة، أحفظها دومًا في الـdrafts على بريدي الإلكتروني، رسالة عمرها الآن عامان، لم أرسلها له قط، رسالة كلما قرأتها، تزداد مرارة الغصة الدائمة في حلقي، لماذا يجب أن أكرر ذلك؟

ـ آدم، وماذا لو أرسلتها إليه؟

ـ لا أعتقد أن هذا هو الوقت المناسب، هذه الرسائل من أجلك، من أجل أن تقصي على نفسك أولا كل ما حدث، اكتبي كل ما تريدين قوله، وبعد الانتهاء، بعد أن تفرغي روحك كاملةً، إن شئت فأرسليها له، ستكتشفين وقتها ما الذي ترغبين حقًا في فعله.

وعدته أنني سأفكر في الأمر، لكني لست مضطرة لقراءتها له.

ـ كما تشائين، في الواقع أنا لا أريد قراءتها، أريدك أن تحكي لنفسك، تخبريها كل شيء، كل ما تعجزين عن فهمه، عن التخلص منه، اكتبيه، ربما استطعت أخيرا التخفيف من هذا العبء الذي لا تشاركينه مع أحد.

سيول ٢٠١٥

أرقد أمام الجدار بعدما تركت تيو، ومشكلاته، وورومانسيته، أسفل البناية، وذهبت، كيف يفكر هذا الرجل في الزواج، والاستمرار في حياة معقدة سيئة؟ ولماذا يجب عليّ أن أطاوعه؟

أنا ذاهبة إن عاجلاً أو آجلاً، سأظل أنتقل من بلد لآخر، ومن حياة لأخرى كما قررت، حتى أنتهي تمامًا، وهو أمر أشتاقه، وأوده أن يحدث سريعًا.

سريعًا تختفي حياة من الوجود، وتذهب لعالم آخر لا يعرفه أحد.

أسلط الكشاف على الجدار أمامي، أشعله وأطفئه، مرات عديدة، أنتظر لأرى من سيخرج لي هذه المرة، أشعر بالندم، لأنني لم أجلب صورة أم ألان وأخيه بعد، غدًا أجلبهما، غدًا.

هذه المرة أغرق في النوم بسرعة، أحلم بالأبيض والأسود وكأنني أتابع الموقف من كاميرا مراقبة منزلية، أراني طفلة صغيرة شقراء، تسير في ردهة المنزل الصامت، تسير إلى زاوية الكاميرا فلا أراها، لكني أشعر بها وكأنني فيها، أنا هي وأراقبها في ذات الوقت.

أمد يدي لأفتح باب غرفة الخادمة، تنهرني بقسوة فأجري بعيدًا، لم أفهم ما رأيته لكنني خائفة جدًا، «بيزويو» اليوم مخيفة، أنا خائفة وأريد أمي وأبي، أغطي وجهي بالغطاء، أنا أرتعش.

أشعر ببيزويو إلى جواري، أرفع الغطاء، تنظر إليّ بطريقة غريبة، أرتعش ثانية، تغطي وجهي بالوسادة، لا أريد، تكتم أنفاسي بيديها، لا أستطيع التنفس، عيناي تنغلقان، أريد أمي، أين أنت؟

أشعر بالاختناق، أجاهد من أجل بعض الأكسجين، أنا أحلم، أحلم، يجب أن أستيقظ الآن من الحلم، أفتح عيني، لأرى وجه المربية السمراء أمامي مباشرةً، تقول: نامي سيلين، نامي، تكتم وجهي بالوسادة، تكتمه، أقاوم أحاول الصراخ، لست سيلين، ولا أستطيع إنقاذها، اتركيني عليك اللعنة، اتركيني.

أحاول دفعها، أدفعها فعلاً بقوة فتعود إلى الجدار كالقذيفة، صورتها المبتسمة، وهي تحضن الطفلة الميتة، الآن تشعرني بالقشعريرة، أرتعش، أرتعش كثيرًا، أنهض بأقدام متعثرة، أحاول نزع الصورة من على الجدار، فلا أستطيع، أخدشها بأظافري أخدشها كثيرًا، وجهها يبدو الآن مشوهًا وقبيحًا، أخاف أكثر.

أعود إلى السرير، وأسناني تصطك، أفكر في محادثة تيو، ثم أنفض عن ذهني الفكرة، الأحمق يريد أن يتزوج، ويكوّن عائلة في هذا العالم، حيث لا أمان حتى في منزلك نفسه، لا أمان لطفلك مع أي شخص حتى الأقارب، أنت أحمق يا تيو، أردد وأنا أرتعش، أحمق.

أظل أردد الجملة، حتى أغرق في النوم، مثل كل ليلة، سأنام بلا أفكار، بلا أحلام، بلا تقلب، كالجثة أنام ساعتين، قبل أن ينشق الصباح، لأندفع من جديد نحو الطريق الضبابي المقبض إلى العمل.

القسم الثاني

يسألني آدم.

ـ لماذا تذكرت قصة هذه الطفلة بالذات، بعد طلب تيو الزواج منك؟ هناك الآلاف من القصص المحزنة الأخرى، التي تحتفظين بها على جدارك.

ـ لا أعرف، لا أتحكم في الأمر، هم فقط يأتون إليّ، كما يشاءون.

ـ بل تعرفين جيدًا.

حياة، هل تشعرين أن تورطك في الحب، يؤذي أشخاصا آخرين؟

ـ أي أشخاص؟

ـ لا أعرف، أطفالك القادمون مثلاً؟

ـ لا أفكر في الإنجاب.

ـ بالتأكيد تفعلين، حياة، جدارك يمتلئ بصور الأطفال الميتين، في الحروب، بالعنف الأسري، في الحوادث، أنت مهووسة بفكرة إيذاء أطفالك المستقبليين..

ـ لا أعرف عما تتحدث.

يتنهد آدم في صبر، يقترب مني، وهو يبتسم ابتسامة لطيفة مصطنعة، يجلس جواري للحظات صامتًا تمامًا، يترك لي مساحة للراحة والتفكير، ثم يعود مرة أخرى للهجوم.

ـ ما رأيك أن تكملي لي إذن، ما حدث مع خالد في القاهرة.

أخبرتك في المرة الأخيرة، أنني سافرت إلى الإمارات لأزور والدي، قضيت ديسمبر بأكمله هناك، وعندما عدت، كانت القاهرة تغلي، شهر يناير كان ملتهبًا في الشتاء، لم أرَ خالد، ولم أعرف عنه شيئًا حتى انتهاء الثورة.

ـ هل حدث شيء مهم في الإمارات إذن؟

كنت أحاول التذكر، ربما لم يكن شيئًا هامًا، سوى تعمق علاقتي بسعود، لا أذكر سوى نزهاتنا معًا، تسكعنا في المولات، ذهابي معه إلى عمله في الجريدة.

ـ هل تربطكما علاقة صداقة طويلة؟

ـ لا، لكني أعرفه طيلة عمري، جاري هناك، والده صديق لوالدي، كنا نتقابل في كل مرة أقضي فيها بعض الوقت مع أبي في دبي، لكن هذه المرة زادت علاقتنا قوة.

ـ لماذا؟ بسبب خالد؟ هل كان طريقتك لتجاوزه؟

ـ لا أعتقد، ربما بسبب اكتشافي، أننا قريبين في التفكير من بعضنا البعض.

ـ كيف حدث ذلك؟ هل تودين أن تحكي لي؟

ـ لا سأقرأ لك، بالأمس سمعت نصيحتك، كتبت أولى رسائلي، التي لن أرسلها إلى خالد، قصصت له ما حدث منذ أن تركني وذهب، هذه الأمور التي لم يعرفها أبدًا، ولن يفعل على كل الأحوال، لكنك كنت على حق، شعرت ببعض الراحة عند الانتهاء، وكأنني قصصت عليه فعلاً ما حدث.

ـ هل ترغبين فعلاً في قراءتها لي؟

ـ نعم.

يريح ظهره على الأريكة، يغلق عينيه، لكني أعرف أنه يسمعني جيدًا، أبدأ أنا من جديد في الحكي.

دبي ٢٠١٠

عزيزي خالد.

أكتب لك هذه الرسالة، لأقص عليك كل ما حدث لي، منذ تركتني على مدخل بيتي تلك الليلة المظلمة، في أواخر عام ٢٠١٠، هل تذكرها يا خالد؟ كنت أعتقد أنني إن دفعتك لتذُوق بعضا من مشاعرنا مرة أخرى جديدة، لن تستطيع التخلي عني هكذا من جديد، لكنك وكالعادة، دمرت لي كل مخططاتي، كل أحلامي، بكلماتك القاسية التي لا أعرف كيف ينطق بها لسانك، وعيناك لا تزالان تحملان كل هذا الحب ناحيتي.

لا أكذب على نفسي، ولا أهوّن من خسارتي، ولا أريد أن أواسي نفسي بكلمات ترددها البنات على بعضهن البعض، حتى لا يصبن بالجنون من فرط الألم، لكنني أعرف نظراتك جيدًا، أحفظها، أشعر بها، نظرة عينيك المفعمة بالحب، لا يمكن أن لا تكون حقيقية، لكن الشيء غير المعقول، هو طريقتك في ربطها بكل هذه القسوة، كيف تفعل ذلك؟ كيف تستطيع فعلاً أن تفعل ذلك؟ كيف لا ترتعش شفتاك، وأنت تكذب، كيف تُبقي على برودة روحك، وأنت تتخلى هكذا بكل بساطة عن من تحب؟

لم أستطع أبدًا أن أفهم هذه النقطة فيك، أنا التي أفهمك من دون حكي، أنا التي أستطيع قراءة أفكارك، وكأنها داخل عقلي، لم أستطع أبدًا فهم قسوتك المبالغ فيها، وعلى الرغم من ثقتي الكاملة في حبك لي، فإنني

أفكر أحيانا أنني بالتأكيد مخطئة، لا أحد يستطيع العيش والاستمرار، هكذا وحده من دون من يحب، لا أحد يستطيع الاستمرار، في حبٍّ بعيد من دون أي أمل في الوصل، أفكر، هو بالتأكيد تجاوزني، بالتأكيد نساني، ربما عليّ أنا أيضا أن أنساه.

كان سفري إلى دبي، هو الحل الوحيد المتاح لي في ذلك الوقت، سافرت وأنت تملؤني، تسيطر على أفكاري، هل تعرف؟ في السفر، يحتاج المرء لونيس، يحتاج لرفيق، لكني كنت وحيدة تمامًا، أسير إلى المطار وحدي، بعد أن ودعت أمي في المنزل، كانت حزينة، لكنها تركتني أفعل ما يحلو لي، ربما اعتقدت المسكينة أن السفر كافٍ لنسيانك، كنت دائمًا أفشل في النسيان، أفشل في التأقلم على ابتعادك، أحاول إقناعك بأنني قد فعلت، بينما أفكر في طريقة تجعلك تعود لي من جديد، فعلت ذلك، وأنا أقنعك بإمكانية بقائنا صديقين، فعلت ذلك عندما سألتك يومًا إضافيا لحبنا، قاربت على فعل ذلك هذه المرة أيضا، رغم قسوتك الشديدة، لكن السفر منحني وسيلة، للهروب من سجن أفكارك، رغم بقائك جاثمًا على قلبي ومشاعري.

محادثات طويلة تدور في عقلي وأنا أسير، وأنا أقف في صف الجوازات، وأنا أنتظر حافلة المطار، التي ستأخذني إلى الطائرة، وأنا أصعد درجها الطويل، وأنا أجلس ساهمة على مقعدي بجوار الممر، أتأمل وجوه الراكبين معي، العاملين في الخليج، أعرفهم وأحفظ عطرهم وكلامهم وملابسهم، أعرفهم فوالدي واحدًا منهم، أحفظهم وأمقتهم وأحبهم وأعطف عليهم، كل من على هذه الطائرة، قرر الهرب لظروف مختلفة، ربما يكون هروبهم نبيلاً من أجل لقمة العيش، أما أنا فأهرب من حبك، كأي فتاة حمقاء، تخجل من جريمتها الكبرى، تخجل من هزيمتها الكبرى،

لا أستطيع حتى أن أكرهك، أن أتهمك بتدمير حياتي، أو بخذلاني.

ساعتان ونصف من التوهان داخل أفكاري، من تخيلك بجواري الآن، هل كانت الطائرة ستبدو أجمل؟ هل كنا سنشعر أن الرحلة أقصر كما كنا نفعل، عندما نقرر فجأة السفر بالقطار إلى الإسكندرية، والعودة في نفس اليوم، هل كنت ستسمح لي بالنوم على كتفك، بمشاهدة فيلم ما سخيف على الشاشة الصغيرة المثبتة أمامنا، هل كنت ستشرب معي قهوة الطائرة التي لا طعم لها، هل كنت ستفرغ لي علبة اللبن الصغيرة، وكيسي السكر، كما كنت تفعل دائمًا، هل كنت ستطلق النكات على الركاب، كعادتك في السخرية من الآخرين، وأطلب أنا منك التوقف، لأني أمقت ذلك، وأتعاطف مع الجميع حتى إن عيني تدمعان، تتهمني بالسذاجة وأتهمك بالقسوة، كنت بالفعل ساذجة يا خالد، وكنت أنت دائم القسوة.

أسير كالروبوت، أمشي مع الماشين، لا أحتاج لفعل أي شيء، لأن والدي قام بإضافة خدمة «مرحبًا» على تذكرة الرحلة، تصحبني مضيفة حسناء إلى غرفة وثيرة أجلس فيها حتى تنتهي هي من إنهاء إجراءات الدخول، تطلب مني الآن أن أتوجه معها للخارج، هناك ينتظرني أبي بسعادة، أرتمي في أحضانه فلا أستطيع إلا البكاء، يسألني لماذا تبكين يا حبيبتي؟ فأخبره بأنني أفتقده كثيرًا هذه المرة، لا يصدق نفسه من السعادة، أكتشف قدر قسوتي الشخصية عليه، مثلما أفعل دائمًا مع أمي، وأعتزم أن أغير من طريقتي الباردة اللا مبالية الدائمة، وأن أخبره فعلاً كم أحبه، بالفعل لا القول.

كنت مثلك تمامًا يا خالد، من دون أن أدري، قاسية مع من أحبهم، قاسية مع أمي المسكينة، مع أبي البعيد، مع زوجته التي لا تفعل شيئًا،

سوى محاولات التقرب لي، مع نفسي حتى، مع الجميع سواك، كان الجميع يرغب في التقرب مني، وكنت أنت دائم الابتعاد، كنت أنا أبتعد عن الجميع، ولا أرغب في شخص سواك.

أسير بجوار أبي، وأنا لا أزال أتخيلك معي، تدفع أنت العربة، التي وضعت فوقها حقيبتي الصغيرة بدلاً من أبي، الذي يقرر فجأة تركها، وحمل الحقيبة فقط إلى سيارته، أسير بجواره وعلى ظهري حقيبة «الباك باك»، التي أضع فيها حاسوبي المحمول وبعض الكتب، حقيبة يدي لا تحوي سوى أوراقي وحافظتي، هاتفي وزهرتك الوردية المطاطية، التي تفوح برائحتك طيلة الوقت.

يحدثني أبي طيلة الطريق عن عمله، عن زوجته المسكينة التي تتطلع لرؤيتي، لم ينجبا، لكنه لم يحزن لذلك، كان يخبرني أنه سعيد لأنه لا يملك طفلا سواي، يحبني أنا فقط ولا يريد أن يقسم حبه على اثنين، أنظر له وأبتسم، أشكره وأداعبه بأنه لا يزال يملك وقتًا للإنجاب، فيضحك حتى يسعل.

لم يكن والدي متقدمًا في السن، لكنه كمثل كل العاملين في الخليج، يبدو أكبر عمرًا دائمًا، لا أعلم هل تضيف الغربة بضع سنوات إلى أعمارهم، أم هو الإرهاق والعمل المستمر والتفكير الدائم في المستقبل؟ حتى أنا أبدو أكبر خارج مصر، أبدو أكثر إرهاقًا واصفرارًا وكآبة، تضحك؟ تسخر من حماقتي ورومانسيتي العجيبة، كما كنت تفعل دومًا؟ تخبرني أنني سعيدة الحظ، لأنني أستطيع تركها في أي وقت، وحتى اختيار عدم العودة مطلقًا؟ أنت مسكين لا تعلم شيئًا، مشكلتك كمشكلة جميع الحالمين، تعتقدون دومًا أن هناك مكانًا مثاليًا بعيدًا أفضل في كل شيء، لا تعلم أن كل الأماكن سواء، ما دام ينقصها اكتمال الشخص برفيق روحه،

مصر لا تبدو الآن كما كانت في عيني، لا هي ولا الإمارات ولا حتى القمر، طالما اخترت أنت الابتعاد، وتركي هكذا وحيدة، كنخلة حزينة في الصحراء.

تستقبلني زوجة أبي بالقبلات والأحضان، تبدو متحمسة أكثر من أبي نفسه، امرأة طيبة جدًا، مغربية تتحدث المصرية بطلاقة، مهتمة بنفسها لأقصى درجة، تبدو نقيض أمي في كل شيء، مثل كل عام تستقبلني بحفاوة، تدللني، تصحبني لصالونات التجميل ومحلات الملابس، تبتاع لي الهدايا كرشوة حتى أرضى عنها، فيرضى عنها أبي، أنا في الواقع لا أكرهها ولا أحبها، مشاعري نحوها محايدة جدًا، أكتفي برد مجاملاتها بالابتسام، أحاول أنا أيضا إرضاء أبي في صورة سعيدة خيالية لأسرته الصغيرة.

أتمكن أخيرا من الهرب إلى غرفتي، أخرج حاسوبي وأفتحه بسرعة لتصفح فيسبوك، أنظر إلى صفحتك المغلقة في وجهي، أكاد أضغط على زر الإضافة من جديد لكني أتراجع، تصلني رسالة من ريم، تسألني عن وصولي، فأخبرها أنني بخير، أطلب منها أن ترسل لي صورة «سكرين شوت» من صفحتك، فلا أجد أي تحديث عما كانت عليه منذ الأمس، أنهض من مكاني، وأرتمي على السرير بملابسي، أهمس، تصبح على خير يا خالد، وأغوص في النوم.

سيول ٢٠١٤

أمر على يانج شين في المقهى المزدحم، لأول مرة منذ أن عرفتها، اليوم كان المارون يحتمون من المطر لديها، يحتسون أكواب القهوة الساخنة، وهم ينتظرون توقف انهماره لإكمال سيرهم، تنظر إليّ بسرعة، وهي في طريقها لإعادة ملء الأكواب على الموائد من إبريق زجاجي كبير.

ـ هل كنت بالخارج طيلة الليل؟

ـ نعم

تبتسم وتغمز بعينيها سعيدة، كانت يانج شين تتمنى، لو وقعت في الحب مثلها، مع حبيبها كيم.

ـ هل هو السيد الوسيم في البناية المقابلة؟

ـ بالطبع لا.

أطلب منها كوبا ورقيا من القهوة الساخنة، وأودعها على وعد بالتفاصيل.

أصعد إلى المنزل مرهقة، يملأ الضوء المكان، وينعكس على الجدار، الذي لم يكن وقتها مكتظًا للغاية بالصور، أقف أمامه قليلاً، وأنا أرشف القهوة، أبدل ملابسي بسرعة، وأنسل تحت الغطاء، أريد أن أنام جدًا جدًا.

دقائق، أو ساعات، لا أعرف، كان الضوء خافتًا الآن، عتامة ضبابية تغلّف الموجودات، أشعر بالإختناق، ولا أستطيع التنفس، أختنق فعلاً، صوت انفجارات بالخارج وكأن العالم يحترق، أصرخ بفزع، أنهض من السرير أحاول التنفس، على البساط أمام سريري، كانت هناك جثث لأطفال ملقون بحفاضاتهم، أجسامهم زرقاء، متيبسة، ماتوا نياما، مثلما سأموت الآن.

أسقط إلى جوارهم، أتأمل وجوهم الصغيرة، أفهم ما يحدث ببطء، اختناق بغاز الأعصاب، الغوطة، صور هؤلاء الأطفال، أنا أعرفهم، أسميتهم بنفسي، معلقين على الجدار أمامي، منذ أغسطس الماضي.

روحي تنسحب مثلهم، ربما أموت الآن أنا الأخرى، أحاول التنفس، أشهق، أبكي، وأشهق، الدم ينزف من بين فخذيَّ، لماذا أنزف الآن؟ يدي ملوثة بالدماء، البساط يتلوث بالدماء، الدماء ترتفع وتبتلعني وتبتلع الصغار الميتين.

أستيقظ فجأة.

الظلام يخيم الآن على المنزل، أتنفس بصعوبة، الهواء ثقيل لزج، والمطر لا يزال منهمرًا بالخارج.

أغادر السرير مترنحة، عيني تؤلمني، وأنفي يحترق، وكأني على وشك البكاء، أتجه للجدار وأستند بيدي عليه، كانت هذه المرة الأولى، التي يزورني فيها أحد من سكانه، نفس اليوم المشئوم، نفس الشهر المشئوم، أبريل ٢٠١٤، ثلاثة أعوام بالضبط على مصيبتي، ٤ شهور على بداية عملي الجديد، ٤ شهور على معرفتي بتيو، أول ليلة لي معه، هل يعاقبني الله الآن؟

عام ونصف على انتقالي إلى كوريا، عام ونصف على مغادرتي دبي، عامين ونصف على مغادرتي القاهرة.

وثمانية أشهر على مذبحة الغوطة.

أذكر هذا اليوم جيدًا، وحيدة أجلس في الظلام كعادتي، أغسطس الحار يجعل العالم الخارجي، أقرب لوعاء من اللزوجة، المطر منهمر منذ الصباح، لم أذهب حتى للعمل، أتصفح فيسبوك، عندما كنت أملك حسابًا عليه، لتظهر لي هذه الصور.

أطفال بحفاضاتهم، أطفال من كل الأعمار، مصفوفون على الأرض، يبدون وكأنهم نائمين، لكنهم زرق البشرة، الأزرق يغطي وجوههم، أجسادهم، شفاههم، ماتوا نياما، ماتوا هم وآباؤهم، وأمهاتهم، وإخوانهم، وأجدادهم، ماتوا هم وألعابهم، وقططهم، وملابسهم الجديدة، ماتوا، واستمر العالم في الحياة بشكل عادي، وكأنهم هباءٌ منثور.

الصور مستمرة، كثيرة، لا ترحم، عيناي المعلقتان بالشاشة، لا تقويان على التحرك بعيدًا، لا أستطيع أن أرمش، لا أملك القدرة على الكلام، لم أفق سوى على صوت تقيؤي على الأرض، كنت مبتلة، وكأنني صعدت لتوي من أعماق المحيط، هناك شعور مدوٍ في أحشائي، وكأنما تم رجي بعنف ووحشية، كانت هذه أيضا هي نهاية علاقتي بفيسبوك بأكمله.

نهضت إلى الحمام، ووضعت رأسي أسفل الماء البارد، عدت، وأنا أحمل المسحة لأصلح الدمار الشامل، الذي سببته على الأرض بجانب المائدة، لا أعرف هل أصابتني الحمى بسبب الجو المتقلب، أم بسبب هذه الصور، لكنني أتذكر هذياني طيلة الليل، أمام الجدار الذي لم يضم سوى ثلاث صور لطفلة أخرى، هند الصغيرة العزيزة، تنظر إليّ مبتسمة

من الجدار، صورتها وهي تنظر لأعلى، صورتها وهي لا تزال رضيعة تضحك، صورتها مغطاة بالشاش الأبيض، من خصرها إلى رأسها.

أضع اللاب توب على المائدة، أمام الجدار ليواجه الفراش، يستعرض الصور على خلفية سوداء، وراء بعضها البعض كما ضبطته، هذه الصور التي وجدت طريقها على الجدار بعد ذلك، مع صور أخرى للأطفال الميتين، للرجال الباكين، للنساء الراكعات، حتى صور القاتلين أنفسهم، وجدت مكانها على جداري.

لم أطبع صور المذبحة، إلا بعد أربعة أشهر كاملين، عندما تسلمت عملي الجديد في الوكالة الإخبارية، لمحت الطابعة الضخمة الكبيرة في الغرفة الجانبية، لتصبح رفيقتي الدائمة بعد ذلك، والوحيدة التي تعرف كل أسراري.

كل يوم أقف في الظلام أنتظر الصور المطبوعة، وهي تخرج بأزيز مخيف، وكل يوم ينظر إليّ تيو ولا يعلق، أجمعهم، أضعهم بعناية في ملف بلاستيكي خاص، وأغادر إلى المنزل.

أجلس على المائدة الصغيرة، أضبط البلاي ليست على أغنية ويتني هيوستن الدائمة I’ve Nothing، أمسك بالمقص، بالموسي، باللاصق، أقص حدود الصور، أضعها فوق بعضها البعض، أتأملها كثيرًا، أختار موضعها بدقة على الجدار، ألصقها بعناية وبطء، أتراجع إلى الخلف لأرى الصورة كاملة، لأرى التكوين كامل، يروقني المشهد، فأجلس على الفراش أمامه، أغلق الأضواء، وأكتفي بنور الحمام الخافت، مع كشافي الصغير الذي أمرره ببطء على كل صورة، أدقق النظر، أحفظ الملامح، أحفظ المشاعر، أتخيل الموقف، الخدر يسري من رأسي إلى قدميّ، ترتجف أصابع يدي، تتصاعد دقات قلبي، رأسي ثقيل، أشعر بالخوف، بالألم،

التبلد، ثم الانتشاء، لا أزال أمسك بالموسي في يدي، وقطرات الدم تنسال على الملاءة، على الأرض، على ملابسي، أبتلع ريقي، تسري البرودة في ذراعيّ، وأنام من دون أن أشعر.

دبي ٢٠١٠

في الصباح التالي، أحادث والدتي لأطمئن عليها، تبدو متلهفة لصوتي لأول مرة، تسألني هل قررت متى سأعود فأجيب بالنفي، تقول: لا تطيلي عليّ يا حياة، فأعدها بالعودة السريعة هذه المرة.

أسمع صوت والدي يناديني فأخرج بسرعة، أجده جالسًا مع سعود، أتجه نحوه وأنا أبتسم، ينهض هو عند رؤيتي، يصافحني بقوة وعينيه في عينيّ.

ـ كيف حالك يا سعود؟

ـ بخير، تغيرت كثيرًا حياة.

ـ وأنت أيضًا، هل ربيت لحيتك؟

يمد يده نحو لحيته محرجًا فأبتسم، أتبسط معه في الحديث، فأنا أعرفه منذ الصغر، لكنه بالفعل يبدو مختلفًا، يعرض عليّ أبي أن أذهب مع سعود إلى دبي مول، حيث يتجه هو الآن، أسأله هل سأعطلك؟ فيؤكد أن لا عطلة.

أنهض لتبديل ملابسي بسرعة، أضع عطري المفضل، وبعض الكحل، وأحمر الشفاه، أخرج إليهما فيخبرني أبي أن سعود ينتظرني في سيارته.

ـ سيارته فورد سوداء، ستجدينه ينتظرك على مدخل البناية، فقط أراد إخراجها من الجراج حتى لا يرهقك.

يتحدث والدي بحماس غريب عن سعود، يبدو أنه يراه عريسًا محتملاً ورائعًا لي، إماراتي وسيم، ذكي ومثقف، بالتأكيد هو عريس رائع من وجهة نظره، خاصة وأن والده لا يجد مشكلة في الزواج من أجانب، سعود نفسه نصفه أردني لأمه.

أحاول تجاهل حماسه الزائد، وابتسامته الكبيرة، أحمل حقيبة يدي وأتجه للباب، فيناديني والدي، ويعطيني بطاقة الفيزا الخاصة به.

ـ يمكنك شراء ما تريدين، كتبت لك الرقم السري هنا.

ـ شكرًا يا بابا.

أقبله، وأغادر بسرعة، أخرج من المدخل، لأجد السيارة الفارهة في انتظاري، يرتدي سعود الجينز والتيشيرت، وليس الجلباب الأبيض مثل معظم المواطنين، الذين لا أراهم على كل حال، المواطنون في الإمارات عملة نادرة لا يظهرون كثيرًا، لديهم أماكنهم الخاصة، تجمعاتهم السكنية الخاصة، محلاتهم ومطاعمهم وفنادقهم الخاصة، يمكن أن نلمحهم سريعًا في دبي مول، أو مول الإمارات، وسط حشود المقيمين المنتشرين في كل مكان، أعتقد أنني لا أعرف مواطنا سوى سعود وعائلته، والذين قرروا السكن في شقة كبيرة من طابقين في نفس العمارة الفاخرة، التي يعيش فيها والدي، لأسباب لا أعرفها.

أركب بجواره فينظر إليّ لحظات.

ـ كبرت حياة.

ـ وأنت أيضًا، تبدو ككهل وغد في الأربعين بهذه اللحية.

ـ ما زلتِ سليطة اللسان وحمقاء، أبدو وسيمًا جدًا باللحية.

ـ من أخبرك بهذا خدعك.

يبتسم ويضغط على مشغل الموسيقى، ينبعث صوت فيروز في السيارة.

جايبلي سلام، عصفور المداين، جايبلي سلام من عند الحبايب.

أشرد في الأغنية، أنظر من النافذة، حتى لا تدمع عيناي، أشعر به يراقبني فألتفت.

ـ ماذا؟ هل ذكرتك الأغنية بشيء؟

ـ شيء مثل ماذا؟

يقول بالإنجليزية التي يصر على إقحامها دومًا في الحديث.

ـ Come on حياة، أراقبك دائمًا على فيسبوك، كل ما تنشرينه يدل على أزمة عاطفية شديدة.

ـ تراقبني على فيسبوك مثل المتلصصين؟ لم تفكر حتى في إرسال رسالة واحدة.

ـ لا أريد أن أتطفل فعلا، أنا خجول جدا.

ـ واضح.

ـ أخبريني كل شيء إذن.

ـ أخبرك ماذا؟ لا يوجد شيء.

ـ حياة.

ـ حسنًا، قصة حب عابرة فاشلة وانتهت، ألا يحق لي أن أحزن؟

ـ لا يبدو لي أنها عابرة.

ـ بل هي كذلك.

ـ ما سبب الفراق؟

ـ لا سبب، حقًا، لا سبب.

ـ هل تحبينه؟

لا أرد، فيصمت قليلاً، يسألني عن الدراسة، والتخرج والعمل، أخبره أنني استلمت تكليفي كصيدلانية، لكني حصلت على عطلة طويلة.

ـ أفكر في التخلي عن هذا العمل، أمقت الصيدلة.

ـ ماذا تريدين أن تعملي؟

ـ لا أعرف، لم أقرر بعد.

ـ ما رأيك في الصحافة؟

ـ مثلك؟ لا شكرًا.

ـ لم؟

ـ لأنها تتطلب الكثير من المؤهلات التي لا أملكها.

ـ يمكنني تدريبك، سأصحبك يومًا إلى الجريدة، ربما أحببتِ الجو العام.

لا أرد، في الحقيقة لم أكن أريد أن أفعل أي شيء في هذه العطلة،

لا أريد الالتزام بأي شيء، أريد فقط أن أرقد على فراشي، وأحدق في السقف، أريد أن أخرج، أن أشتري الكثير من الملابس، العطور، المكياج، الكتب، أن آكل الكثير من الطعام، أن أمارس كل ما يمارسه أي مكتئب يحترم نفسه.

أصارح سعود بأفكاري، فيضحك كثيرًا جدًا، هذه الصورة الأكليشيهية للمكتئبين غير حقيقية.

ـ ماذا تعرف أنت عن الاكتئاب، أنت سعيد طيلة الوقت.

ـ من قال لك هذا؟ حياة، كل شخص يملك متاعبه الخاصة، أنت لا تعرفين شيئًا.

ينطق الجملة الأخيرة بالإنجليزية من جديد، فأكتفي بالابتسام من دون أن أرد.

يصحبني سعود أولا إلى المكتبة الضخمة في دبي مول، طيلة عمرنا ونحن نحب القراءة، كنت أحضر له روايات الجيب، التي يعشقها معي من مصر كل عام، قبل أن تصبح متاحة هنا بعد ذلك، كان يحمّلني بقائمة طويلة من أسماء الكتب التي يريدها، من مصطفى محمود وصولاً إلى ماركيز، لم يتغير فيه شيء، لا يزال شغوفًا بكل كتاب، يلمسه بحب، يتصفحه بإعجاب، يتجول بين الرفوف، وكأنه فارس في قلعته الحبيبة، أسير وراءه بلا اهتمام، أقلب في بعض الروايات الأمريكية «الأكثر مبيعًا»، كما كتب عليها، أنتقي واحدة وأقرر شراءها، يأتي هو بكتاب ضخم كئيب الشكل، أنظر إليه، وأقول ما هذا؟

ـ هذا كتاب عن هيروشيما، يحكي ما حدث على لسان الناجين، مؤثر جدًا.

ـ يالك من سوداوي!

ـ هذه ليست سوداوية، أعد مقالاً عن الحدث، لا بد أن أتناوله جيدًا، أن أحضره بنفسي من خلال هذه القصص.

ـ مجتهد جدًا.

ـ ناجح جدًا.

ـ ومتواضع أيضًا، يا لك من رائع.

يبتسم، ويسحب الكتاب من يدي، ليدفع ثمنهما معًا، أحاول المجادلة فيتجاهلني، يناولني إياه في حقيبة المكتبة الأنيقة ويقول: ليكن هدية استقبالك، ما رأيك؟

أشكره وأسير بجواره، وأنا أحرك ذراعي بالحقيبة كالأطفال، يحدثني عن عمله، عن حياته، عن الأصدقاء.

ـ هل أنت مرتبط؟

ـ لا.

ـ لم؟

ـ لم ماذا؟ لم يحدث فقط، هذه الأمور بلا لم.

ـ ماذا تفعل الآن؟

ـ أكتب روايتي الجديدة.

ـ هل تملك روايات قديمة؟

ـ نعم.

ـ فعلاً؟ كم أنا سعيدة بك، حقًا، والله.

ـ ما دمت سعيدة بي، سأجلب لك نسخة.

ـ لماذا لم أعرف ذلك من فيسبوك؟

ـ أخبرتك أنني لست دائم التفاعل لكنك لا تصدقين.

ـ حسنًا، لكني سأخبرك رأيي من دون مجاملات.

كنا نتحدث بسرعة وانطلاق في كل شيء، تناولنا الغداء معًا، شربنا القهوة، شاهدنا عرض النافورة الملون في الساحة الخارجية للمول، تجولنا في محلات العطور التي أحبها، توقفت كثيرًا أمام عطر هوجو بوس، عطر خالد الدائم، قررت شراءه أمام نظرات سعود المتعجبة.

ـ هدية لصديق.

ـ لحبيب؟

ـ ألم أخبرك أنني أنهيت ارتباطي؟

ـ لماذا لا تحكين لي القصة؟

ـ لا يوجد شيء لأحكيه، فعلاً، أحببت شخصًا، قرر تركي والزواج من أخرى، انتهى.

ـ قرر تركك والزواج من أخرى؟ انسيه فورًا.

ـ بهذه البساطة، كيف تقول ذلك؟

ـ أعرف أن الأمر صعب، لكني أخبرك الآن بالكلمة الوحيدة، التي يجب أن تسمعيها دومًا، أن تفكري فيها دومًا، أن تأكليها مع طعامك، وتشربيها مع شرابك، حتى تنسيه، حياة، انسيه، لا يستحق حبك، رجل

لا يحارب من أجل من يحب، هو في الحقيقة لا يستحق سوى النسيان.

أنظر إليه، وأتظاهر بالابتسام، ترتعش شفتاي قليلاً، لو كنت أتمكن من تصديقهم جميعًا يا خالد، أمي، ريم، سعود، جميع من يدفعونني لنسيانك، من يتهمونك بأنك لا تحبني، كيف لا تفعل وأنا أرى عينيك المفعمتين بالحب في أحلامي، وأنا أتذكر لمساتك المرتعشة، نبرة صوتك التي تختلف، عندما تنطق بكلمة حب في اللحظات النادرة، حتى اللحظة الأخيرة لنا معًا، كنت تفارقني بكلمات باترة، وعيناك لا تزالان تنظران لي نفس النظرة، لماذا تفعل ذلك؟ لماذا لم تحبك تمثيليتك القاسية، وتغلق عينيك حتى أستطيع كراهيتك، لماذا؟

يعيدني سعود إلى المنزل، ويذكرني بموعدنا صباح الغد، لأصحبه إلى الجريدة، أوافق وأنا أخطط للاعتذار في الصباح، وأتركه على باب المصعد.

سيول ٢٠١٥

أدخل إلى المكتب الضيق، أرى تيو جالسًا خلف مكتبه، يبدو وكأنه لم ينل قسطًا وافرًا من النوم أيضًا، ألقي عليه بتحية الصباح فلا يرد.

أجلس على مكتبي بهدوء، أمامي كوب من القهوة الساخنة، أحضره لي حتى وهو غاضب مني، لا أتحمل الشعور بالذنب أكثر من ذلك، أنهض إليه وأقبله على وجنته.

ـ آسفة، أنا حمقاء غبية، أرجوك لا تغضب.

المسكين يبدو وكأنه ينتظر كلماتي، يبتسم لي، ويرد القبلة قبلتين.

ـ لا أعرف ما الذي يجبرني على مسامحتك.

ـ لأنك أحمق يا تيو العزيز.

أعود إلى مكتبي لبدء العمل، أضع السماعات على أذنيّ، وأتابع الأخبار على شاشة الكمبيوتر، أتصفح مواقع الأخبار العالمية، العربية، الكورية، المزيد من الأخبار المقززة، قصص هاربين من داعش في سوريا والعراق، أنصار بيت المقدس يخطفون ضابطًا مصريًا من سيارته على الحدود، أعدموه فورًا من دون إبداء الأسباب، أشاهد مقطع الفيديو القصير، الضابط الشاب يتوسل لهم أن يتركوه، من أجل زوجته وطفله الذي لم يأت.

يزيح تيو السماعات من فوق أذني، وهو يقف خلفي.

ـ حياة، لا داعي لهذا المقطع، لم أتحمله وأنا لا أفهم نصف ما يقول.

أستدير إليه، وعيناي متحجرتان بالدموع.

ـ هو ليس جبانًا تيو، ليس جبانًا، هو فقط مشتاق لزوجته.

ـ أعرف.

كانت الدموع تنساب من عيني، من دون أن أشعر، ينظر إليّ تيو للحظات، يضع يده على كتفي، ويضغط بقوة، أستدير من جديد بمقعدي، لأسند رأسي على كفيّ، فيعود إلى مكتبه، يعرف أنني لا أحب أن يراني أحد، وأنا أبكي، وأنا ضعيفة.

أعيد تشغيل المقطع مئات المرات، أحاول التقاط بعض اللقطات الثابتة بزر Print Screen، هناك صورة حزينة للأرملة مبتسمة مع زوجها في حفل خطبتهما، صورة حزينة لأنهما يبدوان سعيدين، سعيدين جدًا فيها، لا يعرفان مصيرهما المظلم.

ـ هل تعتقد أنها ستشفى أبدًا من هذا الأمر؟

ـ من؟

ـ زوجة الضابط؟

ـ لا أعرف، كل ما أعرفه أنني لا أتمنى أبدًا أن أكون في موضعها.

ـ كيف يشفى البشر من آلامهم تيو؟

ـ الزمن يشفي الآلام، حياة، هذه هي الأمور التي تجعلني أثق في وجود إله، يرعى خلقه.

ـ أنا أثق في ذلك أيضًا، لكن العالم قاسٍ جدًا، قاس جدًا تيو، لهذه الأسباب وغيرها رفضت طلبك أمس، أرجو أن تكون فهمتني الآن.

لا يرد، يطرق برأسه إلى الأوراق التي أمامه، يفضل تيو التعديل بخط يده، على الأخبار المطبوعة قبل الانتهاء منها، بينما أكتب أنا بسرعة على الحاسوب، مقطعا مقطعين، لا أعدل، إلا للضرورة، أترك الأمر للمدققين في الإعداد، قبل أن تتحول التقارير إلى مكتب المذيعة.

أحمل «الفلاش ميموري» الصغيرة، وأتجه لغرفة الطابعة، لم أنس طباعة صورة أم ألان وأخيه، أحتاجهما ليؤنسا وحدته على الجدار أمامي، لا يتبعني تيو، ولا يسألني ماذا أفعل، ينهي تقاريره، ويبدأ في البحث من جديد.

ساعة، ساعتان، الوقت يمر ببطء شديد، الغصة المريرة لا تزال تملأ حلقي، أشعر بالكآبة تطوق المكان، المليء بأخبار القتل والعنف والرهائن المحتجزين، منذ عدة أيام، كانت صورة عالم الآثار، خالد الأسعد برأسه المقطوع بين قدميه، تحتل شاشات الأخبار.

المذيعة الحسناء تلوك الكلمات ببطء، وتتظاهر بالخطورة:

أعلنت داعش عن إعدامها لخبير الآثار السوري خالد الأسعد، بعد احتجازه وتعذيبه لفترة تجاوزت الشهر، من أجل استخراج بعض المعلومات، حول الكنوز الأثرية المخبأة في منطقة تدمر، العالم الذي يبلغ من العمر ٨٠ عامًا، وجد معلقًا على عمود أثري شارك سابقًا في ترميمه، بينما وضع رأسه المقطوع بين قدميه.

كلما رأيت عملية إعدام جديدة، كلما تذكرت ما سبق، كنت أستعيد المشاهد المفزعة في عقلي، عندما شعرت بتيو يضع يده على كتفي بهدوء.

ـ تيو سأغادر وحدي اليوم.

ـ لم.

ـ هكذا.

أحمل معطفي من دون أن أرتديه، وأغادر المكان مسرعة، أوقف سيارة أجرة مارة، وألقي جسمي على المقعد الخلفي، أغمض عيني قليلاً، قليلاً من دون أن أدرك أنني غفوت، في الحلم كان الضابط المصري يحمل رأس الدكتور خالد الأسعد ويقدمه لي، كان الرأس المقطوع يضحك، يرتدي نظارته الطبية ويضحك.

ـ لماذا لا تنقذيننا؟

ـ ماذا بيدي أن أفعل؟ أنا آسفة، آسفة جدًا.

ـ أنت قاتلة، قاتلة.

الدم ينز من رأس الدكتور، يلوث ملابسي، يتطاير على وجهي، يداي غارقتان بالدماء، أرفعهما أمام وجهي من دون أن أصدق.

ـ قاتلة.

ـ لا.

أنتفض فاتحة عينيّ لأرى وجه السائق العجوز، يرمقني في رعب، بالتأكيد أعتقد أنني مت أو شيئًا من هذا القبيل، أعتذر عدة مرات، وأنا أناوله نقوده، أخطو خارج السيارة عكس اتجاه بنايتي، في اتجاه مقهى يانج شين الصغير.

كانت يانج شين جالسة وحدها كالعادة، في مقهاها الأقرب لغرفة

ريفية مضيئة، أصص الزرع الطبيعي تزين الموائد الملونة، والمقاعد الزاهية كمقاعد مدارس الأطفال، تلتف حولها في سكون، تراني فتبتسم بـ«تنشيكة» أنفها اللطيفة.

ـ أنيوهاسيو.

ـ أنيوهاسيو أوني.

أناديها بلقب أوني، أي أختي الكبرى، كما تقتضي عادات الاحترام في كوريا، تكبرني بأكثر من عشر سنوات، لكنها تبدو أصغر مني بخمس.

أجلس على المقعد الخشبي الملون، بينما تهرع هي خلف البار لصب قهوتي الأمريكية.

ـ ماذا بك حياة؟

ـ لا شيء، مجهدة فقط.

ـ كيف حال السيد؟

تقصد تيو، الذي تراه عريسًا محتملاً لي، لا تفكر يانج شين، سوى في كيفية دفع صديقها الحميم السيد كيم، إلى طلب يدها، كيم يكبرها بخمس سنوات، في الثانية والأربعين من عمره، لكنه لا يزال مترددًا بشأن الارتباط الرسمي.

ـ جيد، لم يأت معي اليوم.

ـ متشاجران؟ لهذا أنت حزينة؟

أبتسم، لا.

تأتي يانج شين لتجلس بجواري، تضع المج البرتقالي الجميل، المليء

بالقهوة الساخنة، وتخرج هاتفها المحمول، لتريني صورها الجديدة، مع كيم في عطلة نهاية الأسبوع.

ـ صحبني تيدي بير ـ كما تسميه ـ إلى حديقة الحيوانات، الطقس مثالي لمثل هذه النزهة، هل زرتيها من قبل؟

ـ لا.

ـ يجدر بك أن تذهبي مع السيد، رومانسية جدًا، أحببت طيور الفلامنكو الزهرية والزرافات.

تبدو يانج شين أقرب لطفلة، دمية كبيرة متحركة، بشعرها الأسود الطويل وعينيها الضيقتين، من القليلات اللاتي لا يجرين عمليات تجميل لتوسيع أعينهن، أو صبغ شعرهن باللون الأشقر.

أشاهد صورها المضحكة وأبتسم، يدلف رجل من الباب، فتهرع لتحيته والوقوف خلف البار لإعداد طلبه.

أجلس أنا لأشرب القهوة في صمت، يرن هاتفي برقم تيو، لا أشعر بالرغبة في الحديث، لكنني لا أريد أن أقسو عليه أكثر من ذلك.

ـ ألو.

ـ هل أنت بخير؟

ـ نعم، أجلس مع يانج شين في المقهى قليلاً.

ـ هل أمر عليك؟

ـ لا، سأصعد لأنام، أنا مرهقة جدًا.

ـ كما تشائين، حياة، كيف أساعدك؟ أخبريني.

ـ لا شيء تيو أنا بحالة جيدة، لا تقلق.

أنهي قهوتي، وأودع يانج شين، المشغولة بتقديم القهوة لسيدتين عجوزتين، تجلسان معًا بجوار الباب..السيدتان بشعرهما القصير جدًا المصبوغ باللون الأحمر القاني، كما تفضل العجائز الكوريات، ينظران لي ويبتسمان، أنحني لهما كما هي العادة، وأغادر.

اعتدت على الاحتفاء الدائم كوني أجنبية، الناس طيبون جدًا، في عالم آخر بعيد، لا أحد يتابع الأخبار، لا أحد يستمع فعلاً إلى ما تقوله المذيعة الحسناء في نشرتنا، لا يعرفون أن اليوم قُتل شاب ينتظر طفله الأول بلا ذنب، وقبله، تعذب رجل ثمانيني بلا داعٍ قبل قطع رأسه.

أصعد إلى منزلي، أترك الأضواء مغلقة، وأكتفي بضوء الحمام الخافت كالعادة، أجلس على المائدة الصغيرة لقص صورتي أم وشقيق ألان، هناك صورة تظهر ألان وشقيقه الأكبر وهما واقفان مبتسمان للكاميرا، التي بالتأكيد يحملها أبوهما، أتأملهما للحظات، كانا سعيدين جدًا، سعيدان إلى أن قرر أحمق ما حرمانهما من الحياة، طفلان لا ذنب لهما في أي شيء، سوى وجودهما في البقعة الخاطئة من العالم.

أقف أمام الجدار لألصقهما بعناية، بجوار صورة ألان على شاطئ البحر، أبتعد خطوتين، وكأنني أتأمل لوحتي الفنية بعد انتهائها، يعجبني إحاطة الصورتين بالطفل النائم من الجهتين، بجوارهما مآب مبتسمة كعادتها، وفوقهما في منتصف الجدار تمامًا صور هند، حبيبتي هند.

أحفظ أسماء كل شخص في هذه الصور، حتى هؤلاء المجهولين الملقون بالعشرات بجوار بعضهم البعض، أسميتهم أنا بنفسي، الأطفال في الحفاضات بأجسامهم الزرقاء من الغاز في غارة الغوطة في جنوب سوريا، أسميتهم كما

لو كانوا أبنائي، هذا حسن، هذه شذى، هذا رائف، وهذا الصغير عادل.

أجلس على الفراش لأتأمل الجدار صورة بعد صورة بكشافي المضيء، لا يخرج لي أي منهم اليوم، أريد أن أرتاح قليلاً، أطلب منهم أن يظلوا مكانهم، كم أتمنى لو ذهبت أنا إليهم، أو أن تحن عليّ هند وتأتي، هي الوحيدة التي لم تخرج لي أبدًا، هي الوحيدة التي أتمنى حقًا أن تزورني، ألن تأتي لماما يا هند؟ أنا أنتظرك يا حبيبتي.

تغفل عيناي، وأنا أردد اسمها، لكنها لا تأتي، أنام بلا أحلام.

دبي ٢٠١٠

أفتح باب السيارة، أثب بحيوية للجلوس بجوار سعود، ينظر إليّ في دهشة، أبتسم ابتسامة واسعة، أرتدي تيشيرت زهريا ساطعا وسروالا من الجينز، أعقص شعري مثل الأطفال وأرتدي نظارتي الطبية.

ـ ما هو سبب هذه السعادة العظيمة؟

ـ لا شيء، استيقظت هكذا سعيدة، بصراحة كنت أخطط للاعتذار منك أمس، لكني هذا الصباح استيقظت، وأنا أشعر بالحماس، أريد رؤيتك وأنت تعمل، أريد رؤية جريدتك، طالعت بعض أعدادها القديمة في المنزل، جيدة جدًا، تذكرني بصحيفة الدستور المصرية.

ـ فعلاً نفس النهج، سياسة وشباب ورياضة وثقافة، أعتقد أنها جريدة حداثية وتجربة رائعة في الإمارات، أرجو فعلاً أن تستمر.

ـ عظيم.

ـ ناولني كتاب أنيق بغلاف أسود اللون، مكتوب عليه كلمة واحدة «الوثائق» ثم اسمه بالأسفل، سعود عبد الرحمن.

ـ الوثائق، أي وثائق إذن؟

ـ اقرئيها لتعرفي.

ـ حسنًا، ألن توقع لي عليه؟

ـ لا، لا أحب الإهداءات.

أنظر له بتعجب وهو يقود، أمد يدي لتشغيل الموسيقى، فينبعث صوت نجاة الشجي.

يدندن معها، يا مسافر وحدك، وفايتني.

أندمج أنا أيضا في الأغنية، أرفع صوتي مثل مطربي الأوبرا، ليه تبعد عني، ترام ترام، ليه تبعد عني وتفوتني.

لا أعرف سر النوبة الحماسية المضحكة، لا أعرف لماذا استيقظت سعيدة، لا أفكر لا في خالد ولا يحزنون، يبدو أن السفر قادر فعلاً على محو الذكريات التعيسة، المسافات يمكن أن تلغي بعضًا من المشاعر، هل ترتبط مشاعرنا بالمكان إذن؟ هل تشعر خلايانا أن الحبيب على مسافة لا تذكر، فتزداد شوقًا إليه، حرمانًا منه؟ وألمًا من عدم وجوده؟ وعند الابتعاد، تخفت حدة المشاعر، تعجز شعيراتها الدقيقة عن تحديد مكانه، فتذوي وتنكمش، وتعود من جديد لحالتها الطبيعية.

أحببت الصورة الخيالية العجيبة، للمشاعر وهي تتحرك مثل المجسات، بحثًا عن موقع الحبيب، ثم لا تجده فتعود خائبة إلى قلبي، وتنكمش ببطء.

أضحكتني الصورة، فنظر إليّ سعود بدهشة.

ـ لا شيء تذكرت شيئًا مضحكا.

ـ لماذا لا تضحكينني؟

ـ لن تفهم ما أقول.

ـ حسنًا، لقد وصلنا على العموم.

أدخل معه إلى البناية الضخمة الفاخرة في رهبة، نصعد في المصعد الواسع إلى الطابق الرابع عشر، يدلف إلى الردهة الطويلة المضيئة، ثم إلى قاعة واسعة تتناثر فيها بعض المكاتب، على اليمين غرفة زجاجية يظهر من خلفها شخص أكبر سنًا، يرتدي قميصًا أبيض وسروالاً من القماش، يشير إليه ويجذبني ببساطة من يدي، يطرق بيده على الزجاج ويدخل قائلاً: صباح الخير أستاذ أيمن.

يرد رئيس التحرير عليه صباحه، وينظر إليّ متسائلاً، فيقول: حياة، صديقة عزيزة من مصر، دعوتها لترَ عملنا في الجريدة.

يرحب بي الأستاذ أيمن، سوري، كما عرفت من لهجته، يسألني عن دراستي وعن مصر، أرد بالكلمات المعتادة بخجل، فيبتسم سعود لي.

ـ أحاول إقناعها بترك الصيدلة، والعمل في الصحافة، أعتقد أنها تملك المؤهلات اللازمة.

ـ إن رغبت ربما، يمكنك التدريب معنا، نحن نرحب بالدماء الشابة، والحماس للعمل.

لا أعرف ماذا أقول، فأنظر لسعود مستنجدة، يهز رأسه قائلاً: بالتأكيد، سأشرف على تدريبها بنفسي.

من دون أن أنطق يجرني عائدًا إلى مكتبه، في نفس القاعة الكبيرة لكن في ركن مستقل قليلاً عنهم، يفصله عن باقي المكاتب فاصل زجاجي قصير، أجلس أمامه وهو يضع حقيبته على الأرض، مخرجًا حاسوبه المحمول، يتصفح سريعًا مواقع التواصل الاجتماعي، يقرأ في الأوراق

التي أمامه، يدعوني للاقتراب، ونقل مقعدي إلى جواره خلف المكتب، يسألني هل أنت متحمسة؟

ـ لا أعرف، لكني أود خوض التجربة.

ـ حياة، لم أكن أكذب، عندما قلت إنك مؤهلة، أعرفك منذ الصغر، وأقرأ تدويناتك على قلّتها، أعتقد أنك تملكين الموهبة، ربما تصبحين كاتبة عظيمة يومًا، أو صحفية ذات شأن هائل.

ـ لا أعرف حقيقة، أنا لست مثلك، لا أواظب حتى على القراءة بشكل مستمر.

ـ إذن ما رأيك بالبدء بأشياء صغيرة، مثل الترجمة، سأعهد لك بتقارير بسيطة لنرى كيف سيتطور أسلوبك.

أومئ برأسي موافقة، أشعر بالحماس وأنني أفعل شيئًا ما هامًا، أبقى معه طيلة اليوم، أقرأ تقاريره، وأراقب الجو المفعم بالأدرينالين في الجريدة، الجميع يتحركون، يضحكون، يتبادلون الأفكار، هناك فتاتان أحدهما ترتدي العباءة السوداء فهمت أنها مواطنة، وأخرى بفستان رمادي قصير، رحبت بي باللبنانية قائلة: أهلاً وسهلاً بمصر وأهلها، قبلتني وأحضرت لي كوبًا ورقيًا به بعض القهوة، فوقعت في غرامها فورًا.

هذه جانين من لبنان، ستجدين العديد من الجنسيات معنا، هناك شابان من الكويت، ثلاثة من مصر، أردني ولبنانية وثلاث إماراتيين أنا منهم، رئيس التحرير سوري كما لاحظتِ.

ـ هذا عظيم.

ينظر إليّ ويبتسم فأبتسم أنا أيضًا، يبدو أن هذه الرحلة ستطول.

سيول ٢٠١٥

أقف أمام النافذة الكبيرة في منزل آدم، يصب هو بعض القهوة في كوبين ملونين، ويمد يده لي بأحدهما.

أتناوله شاكرة فينظر بدقة إلى معصم يدي، أسرع لتغطيته بكم قميصي، وأنا أقرب الكوب من شفتي.

ـ هل زارك أحد بالأمس؟

ـ لا، لكنني أضفت العديد من الصور إلى الجدار.

ـ الجروح على معصميك قاربت على الالتئام.

أنظر له بحدة، فيثبت عينيه على وجهي.

ـ أخبرتك أن هذه الجروح تحدث بلا قصد، أستخدم المقص كثيرًا.

ـ حسنًا، أصدقك بالطبع.

أنظر إلى النافذة من جديد، يقف بجواري ويسأل، ما الذي حدث بعد عودتك إلى القاهرة، هل عدت مع بداية العام الجديد؟

ـ نعم.

ـ لماذا تتجنبين دومًا هذا الجزء؟

ـ لا أتجنبه، لكنك تعلم أن هذه الفترة سوداء في تاريخي، وتاريخ مصر أيضًا.

ماتت أمي وظللت فترة طويلة وحيدة.

ـ هل هذه هي الأسباب الحقيقية؟ أنت لم تشاركي حتى في الثورة.

ـ لم أشارك، لكن خالد فعل.

ـ هل أصابه ضرر ما؟

ـ لا، أبدًا.

ـ حياة، إن كنت لا تودين الحديث فيمكنك ذلك، لا أريد السماع بسبب فضولي الشخصي، وإنما لأساعدك أنت على التحرر قليلاً من هذا الثقل، ماذا عن الكتابة؟ هل تعتقدين أنها أنسب لك؟

أهز رأسي موافقة فيتركني، ويعود للجلوس خلف مقعده، وأعود أنا إلى متابعة الشارع المزدحم من خلف الزجاج.

دبي ٢٠١١

لماذا قررت إنهاء رحلتي فجأة في بداية يناير؟

كان الوضع متأزمًا في مصر، هناك مطالبات بالنزول والتظاهر، تونس تنفض غبار بن علي عن نفسها، والمقطع الشهير لرجل يصرخ: «بن على هرب» في شواعها الخالية ذات مساء يلف فيسبوك، أشاهده لثانيتين ثم أغلقه، سعود متحمس، يخبرني أنه يتوقع ذات الشيء قريبًا جدًا في مصر، يكتب مقالات ملتهبة، عن التعذيب والقهر والاحتلال الداخلي في البلاد العربية، أراجعها معه من دون شغف، أصارحه برأيي أن كل هذا هراء، فينظر إليّ من دون تصديق.

أبي نفسه كان قلقًا، أخبرته أن الأمر لن يتجاوز بعض التظاهرات في الشارع، وأن لا ثورة تحدث بسبب الغيرة من دولة أخرى، أو بدعوات وevent على فيسبوك، لكنه قلق، تزيده أحاديث سعود قلقًا، ويرجوني ألا أعود.

كانت الجملة الحاسمة لي، عندما أخبرته بأنه حتى لو اشتعل الوضع، أفضل أن أكون إلى جانب أمي وقتها، لا أستطيع تركها وحيدة، فلم يستطع الرد.

كنت في غرفتي، أعيد فتح وإغلاق حقائبي للمرة السابعة عشر،

عندما طرقت زوجة أبي الباب بلطفها الذي يشعرني بالذنب دائمًا.

ـ حياة، سعود في الخارج.

أخرج له من دون كلمة، يراني فينهض من مقعده، يبتسم ويسحبني من ذراعي إلى الباب الخارجي، يوارب الباب قليلاً ويلتفت إلي، أبتسم نصف ابتسامة، وأسأله ما الأمر؟

يقترب مني ويناولني كتابا كان في يده، أنظر إلى الغلاف، فأرى اسمه عليه، أعيد النظر فيقول:

ـ نعم، استلمته الآن فقط من المطبعة.

أبتسم أكثر، أنظر إلى العنوان، «حياة أخرى» أرفع عيني إليه، وأقول: حياة أخرى؟ وليست حياة أنا؟

يضحك، يخبرني أني ألهمته بالفعل بالعنوان، غيره في اللحظة الأخيرة قبل الطباعة، لكن الأمر ليس له علاقة بي.

كنت أشعر أنه يكذب، لكني وافقته على كلامه، أحاول تجنب الحديث حول هذه الأمور بقدر المستطاع، وأعرف جيدًا، أنها مؤقتة وزائلة بمجرد عودتي إلى مصر.

أطلب منه أن يأخذني إلى المطار صباحًا، لا أريد قضاء آخر لحظات لي هنا في الحديث مع أبي حول الوضع في مصر، وضرورة انتقالي والعيش معه للأبد.

يعود من جديد معي إلى الداخل، لاستئذان أبي الذي يوافق مضطرًا، ويعدني بالمرور في تمام السابعة.

في الطريق إلى المطار، كنت صامتة تمامًا، أشعر برغبة شديدة في النوم،

نسمات باردة غير معتادة تهب من حولي فأرتجف، يسألني هو، متى ستعودين؟

ـ لا أعرف، ربما في نهاية العام.

ـ ربما عليك التفكير فعليًا في كلام والدك، فرصك العملية هنا رائعة، سواء قررت العمل في مجالك، أو في الصحافة.

كان العمل الصحفي قد استهواني تمامًا، متابعة الجميع، وهم يعملون بسرعة وقلق، الأدرينالين في الأجواء، ليالي النشر النهائية قبل صدور الجريدة، موافقة رئيس التحرير على نشر مقالين بسيطين لي، كانت رؤية اسمي، المطبوع على الصفحات الورقية المميزة رائعةً جدًا، شعرت أنني هامة، وجيدة، ومتميزة في شيء ما.

أخبره بأنني سأفكر في الأمر، لكن عليّ الترتيب لذلك جيدًا، لا عودة من دون أمي، وإن حدث ذلك، عليَّ الاستقلال بعيدًا عن أبي أولا.

يدلك سعود جبهته بأصابعه كعادته عند التوتر، يدفع عربة حقائبي أمامه إلى بوابة المغادرين الأخيرة، أشكره وأمسك بيديه فترة، فيربت بكفه على كتفي ويبتسم.

كان واقفًا كما هو بعيدًا، وأنا أنهي إجراءاتي، أنتهي منها وألوح له مودعة، يبتسم من دون أن يرد التحية، فأبتعد في طريقي إلى بوابة الرحلة.

أحاول عدم التفكير فيه كثيرًا، كانت مشاعري واضحة نحو سعود، صديق عزيز، ربما أخ لم أملكه، حياة الوحدة الدائمة التي أعيشها تنتهي بمجرد ظهوره، لكن هل يدرك هو ذلك؟ إمكانية حدوث علاقة صداقة صريحة وحقيقية بين رجل وفتاة؟

أجلس في مقعدي بالطائرة، وأحاول ألا أصاب بهلع الإقلاع، أتسلى قليلاً في متابعة الشاشة أمامي، وتصفح الأفلام الموجودة بها، قبل أن أتذكر كتاب سعود الجديد في حقيبة يدي.

لم تكن رواية كما توقعت، بل مجموعة قصصية متنوعة، أقلب الكتاب بحثًا عن القصة الأخيرة، التي تحمل عنوان المجموعة، «حياة أخرى» كنت أعتقد أنها قصة رومانسية كما يشي الاسم، لكنها كانت قصة بائسة، عن رجل سبعيني يكتشف فجأة أنه لا يملك حياة، وأن كل ما عاشه كان حياة أشخاص آخرين، والديه، أشقائه، زوجته، أولاده، أولادهم، أما هو، فلا يعرف ما الذي يفعله بالضبط، ما الذي يحبه، ما الذي يثير اهتمامه، لا يملك هوايات، أو رغبات، أو حتى إيمانًا بأي شيء.

يقرر الرجل فجأة الرحيل من دون إنذار، والبدء في حياة جديدة وغريبة، وعندما يتمكن من اكتشاف نفسه فعلاً، اهتماماته ومشاعره وشخصيته الخاصة، وعندما يؤمن بالله وبالعالم وبالحب والناس، يموت في هدوء على مقعد خشبي منعزل في حديقة.

قلت في سري: تبًا لك يا سعود وتبا لسوداويتك، لكنني لمحت جملة قصيرة بخط ضئيل وكأنه يدعو الله ألا أراها في الصفحة الأخيرة من الكتاب:

«إهداء إلى حياة، عسى أن تجد حياتها الأخرى ذات يوم».

يتفلسف كثيرًا سعود، وفلسفته تثير ضيقي مثلما فعل الآن، أقرر عدم استكمال الكتاب والنوم حتى الوصول.

القاهرة ٢٠١١

أقف أمام شاشة التلفاز، ممسكة بمنشفة وجهي، بعدما خرجت من الحمام مسرعة، لا أصدق الكلمات التي أسمعها، كان عمر سليمان واقفًا أمام الميكروفون، معلنًا تنازل مبارك عن الحكم، استجابة للإرادة الشعبية، الصيحات تصل إلى أذني من الشارع، وسط البلد تموج بالناس، أنظر من الشرفة لأرى الشباب يجرون في كل اتجاه، يحتضنون بعضهم البعض، امرأة متحمسة تطلق «زغرودة» طويلة في شرفة مقابلة، وفي بعض الشرفات، ينظر الرجال الأكبر سنًا للمشهد في اشمئناط، لا يعجبهم الأمر على الإطلاق، فأبتسم في سري، أتوقع الكثير من الحماس والمعارضة والشتائم والسباب في الأيام المقبلة، أعود للداخل لأتابع تغير المشهد تمامًا على شاشات الفضائيات، هناك أشخاص يهللون في الهاتف، ويبكون من فرط السعادة، رغم أنني رأيتهم من مكاني الدائم أمام التلفاز طيلة الأيام السابقة كنت أسمع أصواتا أخرى تتصل بالبرامج للتحدث عن مبارك وكأنه والدهم.

أهز رأسي في يأس، وأنظر إلى شاشة الحاسوب، رسالة من سعود المتحمس أكثر مني، والذي يتابع الموقف منذ الدقائق الأولى، كاتبًا «مبروك»، أرد بوجه أصفر مبتسم فيسألني هل تسخرين مني؟

أرد، لا، لكني أتعجب سعادتك، أنا لا أشعر بشيء، لا بالسعادة ولا بالحزن، ولا أشعر أن الوضع سيتغير كثيرًا.

أراه يحاول الكتابة ثم يتوقف، يمسح ما كتب ويعيد من جديد، تصل كلماته أخيرا متسائلاً لماذا؟

أكتب أبياتًا لأمل دنقل: «فخلف كل قيصر يموت قيصر جديد».

يرد، حياة المتشائمة الدائمة، ألا تستطيعين أن تفرحي ولو قليلاً، أتابع المشهد من ميدان التحرير، وأتمنى لو كنت هناك، انزلي حياة، انزلي واحتفلي.

أكتب له حسنًا لأسكته، وأنهض لأعد بعض القهوة.

الصيحات تخفت من الشارع، الجميع توجه للميدان للاحتفال، أرى الألعاب النارية والأضواء على شاشة التلفاز، تنقل الكاميرا المشهد من شوارع المحافظات المختلفة، سعادة تامة لم أرها في شوارع مصر، سوى حينما فاز منتخبنا الوطني بكأس الأمم الإفريقية، هؤلاء أناس يفرحون بكل ما أوتوا من قوة، لماذا لا أستطيع أن أفعل مثلهم؟

يرن هاتفي برقم لا أعرفه، أرد لأسمع صوته أخيرا، صوته البعيد الذائب وسط الصيحات والغناء والاحتفال، ينادي حياة، هل تسمعينني؟

أعجز عن الرد لدقيقة، أتحرك في الصالة كالمجنونة، أخرج من الشرفة وكأنني سأسمعه أفضل، أقول خالد، أهذا أنت حقًا؟

ـ نعم، حياة، أنا خالد، هل سمعتي بما حدث؟ هل أنت في التحرير؟ أين أنت؟ أريد أن أراك.

كان صوته مفعمًا بالسعادة، منيرًا قويًا، كما لم أسمعه من قبل.

أجيبه بدهشة، أنا في المنزل يا خالد، لم أنزل.

ـ إذن سأحضر أنا إليك.

يغلق هاتفه قبل أن أتمكن من الرد، هل يعرف بوفاة والدتي؟ هل يعرف أنني أعيش وحيدة الآن؟

أهرع لترتيب المقاعد، وإخفاء الأوراق والعلب المتناثرة، أعيد تنظيم المائدة الصغيرة وغلق أبواب الغرف، أرش بعضًا من المعطر في الهواء وأحاول البقاء متزنة.

يدق جرس الباب، أكتم أنفاسي، وأتجه نحوه بسرعة، أفتحه ليطالعني وجه خالد أخيرا.

أفتح شفتي للحديث فلا يترك لي الفرصة، يندفع نحوي ويجذب ذراعي إلى عنقه، يحتضني بقوة، فأكاد أبكي، أهمس خالد، افتقدتك كثيرًا.

يرفع وجهي بين كفيه وينظر إليه، وكأنه يراه للمرة الأولى، كان سعيدًا جدًا، يبدو وكأنه محلقًا في عالم آخر، يبدو وكأنه تحت تأثير مخدر ما، أبتسم لابتسامته فيدفعني للداخل ويغلق الباب.

لا يترك لي فرصة للحديث، كان شخصًا آخر لا أعرفه، أحاول الحديث فلا يسمح لي، يقبلني بقوة، يحتضني أكثر، يهمس فقط، حياة، أنا أحبك كثيرًا، لم أتوقف عن التفكير فيك.

أهمس وأنا كذلك، أفتقدك كل يوم، لا أستطيع العيش من دونك يا خالد.

كان مستمرًا في تقبيلي، نتحرك من دون وعي نحو الأريكة، يدفعني برفق عليها، لا أشعر بشيء، ولا أفلح حتى في محاولاتي للتذكر.

يهمس: كل هذه السنين، كيف انتظرت كل هذه السنين؟

كنت تائهة تمامًا، الخدر يتصاعد من أطراف قدمي إلى رأسي، والصمت

القاتل يلفنا، لم أشعر بالغرابة ولا القلق ولا الخوف، كنت أشعر أنني الآن مكتملة، في أحضانه فقط أستطيع التنفس، أستطيع الذوبان، أستعيد بعضًا من الدفء في الفراغ البارد من حولي، كان يرفع عينيه إلى وجهي بين لحظة وأخرى، وكأنه لا يصدق أنني هنا، معه، بين ذراعيه.

أنا أيضا كنت لا أصدق، ما الذي يحدث بالضبط؟ أفك أزرار قميصه ببطء، وكأنني أفعلها منذ الأبد، يخلع عني ملابسي، من دون أن أخجل، ينحني فوقي من جديد، يقبل عنقي، صدري، بطني، يعود إلى شفتيّ، رأسي يزن أطنانًا، وجسمي يكتسب حياة مستقلة بعيدة عن عقلي، ينتفض، يعلو ويهبط، يغوص للأسفل، يذوب ويندمج فيه.

أرتعش، وأهوي من حالق، ثم أحلق من جديد، صوت أنفاسي المتسارعة يعلو أكثر، أغمض عينيّ، أضغط بأصابعي على ظهره، فيعتصر جسدي أكثر.

لا أعرف كم مر علينا من الوقت، ولا كيف مر، لا أذكر سوى نظرته الأخيرة لي، وكأنه يفيق من حلم غريب، تستعيد عيناه نظرتهما الطبيعية، ينظر إليّ ويمرر يديه على وجهه، يعتدل جالسًا ويهمس، ماذا فعلنا بالضبط؟

أما أنا، فلم أفق تمامًا، أنظر له وهو ينهض، يرتدي ملابسه، من دون أن ينظر باتجاهي، يعطيني ظهره ويقول كلمة واحدة: سأغادر الآن.

أحاول استيعاب ما يحدث، أحاول أن أنطق باسمه، أن أوقفه، يخرج صوتي ضعيفًا مخذولاً، أهمس، خالد، لكنه لا يسمعني، يغلق الباب خلفه فأنتفض، أمد يدي لأعيد ارتداء ما أصل إليه من ملابس، أحاول النهوض فأشعر بساقيّ وهما ترتجفان بقوة، أجلس من جديد للحظات،

هناك طنين ثقيل في أذني، صداع خفيف يبدأ من مؤخرة رأسي إلى صدغّي، أتمالك نفسي وأنهض من جديد، أمشي مترنحة نحو الحمام، أقف أسفل الدش البارد، من دون أن أهتم حتى بضبط المياه الساخنة، المياه المثلجة تهبط على رأسي بقوة، يقشعر جلدي، تجمد أطرافي، فأرتعش، أقف أسفلها دقائق، ساعات لا أذكر، أخرج إلى الصالة عارية، أحاول إخراج ملابس نظيفة من خزانتي، لا أعرف ما الذي ارتديته بالضبط، أذكر فقط أنني اندسست في فراش أمي، من دون حركة، ومن دون أفكار.

سيول ٢٠١٥

يصحبني تيو، في رحلة تسوقه السنوية قبل الكريسماس، أذهب معه مضطرة إلى مول «هوم بلاس»، الضخم الأقرب لمنزله، يمسك بقائمة طويلة مكتظة بأسماء الهدايا، التي يستعد لشرائها لأهله في الوطن، أنظر في التقويم على هاتفي المحمول، ٢٥ نوفمبر.

ـ متى ستسافر؟

ـ بعد أسبوع، لم لا تغيرين رأيك وتأتين؟

أبتسم من دون رد، طيلة الشهرين الماضيين، وهو يحدثني في نفس الأشياء، لم لا تعودي معي إلى هولندا؟ نقضي الكريسماس مع أهله، في مدينة زوترمير الجنوبية الجميلة.

ـ ستعجبك، تشبه مدينة إنشن هنا، هل زرت إنشن؟

ـ نعم، لكني لن آتي معك إلى زوترمير رغم ذلك.

يمسك بيدي أثناء تجولنا في المول الضخم، ٣٠ يوما على الكريسماس، وعلى عيد ميلادي الموافق ذات اليوم، ٢٥ ديسمبر، يحتفل العالم كله، وأبقى أنا في غرفتي الصغيرة المظلمة.

لهذا أطلب منك المجيء، لم يجب أن تكوني وحيدة في الكريسماس، وفي عيد ميلادك؟

المحلات البراقة، متراصة بجوار بعضها البعض، الشعب الكوري يعشق البذخ والرفاهية، العلامات الفاخرة تجد طريقها إلى المولات الضخمة بسهولة، يريد تيو شراء قرطين ثمينين لأمه.

«فان كليف أند آربلز» يبدو أقرب لذوقه، يتأمل قرطين ملونين رائعين، ويسألني رأيي.

ـ جميل جدًا

يطلب من البائعة لفه كهدية، أنتظره أنا في الخارج مع باقي الحقائب الضخمة حتى يخرج.

ـ عائلتكم ضخمة جدًا.

يضحك، أخواتي وأزواجهن وأطفالهن، بعض الأصدقاء.

ـ حبيبة؟

ـ لدي حبيبة واحدة هنا، لا داعي للخبث.

يتعامل معي تيو باعتباري صديقته الحميمة، الأمر الذي لا يمكنني ابتلاعه بسهولة، لا يصرح بذلك كثيرًا، ولا يطالبني بالالتزام، ربما هكذا يمكنني تحمل الوضع.

نتجه إلى مطعم كوري مجاور، أحب هذا المطعم كثيرًا، يعد طبقًا رائعا، من وجبة لا أعرف اسمها، أرز بالخضراوات واللحم، يعلوه طبقة من البيض المطهو.

صفوف متتالية، وكأنها مقاعد مدرسة، أجلس أمام تيو على مائدة صغيرة، يطلب نفس الطبق لي وله، مع بعض القهوة.

ـ حياة، أريدك أن تغيري رأيك فعلاً، لم لا تأتين معي؟

ـ أخبرتك، لا أحب التجمعات العائلية ولا الاحتفالات، ربما أسافر إلى جزيرة جيجو، أو أظل في المنزل لا أعرف.

ـ كنت تفكرين في العودة إلى القاهرة؟

ـ لا كنت أفكر في العودة إلى دبي، حفل زفاف صديق.

ـ أرجو ألا تغادري من دون إخباري.

ـ كيف سأخبرك إن كنت ستغادر بعد أسبوع؟

ـ هناك اختراع عظيم يدعى الإنترنت، وآخر أعظم يدعى الهاتف.

ـ أبتسم له، حسنًا، سأخبرك، متى ستعود؟

ـ النصف الثاني من يناير.

ـ حتى لو غادرت، سأعود قبلك.

ـ لم لا أصدقك؟

ـ ماذا تتوقع أن أفعل إذن؟

ـ ترحلين، لا تعودين.

ـ حتى لو حدث ذلك، ماذا سيتغير؟ أرجوك تيو لا تتعلق بي، أنا لا أصلح للحب.

ـ تقولين هذا الآن، حياة؟

ـ اسمع، أنا أحبك، فعلاً، لكني لا أستطيع الالتزام، أنا مجنونة، أنت لا تعرفني.

ـ أعرفك جيدًا.

يقولها، ويضع أمامي علبة مخملية مفتوحة، بها خاتم ضخم، حجر أزرق كبير، يشبه الأقراط التي ابتاعها لأمه، الأحمق اشترى الخاتم من ورائي، ليقدمه لي هكذا.

ـ حياة، أنا أعرض عليك الزواج رسميًا، اقبلي الآن أو ارفضي، ودعينا ننهي هذا الأمر فورًا.

أتجمد في مكاني، يبدو جادًا فعلاً، لا أعرف ماذا أقول، أحاول التملص من الرد.

ـ تيو أنت مجنون، تعرف أنني لا أحب المفاجآت.

ـ هذه ليست مفاجأة، أنا أحدثك في الأمر منذ شهرين.

ـ وأنا أخبرتك من قبل بأنني لن أتزوج.

ـ لا داعي للزواج رسميًا، دعينا ننتقل للعيش معًا، ضعي هذا الخاتم في أصبعك، وينتهي الأمر، شكة دبوس.

ـ أنت لا تفهم، أنت لا تعرفني.

ـ أعرفك حياة، أعرفك وأفهمك، وأشعر بك من دون كلام، لماذا لا تصدقين؟

ـ إن كنت تعرفني فعلاً، ربما حان الوقت لزيارة منزلي.

في السيارة، كنت أفكر في ما لا يعرفه تيو إلى اللحظة، كنت بالفعل أخطط للرحيل بعد سفره، لا أعرف إن كنت سأعود أم لا، أريد العودة إلى القاهرة لبعض الوقت، قبل التوجه إلى دبي، وحضور حفل زفاف سعود، ربما يقنعني وقتها والدي بالبقاء معه هناك، وربما أطلب منه السفر إلى مكان آخر بعيد.

أريد الهرب من الثلوج المحيطة بنافذة منزلي، من الوحدة، من الأخبار، من الجدار، ومن تيو حتى، ثلاثة أعوام كافية تمامًا للملل، من مدينة أسكنها من دون أن تسكنني.

أشتاق للقاهرة، أشتاق لكل شخص فيها، رغم قسوتها الشديدة معي، رغم قسوة البشر هناك، أشتاق لزيارة جديدة، لم تتجاوز زيارتي الأخيرة اليوم ونصف، رمقني ضابط الجوازات بنظرة شك قبل أن يصحبني إلى مكتب جانبي، سألوني عن سر عودتي، ورحيلي بعد ساعات، خاصة إلى بلد بعيد مثل كوريا الجنوبية.

ـ أتيت لزيارة عزيز، لكنه مات قبل لقائي به، لا أريد البقاء أكثر من ذلك.

كانت الدموع المتجمدة في عيني، ملابسي التي يبدو عليها أثار الإرهاق والسفر، ربما شفيعة لهم في التعاطف معي، سمحوا لي بالذهاب، لأعود في رحلة طويلة خلال يومين، إلى سيول.

كان الشتاء مستمرًا هنا أيضًا، كنت أرتدي ربما ذات المعطف الطويل الرمادي، الذي أرتديه اليوم، نفس الوشاح الملون الصغير.

أتذكر تفاصيل اليوم الفائت، وأيام أخرى مثله، حزينة مظلمة، بينما يشعر تيو بجواري بالحماس، لموافقتي أخيرا على زيارته لبيتي.

وصلنا.

أقول، وأنا أنظر له، وهو يدلف إلى شقتي نصف المغلقة، من دون أن أنطق، ربما ستكرهني الآن يا عزيزي.

القاهرة ٢٠١١

يرن جرس الهاتف باسم ريم للمرة الألف، لم أخرج من المنزل منذ شهر كامل، أغلقت حسابي على فيسبوك، وطلبت عطلة طويلة من العمل، حتى اعتقد الجميع أنني سافرت.

لا يتوقف جرس الهاتف عن الرنين، بابا، ريم، سعود، وحتى أحمد، يتصلون كل يوم ولا أرد، الوحيد الذي كنت سأرد عليه لم يتصل بعد، وكيف يفعل بعد الذي حدث.

كنت أجلس على المقعد المواجه للأريكة الضخمة، حيث حدث كل شيء، أحاول التفكير في ما يجب عليَّ فعله، هل أتصل أنا به؟ هل أرسل له رسالة طويلة، وأسبه وألعنه كما أشاء، هل أخبر ريم، هل أذهب إلى بيته، وأتسبب له في فضيحة؟

أرفع الهاتف إلى أذني أخيرا، أرد على ريم التي تصرخ في، تسبني وتتهمني بالجبن والنذالة، لكنها تصمت، عندما تسمع صوتي المنكسر، رغمًا عني يخرج ضعيفا وباهتا، تقول: اغلقي الخط سآتي إليكِ حالاً.

نصف ساعة تمر أو لا تمر، وأنا جالسة في نفس موضعي، يرن جرس الباب، فأنهض متثاقلة لأفتح، تراني ريم فتتراجع إلى الخلف مبهوتة، لا أفهم لماذا تنظر إليّ هكذا، لكنها تجرني من يدي، لأقف أمام المرآة العتيقة المواجهة للباب، وتقول: من هذه؟

أنظر إلى وجهي المصفر، وجسمي الذي فقد عدة كيلو جرامات، والسواد أسفل عيني، ولا أعلق، أتجه إلى مقعدي الدائم، وأشعل سيجارة.

تجلس ريم أمامي على الأرض، وتمسك بيديّ، تهمس، حياة، ما الذي حدث بالضبط؟ أرجوكِ أخبريني، هل هو خالد؟

لا أعرف ما الذي حدث لي عند سماع اسمه، انفجرت في البكاء فجأة، انحنيت لأجلس أمامها على الأرض وأنا أرتجف، احتضنتني طويلاً جدًا، شعرت أنها فهمت كل شيء، لكنها جلست صامتة، وأنا أقص عليها ما حدث.

عندما انتهيت، شعرت ببعض الراحة، أما ريم فنهضت من دون كلمة، اتجهت للمطبخ تبحث عن أي شيء صالح، وعندما لم تجد تناولت حقيبتها وغادرت مسرعة، لتعود بعد دقائق، ببعض علب العصير، عدة أرغفة من الخبز، وبعض الأجبان.

صنعت لي بعض الشطائر، كما كانت أمي تفعل، وأرغمتني على شرب العصير، وجلست لتراقبني وأنا أحاول الأكل.

عندما تكلمت أخيرا، قالت، يجب أن تتصلي به، هذه ليست لعبة، يجب أن تتحدثا معًا الآن وفورًا، عليه أن يتخذ خطوة حاسمة، وأن يتحمل مسؤولياته كاملة.

نظرت لها من دون أن أرد، أكملت.

ـ حياة أنا لا أمزح، زفافه بعد شهرين من الآن، عليه أن يفعل شيئًا.

ـ ماذا يجب أن يفعل؟ وماذا أفعل أنا؟ لن أفعل شيئًا، ليتزوج أو يذهب إلى الجحيم، أنا أكرهه تمامًا.

ـ أنت كاذبة جدًا، كما أن الأمر لا يمكن أن ينتهي بهذا الشكل، يجب أن يتحدث معك، أنت لستِ..

لم تكمل جملتها، لكني فهمت ماذا تريد أن تقول، لكني في الحقيقة كنت أشعر أنني كذلك، لم أكن أشعر برغبة في الكلام، ولا أي شيء آخر، في الحقيقة كنت أتوقع رد فعله، وخذلانه لي للمرة الألف، توسلت إليها ألا تخبر أي شخص، خاصة أحمد، ووعدتني أن تفعل على مضض.

عندما غادرت ريم، نهضت من جديد، لأنظر في المرآة، كنت شخصًا آخر، امتصني خالد كما يمتص مصاص الدماء ضحاياه، ليفرغهم من الحياة، كنت ميتة، بعيني المتسعتين وعظم وجنتي البارز، وشعري المتناثر بلا اهتمام.

لم يكن أمامي سوى التفكير في السفر، أرسلت إلى والدي رسالة مقتضبة، أسأله فيها إن كان لا يزال على طلبه، بأن أنتقل للعيش نهائيًا في دبي، وجلست لأنتظر الرد.

كنت أعيد فتح حسابي على فيسبوك، أنظر إلى صفحة خالد المغلقة في وجهي، لا أعرف إن كان يجب عليَّ إرسال رسالة أم لا، لكني استجمعت شجاعتي كلها، وأرسلت له جملة واحدة: يجب أن نتحدث.

مرت عدة دقائق قبل أن يرد، سأمر عليكِ في السابعة.

نهضت متثاقلة، لأرتدي ملابسي، أحاول تمشيط شعري، رش بعض العطر، أنتظره في الشرفة حتى حضر.

من دون كلمة، انطلق بالسيارة إلى وجهة لا نعرفها، لم أعرف كيف أتحدث، أريد أن أقول الكثير من الأشياء، أحاول استجماع أفكاري، لكنها تذوب تمامًا على أطراف لساني، أوقف خالد سيارته على جانب

الطريق في شارع من شوارع الزمالك الجانبية، والتفت لي فجأة قائلاً: حياة، أنا سأتزوج بعد أقل من شهرين.

رفعت حاجبي، من دون أن أنطق، ليتابع..

أعرف أنني أبدو وغدًا وحقيرًا الآن في نظرك، لكني لا أعرف ما الذي يجب عليّ فعله، لا أعرف ما الذي حدث، أو كيف حدث، كنت مشتعلاً بالحماس، لم أفكر، ولم تفعلي أنت أيضًا، هذه غلطة يجب أن ننساها.

ـ ننساها؟

ـ نعم، يجب أن ننساها، وندعو الله أن يغفر لنا.

ـ الله؟ تريد أن تدعو الله أن يغفر لك؟ وماذا عني؟ لماذا لا تطلب مني الغفران؟

ـ أنت كنت معي في الأمر، لم أفعل شيئًا من دون رضاك.

ـ لا تشعر بالذنب نحوي إذن؟

ـ في الحقيقة، أشعر بالندم، وأشعر بالذنب تجاه المخلوقة التي لا ذنب لها، خطيبتي التي تعتقد أنني أخلص رجل في العالم.

ـ نعم بالطبع، أما أنا، فمجرد فتاة حمقاء، سقطت في حبك، ونظرك أيضًا.

ـ حياة لا ترددي جملاً على لساني، أنا أحبك، وسأظل أحبك، لكنني لا أستطيع التخلي عن التزامي، ولا التمرد على عائلتي، سمِّني جبانًا، متخاذلاً، سمِّني بما تشائين، لكني قررت أن أختفي تمامًا، لن تريني من جديد، والأفضل أن تتوقفي عن التفكير فيّ.

ـ هل ستفعل أنت؟

صمت لحظات، قبل أن ينظر إليّ قائلاً: سأحاول.

القسم الثالث

سيول ٢٠١٤

من دون مقدمات، أفتح اللاب توب، وأضغط رسالة جديدة.

عزيزي سعود.

مرت أربعة أشهر على آخر محادثة بيننا، هذه هي أطول فترة قضيناها، من دون حديث منذ معرفتنا، لا أعرف ما الذي حدث، هل حواري معك في الدين، والإيمان الذي يخفت داخلي شيئا فشيئا، أثار انزعاجك؟

أريدك أن تعرف أنني كما أنا، حياة التي تعرفها لم تتغير كثيرًا، ربما صرت أكثر هشاشة وضعفًا، ربما صرت أكثر برودًا وسخافة، ربما أسير في اتجاه الجنون التام بنجاح، لكني لا أزال أشعر نحوك بنفس المشاعر الجميلة، أنت صديقي الحقيقي الوحيد في هذا العالم، رغم أننا لم نتقرب إلى بعضنا البعض، سوى منذ أقل من أربع سنوات، لكن من قال إن الصداقة تحسب بالسنوات؟

أنت الوحيد الذي يعرفني كما أنا، يعرف كل تفاصيل حياتي، يعرف حقيقتي وخطيئتي، ويسامحني من دون مشكلات.

لا أستطيع تحمل فقدانك، أرجوك اظهر وطمئنّي عليك.

حياة.

كنت أريد أن أقص عليه الحلم الغريب، الدماء التي لا أعرف مصدرها، والتي لا تزال تغطي البساط الصغير، سعود هو الوحيد، الذي أستطيع أن أحكي له كل شيء، من دون مشكلات، لكنه على عكس تيو، يستمع فقط، يستمع ولا يتحدث كثيرًا.

صوت التنبيه بورود رسالة جديدة، أفتحها بسرعة لأجد رسالته العزيزة.

عزيزتي حياة.

اشتقت إليك كثيرًا، لم أختف فعلا، لكنك تصرين على استمرار إغلاق حسابك على فيسبوك، لو كنت هناك لعرفت أنني متاح دائمًا، ولعرفت أيضا أنني كنت مشغولاً في خطبتي.

نعم لقد خطبت، فتاة جميلة مثلك، رقيقة تذكرني بك، هاجر، أعتقد أنك ستحبينها كثيرًا، أمس كنت أحدثها عنك، بحثت كثيرًا عن صورة لنا معًا ولم أجد، اكتشفت أننا لم نلتقط ولا صورة واحدة تجمعنا، اكتفيت بصورك الحمقاء التي التقطتها لك في مكتبة مول دبي عام ٢٠١١، أعتقد أن شكلك تغير الآن، لم أرك منذ متى؟ عام ونصف؟

بالتأكيد لم أتوقف عن الحديث معك، بسبب كلامك الخائب في الرسالة الماضية، أنت تعلمين جيدًا أنني على عكسك، أؤمن بالكثير من الأشياء على رأسها الحرية، يمكنك الحديث معي في كل ما ترغبين به، إن كنت لا أعلق، فلأنني لا أعرف فعلاً ماذا أقول، أنا فقط حزين عليك.

الإيمان هو العنصر الوحيد، اللازم لاستمرار الحياة، من دونه نحن مجموعة من «الزومبي» بلا أمل، ما الذي يفرق بيننا، وبين الميتين في القبور برأيك؟ نحن نملك إيمانًا بأن غدًا قادم، إيمانًا بالعدل، بالخير، بالحياة،

الإيمان بالدين، هو جزء واحد من الإيمان بشكل عام، ولا أتحدث عنه تحديدًا، لكنك تعرفين جيدًا أن الدين نفسه وُضِع لاستمرار الحياة، أنا الآن أشعر أكثر من ذي قبل، أنك غير راغبة في الاستمرار، في المحاولة، كل حديثنا الماضي عن التمسك بالحياة وانتظار الأفضل ذهب إلى غير عودة.

هذه صورتي أنا وهاجر في الحفل، كان حفلا بسيطا على رغبتي، لكنه كان ينقصك بكل تأكيد، أتمنى لو تتمكني من القدوم إلى العرس، لن يتم قبل عام أو أكثر على كل الأحوال، سأكون قد أنهيت رسالة الماجستير، وهي أيضا ستكون قد انتهت من الجامعة، هي مثلك درست الصيدلة.

سعود.

أعيد قراءة الرسالة عشرات المرات، هكذا سعود، يلخص الأمر كله ببساطة وسرعة، يشعرني أني حمقاء كبيرة، وملكة دراما متوجة، أتأمل صورة سعود وهاجر، يبدوان سعيدين جدًا، مبتسمين للكاميرا، جميلة فعلاً، ترتدي فستانًا بسيطًا وغطاء رأس، تدمع عيناي من دون أن أدرك، أتذكر كلمته عن أننا لا نملك ولا صورة واحدة معًا، أبحث في ملفات الحاسوب عن أي صورة لأكتشف صدقه، كيف نسيت أن ألتقط ولو صورة معه؟ هناك صور له وحده، صور لي وحدي، أعيد تأمل ملفات الصور، أكتشف أنني لا أملك أي صورة مع أي شخص، لا سعود، لا ريم، لا يانج شين، ولا خالد، حتى أمي وأبي لا أملك سوى صور طفولتي معهما.

أشعر بعدم القدرة على الرد الآن، لو كنت أملك حسابًا على فيسبوك،

لكنت تركت له تعليقًا بسيطًا وصورة مضحكة، لهذا السبب بالذات أنا أكره فيسبوك، وأرفض العودة إليه من جديد، متى تحولت كل المشاعر الإنسانية، لمجرد عدة كلمات في التعليقات، وإبداء الإعجاب البارد السطحي، حتى التعامل بالكتابة يثير أعصابي، لا أعرف إن كان من يحدثني غاضبا أو سعيدا، يصيح فيّ أو يتجاهلني؟

الهاتف يرن، تيو يعرض على المرور لاصطحابي إلى إيتوان، السهر في مكان ما، تجتمع فيه الجالية الهولندية، وبعض الأمريكيين.

ـ اسمها من دون كيشوت.

أضحك، وأسأله، تمجيدًا لهذا المحارب الأحمق؟

ـ ليس أحمقا على فكرة، محارب نبيل.

ـ يحارب طواحين الهواء؟

ـ يحارب كل شر في نظره، حتى لو كان طواحين الهواء.

ـ يمكنه التوجه لمحاربة الأشرار الحقيقيين، بدلاً من تضييع وقته في هذا الهراء.

ـ أنت جاهلة يا عزيزتي لم عليّ مناقشتك؟ ربما سأشرح لك القصة في طريقنا، بعد ساعة؟

ـ حسنًا.

أنهض لأرتدي ملابسي، سترة خفيفة وسروال من الجينز، لا أنسى المظلة تحسبًا للمشي بعض الوقت في إيتوان، إن لم نجد مكانًا مناسبًا وقريبًا لترك السيارة.

أقرر النزول والانتظار في المقهى، أفضل من الجلوس في الظلام، والصمت وحدي.

المقهى فارغ الآن، يانج شين وكيم، جالسان في رومانسية وراء الزجاج، يتأملان المطر، يتعامل الاثنان في علاقتهما، كما يرونها في الأفلام الكورية الرقيقة بالضبط، الطبيعة تقلد الفنان، لذا يجب عليهما الجلوس، وتأمل المطر الآن، مثلما يفعل البطلان في المسلسل أو الفيلم.

تراني يانج شين من وراء الزجاج، فتبتسم وتشنك أنفها، تشير إليّ بالدخول.

ـ أنيوهاسيو مستر كيم.

ينهض واقفًا، ليرد التحية كما يجب عليه، احترامًا لكوني امرأة، يدعوني للجلوس، في حين تتجه يانج شين لصب بعض القهوة لي.

ـ كيف حالكما في هذا المطر.

ـ سعيدان كالقطط الصغيرة.

ـ أبتسم، أحبهما كثيرًا، يعمل كيم معلمًا للأطفال في مدرسة قريبة، لطيف وطيب للغاية، يرتدي نظارة طبية وقمصانًا كلاسيكية مع السراويل القماشية، يبدو على عكس الكوريين أكبر من سنه، في حين تبدو يانج شين بجواره كابنته، تجلس معنا، ويبدآن في النقاش المحتدم الدائم، حول خططهما لعطلة نهاية الأسبوع، تريد يانج شين السفر خارج البلاد، أما هو فيريد أن يتوجّها لأي فندق قريب، لقضاء العطلة معًا في هدوء.

يانج شين تعيش مع أهلها إلى الآن، ويعيش كيم أيضا مع أهله، رغم عمرهما فإن الكوريين مثل معظم المصريين والعرب، لا يستقلون عن بيت ذويهم، إلا بعد الزواج.

أقول لكيم، ماذا لو تسافران خارج البلاد، وتقضيان العطلة في فندق هادئ معًا؟

تنظر إليّ يانج شين بانبهار، وكأني وجدت التائهة، أحب طيبتهما الدائمة، هما ليسا غبيين، على العكس، لكنهما مثل باقي الكوريين، يلتزمون بقوالب محددة سلفًا، من دون أن يحاولا تغييرها، القواعد تقول إن السفر إلى جزيرة جيجو، يتطلب منهما تأجير كوخ على المحيط، وقضاء الوقت في التمشية والشاطئ والسهر، ماذا لو قضيا الوقت في الاسترخاء في فندق نظيف ومريح، يطل على منظر جميل، لإرضاء جميع الأطراف؟

يبدو أن تيو لمحني جالسة من وراء الزجاج، فاتجه بدوره إلى المقهى.

ـ أنيوهاسيو

يردون عليه بنفس التحية، تنهض يانج شين، معتقدة بأنه زبون جديد، لكني أشير له قائلة: تيو جودفريد، زميلي في العمل.

ـ مرحبا سيدي، تقول يانج شين بإنجليزيتها المضحكة.

أقدم له يانج شين وكيم، فيصافحهما باحترام، يدعواه للجلوس معنا.

يجلس بالفعل، وهو ينظر إليّ مبتسمًا.

ـ أردت انتظارك بالأسفل.

ـ لا مشكلة، هل تودين الذهاب الآن؟

ـ سأنهي قهوتي ونذهب.

تحضر يانج شين لتيو بعض القهوة المعدة سلفًا، يتناولها ويشكرها بالكورية.

يتحدث مع كيم حول العمل، وأفكار عطلة نهاية الأسبوع، بينما تهمس يانج شين في أذني، هل هذا هو السيد؟

أومئ برأسي فتبتسم بسعادة، بالنسبة لها يبدو تيو كنجوم السينما الأمريكية، بشعره الأشقر وعينيه الزرقاوين.

ـ جميل جدًا حياة، يجب أن تتزوجيه.

أضحك بصوت عالٍ، فينظر تيو لي متسائلاً، فأقول: لا شيء، ربما ينبغي علينا الذهاب الآن، قبل أن تشاركنا يانج شين أفكارها بصوت مسموع.

الشارع في إيتوان مزدحم جدًا، الجاليات الأجنبية كلها تجتمع هناك، مطاعم وحانات أمريكية الطابع، مطاعم عربية وتركية وهندية للأكل الحلال، حانات بالطابع الألماني، البريطاني، الفرنسي، الياباني، بيوت الدعارة المضيئة المتاحة للجميع، أمامها تقف ملكات الليل بكامل زينتهن، أنظر إليهن فيبتسمون لي، أبادلهن الابتسام، كنت أحب مظهرهن وحركتهن الدائمة، هناك الكثير من المتحولين منهن، رجال بهيئة نساء أكاد لا أميز بين هذا وذاك، لكن تيو ينظر بطرف عينيه ويلكزني، فأبتسم.

كان يعتقد أنني أعارض المثلية، لكنني أوضحت له بدقة، أنني لا أعارض أي إنسان، مهما كان شكله أو لونه أو جنسه أو اختياراته.

ـ كنت أعتقد أن العرب جميعًا عنصريون.

ـ في الغالب هم فعلاً كذلك، لكن ليس العرب فقط يا عزيزي، الإنسان بطبعه عنصري جدًا، لطالما عذب الهولنديون السكان الأصليين في جنوب إفريقيا، أمريكا ومعاملتها للأفارقة والملونين، كل الدعايات الفارغة في الأفلام، حول كون الأسود والملون والمثلي والمحجبة أصدقاء

البطل الأعزاء، هي في الواقع بروباجندا فارغة، أنت تعلم ذلك مثلي وأكثر.

ـ أعتقد أنك محقة في ذلك، أنا نفسي أشعر في بعض الأحيان بعدم قدرتي على التعامل مع أشخاص بعينهم، مختلفون عني، قد أحدثهم، أحبيهم لكن هناك جانبًا ما فيّ يرفض الاقتراب منهم، أنا شخصيًا لن أستطيع التعامل مع متحول كهذا الرجل، ـ يشير لواحد من ملوك الليل على جانب الطريق ـ من دون قلق ورهبة، وكأنني لمست ثعبانًا.

ـ أنا أفهم ما تقول، في مصر ينشأ الجميع على كراهية المختلفين، كنت أعاني في طفولتي بسبب حبي للقراءة، وبأنني أرتدي نظارة طبية، أطلقوا عليّ لقب سُقراط، كنت في الواقع مزحة الفصل، لكنني لم أبالي، عكس جيلان المسكينة، التي كانت تجلس خلفي، كانت طفلة قروية فقيرة ويتيمة، هذه تهم لا تغتفر لدى الأطفال، لم يحدثها أحد سواي، لم يجلس بجوارها أحد حتى أنا، لم يرض أي شخص أن يعيرها قلمًا أو ممحاة، إلا أنا أحيانا، أتساءل اليوم عن مصيرها، كيف كبرت، هل لا تزال تحمل أي شعور بالحب نحو هذا العالم؟

دائمًا كنت أسمع عبارة، لا نأكل في بيت مسيحي، سمعت سيدة ناضجة، تؤكد أن القس يبصق في طعام المسيحيين طلبًا للبركة.

يضحك تيو فأضحك أنا أيضًا، أتذكر العديد من المواقف العجيبة من طفولتي، الأغرب أنني أريد قصها عليه جميعًا، أريد أن أحدثه كثيرًا إلى الصباح، الحديث بيننا سهل وممتع، ورغم اختلاف أفكارنا، إلا أننا نبدو متفاهمين تمامًا.

نصل إلى حانة «دون كيشوت»، فيفتح لي الباب داعيًا إياي إلى الدخول.

كان المكان دافئًا ومنظمًا، على عكس الحانات الأخرى في إيتوان، موسيقى هادئة كلاسيكية، ورجال يبدون جميعًا كالأمراء مثل تيو، الهولنديون متشابهون جدًا، أقول له، فيندهش.

ـ هل تقولين إنني أشبه هذا القبيح مثلاً؟ يقولها وهو يربت على ظهر رجل جالس على البار، القبيح كان رجلاً وسيمًا جدًا، يرتدي قميصًا أبيضَ وسروالاً من الجينز، يعرفني عليه.

ـ آدم بريشت، صديق الاغتراب الوغد، والمستشار الثقافي بسفارتنا هنا.

ـ سعدت بمعرفتك.

ـ حياة توفيق، محررة مصرية، تعمل معي في نفس الوكالة البائسة للأخبار.

ـ أهلا، أعتقد أن عملكما هو الأصعب اليوم، تضطران لمتابعة كل التفاصيل الوحشية المزعجة.

ـ العالم بالفعل قاس جدًا

ـ نعم، بكل تأكيد، أحيانا أشعر أنني في أفضل الأماكن هنا، بلد بعيدة نوعا عما يحدث، أتفرغ لنشاطات ثقافية مختلفة، في الحقيقة أنا لا أجد ما أفعله بشكل كبير، لكنها ربما تكون استراحة المحارب، ينظر غامزا لتيو فيفسر لي.

ـ آدم عمل لفترة طويلة، في العديد من الأماكن المضطربة، آخرها ليبيا، وقبلها جنوب إفريقيا، وحتى إسرائيل.

ـ آه، بالتأكيد الأجواء هنا ألطف كثيرًا.

يستأذن تيو متوجها إلى البار، يطلب لنفسه زجاجة بيرة مثلجة، ولي عصير برتقال، يضعه أمامي فأشكره.

لا تشربين؟ يسأل آدم.

ـ لا.

ـ هذا أفضل بالتأكيد.

ـ أعتقد أن تيو لا يوافقك الرأي.

ـ عذرًا لكنكما، ثنائي؟

لا أرد، أنتظر الإجابة من تيو، الذي يشعر بالإحراج من رد فعلي، بعد لحظتين يجد الرد المثالي، فينظر إليّ ويقول: أتمنى.

ابتسمت له ممتنة، كان يعلم أنني سأشعر بالقلق، لو أجاب بنعم، كما لن أتغلب على شعوري بالضيق، لو قال: لا، بعدما قضينا يومًا كاملاً معا.

أنظر إليه بنظرة جديدة، أشعر أنه قريب للغاية، لماذا تقترب مني يا أحمق إلى هذا الحد؟ أنا مجنونة، مختلة، متوحدة وكئيبة.

اقتربت من المائدة فتاة شقراء، كانت تبتسم لآدم فعرفت أنها في طريقها إلى مائدتنا.

ـ مرحبا آدم، تيو.

انحنت لتقبلهما على وجنتيهما، ثم اختارت المقعد المجاور لآدم.

ـ آنا، أمريكية تعمل في شركة هونداي هنا.

ـ أهلا.

يعيد تيو تعريفي بآنا، تبدو لطيفة وجميلة فعلاً، جمال مبهر ساطع، أشعر معه أن عيني تحترقان، يبدو أنها تعرفهما منذ زمن، ربما منذ بداية قدوم كل منهما إلى كوريا.

يستغرق الثلاثة في الحديث الضاحك، لا أعرف عما يتحدثون فعلاً، فأكتفي بالصمت والمراقبة.

الحقيقة أنني لا أمانع ولا أشعر بالضيق، أحب الجلوس وحيدة وصامتة، من دون الحاجة إلى الكثير من الحديث، لكن تيو يعتقد أن صمتي نابع عن إحساسي بأنه ليس لي مكان، فيميل عليّ عارضًا أن نتجه معًا للساحة الفارغة، في منتصف الحانة للرقص.

ـ بالطبع لا، أنا لا أرقص.

ـ لم؟

ـ لا أجيده ولا أحبه.

ـ أعطني الفرصة، ربما غيرت رأيك، أنا لا أجيده أيضًا، هو فقط وسيلة، تسمح لي بتطويقك الآن أمام الجميع، ووسط المكان.

أبتسم، وأشعر بلذة الفخر بالمغازلة، خاصة أمام آنا، أعطيه يدي وأنهض، لا أحد يرقص في المكان سوانا، بالتأكيد نبدو كأحمقين، يتظاهران بالرومانسية كما يرونها في الأفلام.

ـ تيو نحن أحمقان جدًا، لا أحد يرقص سوانا.

ـ وماذا في ذلك؟ لا تهتمِّ بمن حولنا، في الواقع لا أحد يهتم.

كان يضمني إليه في رقة بالغة، أشعر بالسعادة في حضنه، وأحب رائحته جدًا، رائحته التي هي مزيج من جيل الحلاقة، وعطر رجولي قوي لا أعرفه.

ـ ما اسم عطرك؟

ـ لمَ؟ هل ستحضرين لي هدية؟

ـ ربما.

ـ توم فورد نوار.

أحبه كثيرًا، فعلاً.

ـ وأنت، لماذا تضعين عطرًا رجاليًا؟

ـ ماذا؟

ـ هوجو بوس، لماذا تضعينه دومًا؟

ـ ليس هذا من شأنك.

ـ بالطبع، لكن ألا تعتقدين أن الأمر غريب بعض الشيء.

ـ لمَ؟ أنا أحب العطور الرجالية، إن لم تكن تحبه، فلا داعي لأن تقترب مني.

ـ حياة لا تكوني طفلة، الأمر فقط يدفع للتساؤل، أعتقد أنه يذكرك بشخص عزيز أليس كذلك؟

ـ لا، لا يذكرني بأي شخص أنا أحبه فقط، أحب رائحته.

ـ حسنا لا مشكلة، أنا أحب رائحته أيضًا، ربما يمكننا أن نضعه معًا.

يبتسم فيدفعني للابتسام، يضمني إليه قليلاً، أظل صامتة، أفكر في كلامه، اكتشفت الآن فقط، أنني أبتاع هوجو بوس، وأغرق به جسدي كل ليلة، أستنشق خالد وعبيره ورائحته، الرائحة دومًا ما تستحضر

الذكريات، الرائحة دومًا ما تجسد الغائب، أريدك أن تظل حيًا في عالمي، وكأنك طيف هائم حولي، هل تذكرني؟ هل تتذكر عطري القديم الذي كنت تحبه؟ هل تبتاعه مثلي لتستنشقني، لتفسح لي مجالاً في عالمك؟ هل تذكر اسمه أصلاً؟

ـ مس ديور.

ـ ماذا؟

ـ كنت أضع قبل ذلك عطر مس ديور.

ـ أحبه كثيرًا.

ـ كيف تعرفه؟

ـ أعرف رائحته جيدًا، تملأ منزلنا، أختي الصغرى لا تستخدم سواه.

ـ لديك أخت؟

ـ ثلاثة.

ـ لا أملك أي إخوة.

ـ هذا حزين جدًا، عليك أن تنجبي نصف دستة إذن.

جملته أحدثت طنينا ثقيلا في أذني، يبدو أن شفتيّ ارتعشتا من دون أن أشعر، البرودة التي انبعثت من رأسي إلى أخمص قدميّ، جعلته يعقد حاجبيه، متسائلا.

ـ هل قلت شيئا؟

ـ لا، لكن يجب أن أذهب الآن.

ـ ابقِ أرجوك، أنا آسف إن كنت أزعجتك.

ـ لم تزعجني، لكني متعبة وأريد أن أرحل، يمكنك البقاء سآخذ أي سيارة أجرة، البيت قريب على كل حال.

يبتسم لي ويضمني قليلاً، يقبلني جوار أذني برقة فأرتعش.

ـ ماذا تفعل؟

ـ أقنعك بالعودة معي إلى المنزل.

ـ لا أستطيع فعلاً، أنا مرهقة جدًا، وغدًا عمل.

ـ يمكننا الذهاب إلى العمل معًا.

ـ أقسم لك إني مرهقة.

ـ إذن سأعرض عليك عرضا لا يمكن رفضه.

ـ ما هو؟

ـ نعود إلى المنزل، أعد لك وجبة عشاء مثالية من الأومليت والخبز وبعض الشاي الإنجليزي الفاخر، ثم أمنحك مساجا رائعًا لقدميك، وأتركك تنامين في سلام.

ـ يا سلام، أقولها بالعربية فيسألني بعدم فهم.

ـ ماذا؟

ـ لا أصدقك صراحة.

ـ أعدك بشرفي، جربيني.

كان يبدو مقنعًا جدًا، كما كانت فكرة العودة إلى المنزل الكئيب اليوم

تثير ضيقي، لا أزال أشعر بالاختناق، بعد زيارة أطفال الغوطة لي أمس، أتذكر شكل البساط الغارق في الدماء، والذي لا يزال ينتظرني هناك، فأهز رأسي موافقة بسرعة.

يصحبني تيو إلى المائدة لالتقاط حقيبتي ومفاتيحه، ويلقي التحية على آدم وآنا، تنظر لنا آنا نظرة صفراء ونحن مغادران، ألاحظها طبعا، فأساله عنها في السيارة فلا يفهم سؤالي.

ـ أعني هل بينكما شيء؟ إعجاب، استلطاف؟

ـ ربما مرت عدة مغازلات عابرة، لكني لا أذكر أكثر من ذلك، أعتقد أنها وآدم على علاقة ما.

ـ لكنها لم تتوقف عن النظر إليك الليلة.

ـ لأنني فاتن يا عزيزتي.

أبتسم له فيسأل، هل تشعرين بالغيرة؟

ـ بالطبع لا.

ـ لماذا تسألين إذن؟

ـ أنت على حق طبعا، لماذا أسأل.

ـ لا أقصد، يمكنك أن تسأليني عما تشائين، يداعب شعري بيده اليمنى، من دون أن ينظر نحوي، أنظر إليه أنا في الظلام، وجهه المريح، وشعره المصفوف على جانب واحد إلى الأمام، مبعثر قليلاً، وخفيف بعض الشيء، ربما سيمتد الصلع إلى منتصف رأسه بعد عدة أعوام، كان لطيفًا جدًا، وأنا أخاف من اللطفاء الودودين، أخاف كثيرًا من اللطفاء الودودين.

القاهرة ٢٠١١

لماذا أمطرت الدنيا في أبريل؟

لا أعرف ولن أعرف أبدًا، كنت أسير تحت القطرات المتساقطة بغزارة مع ريم، في طريقنا نحو مدخل الفندق الفاخر، الذي يقيم فيه خالد زفافه.

أنظر إليها ويرتعش جانب فمي، فتضغط بيدها على يدي بقوة.

ـ إن كنت لا تقوين على الدخول، يمكننا المغادرة فورًا.

أهز رأسي رافضة، فمي جاف للغاية، وحلقي يبدو وكأنه متورم، لا أستطيع ابتلاع ريقي، أو التحدث أو التفكير، نقترب أكثر من القاعة الواقعة في الطابق الأول، أسمع الموسيقى الصاخبة لأغاني لا أعرفها، لكني متأكدة أنها لا تناسب ذوق خالد، وأرى الأضواء الملونة المتراقصة تسطع من الداخل.

أقترب أكثر، أتجاوز باب القاعة، أنظر حولي وريم تلوح لأحمد، الجالس على مائدة بعيدة، تنظر إليّ فأخبرها بأنها يمكنها الذهاب.

كان الزحام شديدًا، أحاول أن أتحرك بهدوء، من دون أن يلاحظني أحد، أحاول البحث في الوجوه عن عائلة خالد التي لم أعرفها، وجه والدته، أخواته، أقاربه، أرفع عيني إلى حيث يجلس العروسان، فأراه

جالسًا في صمت، مبتعدًا بشبرين عن عروسه، يبدو وكأنه يشاهد التلفاز على أريكة منزلهم.

أحاول النظر إلى وجه العروس، أدقق في ملامحها، لكنها تذوب تمامًا أمام عيني، لا أذكر أي تفصيلة من تفاصيلها، لا أذكر أي شيء، كان عقلي مصممًا على عدم التذكر، على استبعاد وجودها الحقيقي في عالمي، وكأنها خيالية، وكأنها غير موجودة، ربما كانت آلية دفاع، تجعلني قادرة أكثر على الاستمرار والعيش.

يرفع خالد عينيه باتجاهي، لكنه لا يراني، يبدو وكأنه ينظر إلى عالم آخر، لا علاقة له بالقاعة المظلمة، ولا الموسيقى الصاخبة، ولا رقص المدعوين الهيستيري أمامه، ولا بأي شيء.

أثبت عيني على وجهه قليلاً، أحاول جاهدة منع الدموع، من أن تسقط على وجهي، أقاومها وأعيدها بقوة إلى داخل مقلتيّ، ستهبط فورًا إلى حلقي لتزيد من مرارته.

لا أستطيع التحمل أكثر من ذلك، أجر خطواتي إلى خارج القاعة، كان جسمي ثقيلاً جدًا، أتحسس بطني المنتفخ قليلاً، وأعض على شفتي السفلى، يرتعش جسمي، لكني أصمم على العودة إلى المنزل، والانتهاء من كل شيء، كما خططت له تمامًا.

اكتشفت أنني حامل في منتصف مارس، كنت أشعر بالتوتر والحزن والاكتئاب، لدرجة أفقدتني حتى ملاحظة تأخر دورتي الشهرية، أجلس وحدي في الوحدة الصحية، وأشعر بتقلصات حادة أسفل بطني، لكنها لم تكن تقلصات الدورة الطبيعية.

أنهض من دون كلمة، ومن دون دهشة لأجلب اختبار حمل من المخزن، أعود إلى الحمام وأنتظر نتيجته بهدوء، وكأنني أتابع مشاهد من حياة امرأة أخرى سواي.

كان الخطان الأزرقان يظهران بوضوح أمام عيني، نظرت إليهما لحظات ثم أعدت غلقه ووضعه في الحقيبة.

في نهاية اليوم، حضرت دفتر الروشتات، كتبت ببطء وبخط واضح وثابت، ميسوبروستول، أقراص.

أتناول علبتين من الرف خلفي، أتوجه لنهاية الوحدة، وأجلب علبتين من الفوط الصحية الضخمة الخاصة بالنفاس، أضعها في حقيبة بلاستيكية سوداء، وأغادر.

في المنزل، أضع الحقيبة على السرير بهدوء، أفتح الدرج الخاص بأمي، وأتناول خاتمها الذهبي الذي ظلت ترتديه لآخر يوم في عمرها، أضعه بهدوء في يدي اليسرى، أقف أمام المرآة، وألف طرحة سوداء من خزانتها حول رأسي، أعقدها بروتينية رغم أني غير محجبة، أبدو قريبة الشبه جدًا منها، أنظر لحظة لشكلي، الذي يبدو غريبًا وغير مألوف، ثم أغادر المنزل.

أختار مدينة نصر، للبحث عن طبيب نساء مناسب، مكان بعيد لا يعرفني فيه أحد، أفتش في لافتات العمارات عن أي عيادة، أقرر الصعود عند أول اسم أقابله، لحسن حظي كانت فارغة إلا من قليل، أسجل اسمي مع لقب مختلف، وأجلس محاولة التظاهر بالهدوء.

كان الفحص روتينيًا، أخبرته أن زوجي يعمل في السعودية، وأنني سأضطر إلى اللحاق به بعد أسابيع، علمت أنني حامل، وجئت لأعرف أن كان يمكنني الصعود إلى الطائرة.

أرقدني الطبيب على الفراش، وقام بعمل فحص الموجات الصوتية الطبيعي، أشار لنقطة صغيرة مبتسمًا، وهو يقول هذا طفلك، كنت أبتلع ريقي بصعوبة، لم أستطيع أن أنظر، أومأت برأسي ليناولني الصورة الصغيرة بالأبيض والأسود، أخفيتها بسرعة في حقيبة يدي.

كان الطبيب البشوش يتحدث، وأنا نصف مستمعة، يوصيني بالراحة وبالفوليك آسيد، ويصف بعض الأدوية والفيتامينات المعتادة، أشكره وأغادر بسرعة، ألقي نفسي في أول سيارة أجرة، لأسرع إلى البيت، لأختفي في البيت.

ما الذي دفعني للانتظار كل هذا إلى يوم زفافه؟ لماذا لم أبتلع الأقراص في ليلتها وأنا في البداية؟ لا أعرف، لماذا لم أخبره؟ لا أعرف، لماذا صممت على الذهاب إلى الطبيب، والاحتفاظ بصورة السونار؟ لا أعرف.

ربما شعرت بعدم الجدوى، ربما كنت مغيبة فعلاً، كنت فاقدة الإحساس بالحياة من حولي، بالزمن، بالألم، بالحزن حتى، كنت مثل الزومبي، ميتة حية، أعيش، أتنفس، أتحرك من دون شعور.

هل كنت أعتقد أن هناك أملا ما في عودته؟ هل كنت أفكر أنه سينظر إلى عروسه ليلة زفافهما ويقول: آسف، أنا أحب امرأة أخرى، ويهرع إلى منزلي؟ هل كنت أتوقع نهاية سعيدة مثل الأفلام؟ لا أعرف.

كل ما أذكره يا آدم، أنني عدت من زفاف خالد، ليلة ٢٥ أبريل، وتمددت على الأرض ساندة ظهري إلى الأريكة، أتناول الأقراص بكميات كبيرة من الماء وأنتظر، أنتظر النزيف الذي أعرف أنه سيكون مؤلمًا جدًا، أضم المعطف الثقيل الخاص بأمي حول جسدي رغم الحرارة الشديدة، وأرتعش، من رأسي إلى قدميّ.

أرتعش وأنتفض وأهلوس، إلى اليوم، وأنا أرتعش وأنتفض وأهلوس، ليلة ٢٥ أبريل من كل عام، أعيد تذكر الوضع الدراماتيكي الداكن، الظلام في البيت الضخم المهجور، النزيف الذي يتسلل من الفوطة الصحية السميكة، التي أبدلها كل نصف ساعة من دون جدوى، يسيل الدم على فخذيَّ، على ساقي، يصل إلى كاحلي، أسقط على الأرض فتتسع بقعة الدماء على

السجادة، أرقد على بطني ساعة، ساعتين، ثلاث ساعات؟ لا أشعر بشيء، لا أستطيع التفكير، أرفع كفي أمام عيني فأراهما بيضاوين ناصعين كيد موسى، ألمح الثعابين تتلوى حولي على الأرض، وكائن مظلم يجلس بعيدًا ينظر إلي، أتأوه بصوت عالٍ، فلا يحرك ساكنًا.

أمي تجلس على المقعد المقابل، تنظر إليّ بحزن، تقول: حياة، لا تبكي.

ترفع ذراعيها أمامي، تحمل طفلاً عاريًا يحاول التملص منها، تضمه وتهدهده، أسمعها تغني له، كما كانت تغني لي.

يلا ننام، يلا ننام، يلا يلا يلا ننام.

تطيل المد في الكلمة الأخيرة، فأشعر بعيني تتثاقلان، أحاول المقاومة بلا جدوى، وهي لا تزال تهدهد الطفل.

أهمس، كفَى ماما، لا أريد النوم.

لكنها لا تستمع إلي، تحتضن الطفل النائم في سلام على كتفها، تدير ظهرها إلي وتبتعد، تلتفت من جديد وتضحك، تختفي داخل الجدار المظلم أمامي، فأعيد محاولاتي للزحف والوصول إلى الهاتف.

أنجح في الضغط على اسم ريم أخيرا، ترد بصوت ناعس، أقول: أرجو أن تأتي إلي الآن، ريم، أعتقد أنني أموت.

لا أكمل الكلمة، أسقط الهاتف من يدي، وأفشل في مقاومة النعاس الثقيل، أنام كثيرًا جدًا، أشعر بالزمن رغم أنني نائمة، أمشي في الظلام، أو أطفو، أو أسبح، الظلام ثقيل جدًا ذو ملمس، أشعر بالهمسات من حولي، أشعر بالمحاليل تنفذ إلى عروقي، أسمع صوت ريم تتحدث مع شخص آخر، لكنني نائمة فعلاً، نائمة في عالم مظلم رهيب وكابوسي.

لماذا أحكي لك هذه التفاصيل يا آدم، أنت تعرف أن الإجهاض ليس

عملية مسلية، خاصة عندما تنفذها حمقاء وحيدة في منزل فارغ مظلم مثلي.

حضرت ريم، وفتحت الباب بمفتاحها، الذي منحتها إياه منذ زيارتها الأخيرة، الغريب أنني كنت أتوقع كل شيء، كنت أعرف أنني سأفشل في استكمال الأمر وحدي إلى النهاية، وسأفشل حتى في الاستسلام للموت، من دون محاولة أخيرة لإنقاذ حياتي، لذا وضعت الهاتف على الأريكة حيث يمكنني التقاطه، ولهذا أعطيت ريم المفتاح، من دون أن أخبرها شيئًا، لم تعرف المسكينة أنني حامل حتى يومها، لأنني كنت متأكدة أنها ستذهب فورًا إلى خالد، وتطالبه بحل الأمر.

فتحت عيني على ريم تجلس بجوار الفراش، ومعها فتاة أخرى محجبة رقيقة الملامح، نظرت إليها فقالت: زميلتي في الكلية لا تقلقي.

تنظر إليّ الفتاة بشفقة فأمنحها نظرة مسطحة ميتة.

تهمس لريم، سأغادر، هي أفضل الآن، تتناول حقيبتها، تحاول الابتسام قائلة: سلامتك.

تنهض معها ريم لتوصيلها إلى باب المنزل، ثم تعود لي من جديد.

ـ أنت مجنونة، لماذا لم تخبريني؟

ـ ما الفارق؟

ـ الفارق أنني كنت سأساعدك، وكنا سننهي الموضوع بطريقة أبسط من ذلك.

ـ هل انتهى الأمر؟

ـ غالبًا نعم، لكن سيتحتم عليك إجراء بعض الأمور، يجب علينا زيارة طبيب مختص

ـ لن أفعل شيئًا، لا أهتم سوى بانتهاء الأمر.

ـ هذه الأمور هامة من أجلك، من أجل ألا تصابي بالالتهاب والعقم.

ـ لا أريد الإنجاب أصلاً.

ـ من المبكر جدا التحدث في الأمر، يجب أن تنامي الآن، أنا بالخارج سأجري بعض الاتصالات وأعود، لن أغادر.

أبتسم لها ممتنة، فتحاول سحب ابتسامة على شفتيها لكنها تفشل، أراهن أنها تغادر للبكاء قليلاً في الصالة، كان الأمر قويًا جدًا على أعصابها، أما أنا، فكنت أشعر أن كل هذا يحدث لشخص آخر غيري.

أستعيد صورة أمي وهي تحمل الطفل الباكي وتغني، كانت فتاة، بالتأكيد كانت فتاة، وكانت ابنتي، لكني قتلتها، أنا قتلتها ببساطة، ومن دون ذرة مشاعر، خططت للأمر منذ شهر ونصف، ونفذته فعلاً، أنا مجرمة، حقيرة، وربما كان عليّ الموت فعلاً معها.

جسمي يرتعش، أعيد تذكر ملامح الطفلة في يد أمي، أحاول التنفس، لكن نفسي ثقيل للغاية، أنتفض من جديد، فأشد الغطاء على رقبتي، أحتاج إلى أمي جدًا، أحتاج إلى أشخاص أكثر من حولي، أشعر أنني وحيدة، وهشة، وغبية، أشعر حتى بالخجل، تتصاعد حرارته إلى أذنيّ، أشعر أنني موصومة ومذنبة، أتذكر الله، فأرفع عيني إلى سقف الغرفة، هل تكرهني الآن؟ أم أنني أنا التي تكرهك؟ أين أنت، ولماذا تركتني؟

أبكي أخيرا، أبكي كثيرًا، ولا أتوقف بعدها عن البكاء.

سيول يناير ٢٠١٣

عزيزي سعود.

أخبرتني أنني سأندم على ابتعادي لآخر العالم، كما وصفت كوريا الجنوبية بعد ثلاثة أسابيع على الوصول، حسنًا، أكره أن تكون محقًا، لكنك كنت محقاً أكثر من اللازم، أنا شعرت بالندم بمجرد هبوط الطائرة الضخمة، بعد رحلة منهكة لمدة تسع ساعات ونصف، من دبي إلى سيول.

أنهيت أوراقي بسرعة، وخرجت لأجد مندوبًا من الشركة في انتظاري، كان مبتسمًا ينحني لي باحترام طيلة الوقت، لكنه نظر لملابسي بتعجب، ووقف دقيقتين ليفكر، ثم خلع معطفه الثقيل ومنحني إياه.

ـ أنصحك بارتدائه قبل أن نستعد للخروج، السيارة قريبة لكن، هل هذه أول زيارة لك إلى كوريا؟

ـ نعم.

ـ حسنًا ربما ينبغي علينا الذهاب، لتزويدك بما يلزمك للحياة هنا، لكن الآن دعيني أصحبك إلى الفندق، لتنالي قسطًا من الراحة.

لم أكن أعرف أنه محق لهذه الدرجة، إلا عندما غادرنا المطار، بمجرد خروجي من الباب الزجاجي حتى شعرت أنني دلفت إلى ثلاجة محكمة الإغلاق، كنا في يناير، والثلج يحيط بكل الموجودات، الثلج الذي

كنت أتمنى رؤيت،ه لم يكن كما توقعت، مبهجًا ناعمًا كما أراه في الأفلام الأمريكية، بل كان شاحبًا، ثقيلاً، يبدو كالكفن البرد، الذي لم أشعر يومًا بمثله يتسلل إلى عظامي، يجمد مقلتي عيني، حتى خصلات شعري تجمدت، شعرت أن أصابعي ستسقط فوضعتهما في جيوب المعطف فورًا، رئتاي أوشكتا على الانفجار بمجرد تنفسي كنت سأبكي، لكن السيد الذي علمت أن اسمه السيد سونق، دفعني دفعًا نحو السيارة الدافئة، فيها استعدت أنفاسي من جديد، لكن الألم الممض في رئتي ظل كما هو.

ـ سأمر عليك في المساء، لشراء بعض الاحتياجات، أما الآن، فأعتقد أن النوم هو أفضل شيء لك.

أوصلني الرجل إلى غرفتي في فندق هيلتون، كانت دافئة جدًا، الجدران والأرض ساخنتان بشكل لا يصدق، اكتشفت أن مواسير التدفئة، تسري في جميع جدران وأراضي المباني في كوريا، اتقاءً للبرد الشديد، خلعت ملابسي المتجمدة بسرعة واندسست تحت الغطاء الثقيل، ذهبت في النوم فورًا.

لم أستيقظ سوى على هاتف الغرفة، كان موظف الاستقبال يحاول جاهدًا التحدث بإنجليزية مفهومة، ليخبرني بأن السيد سونق ينتظرني في اللوبي.

نهضت متثاقلة، أحاول البحث عن ملابس مناسبة، ارتديت طبقات من الملابس وفوقها معطف السيد سونق، الذي أصر على أن أحتفظ به.

صحبني إلى مول ضخم جدًا، تخيل، أضخم من دبي مول الذي كنا نضل طريقنا فيه، ابتعت معطفين وقفازين لليدين، غطاء رأس ووشاح

صوفي ثقيل، كما أصر على أن أبتاع حذاء مبطنا خاصا للسير فوق الثلج، لم أعرف مدى أهميته، حتى كدت أسقط على ظهري، ونحن في طريقنا لمطعم كوري تقليدي على جانب الطريق، أسندني بذراعيه وساعدني على الدخول، أصر على الاحتفال بي، بتناول العشاء على الطريقة الكورية، خلعنا أحذيتنا على باب المطعم، وجلسنا على الأرض أمام الموائد المنخفضة، كان الطعام سيئًا جدًا، مأكولات بحرية كما طلبت، لكنها كانت حارة جدًا، غريبة جدًا، اكتفيت ببعض الأرز المسلوق مع السلطات، وشكرته بشدة.

صحبني السيد سونق بعدها للبحث عن سكن مناسب، كان بالفعل قد أعد قائمة بستة شقق، كلها متشابهة بشدة، فلم أعرف لم علي رؤيتهم جميعًا، لكني طلبت منه إن أمكن، الابتعاد عن ناطحات السحاب المرتفعة، أنت تعلم أنني أشعر بالعجز والتوتر في البنايات المرتفعة، كبنايتنا في دبي، فكر الرجل قليلاً ثم أجرى اتصالا سريعًا، واصطحبني إلى شارع جانبي هادئ، كانت هناك بناية حمراء قصيرة وسمينة، مقارنة بالمباني العملاقة المحيطة، صعدنا إلى الدور الثالث، لأستكشف المنزل، كانت شقة إستوديو تشبه الأخريات، لكن بطابع عام من القدم، لأن المبنى كان قديمًا، أعجبتني فورًا، أمامها مقهى صغير يبدو لطيفًا، أخبرني أن البناية لا تبعد كثيرًا عن منطقة الأجانب «إيتوان»، هناك سيمكنني العثور على المطاعم العربية والهندية والتركية الحلال، إلى جانب المطاعم الأمريكية والمتاجر التي تقدم البضائع المستوردة من الخارج، سعدت كثيرًا بالمعلومة، وعقدت العزم على الذهاب في أقرب فرصة.

أوصلني السيد سونق إلى الفندق من جديد، وأخبرني أنه سيشرف بنفسه على تحضير السكن وفرشه، لأتمكن من الانتقال في أقرب فرصة.

أكتب إليك الآن، وأنا أستعد للنوم، سأبدأ العمل فورًا في الصباح، أفتقدك وأفتقد كل شيء، ماذا أفعل هنا بالضبط يا سعود؟ لماذا لم تمنعني من المغادرة؟ لا أعرف.

سأكتب لك كل يوم.

محبتي.

حياة.

أرسلت الرسالة الطويلة وتهيَّأت للنوم، أخبرني السيد سونق، أن العمل سيبدأ فورًا في الصباح، أخبرني أن عملي سيكون أيضا في العلاقات العامة، شبيه بعمله الآن، سألتقي الوافدين خاصة من الأمريكيين والعرب لكن داخل الشركة، عمل بسيط لن يأخذ وقتًا طويلاً من اليوم.

كنت أشعر بالتوهان والتخبط، خاصة في الصباح، بعد توجهي إلى الشركة الضخمة للغاية، المباني المتراصة، أشعرتني بأنني سأتوه وأموت وأدفن في الداخل، لكن السيد سونق كان بانتظاري، صحبني في جولة سريعة في المبنى الذي سأعمل فيه، مكتب صغير في غرفة زجاجية منفصلة عن باقي المبنى، الذي كان ممتلئًا بالمكاتب الإدارية المتلاصقة لعشرات الموظفين، أخبرني أن عملي ينفصل عن عملهم تمامًا، وبأنه سيشرف شخصيًا على تدريبي حتى أستوعب كل شيء، وتركني على مكتبي الجديد وذهب.

كنت أجلس في صمت، يفصلني الزجاج عن صخب الموظفين، وحركتهم المستمرة في الخارج، شعرت أنني غبية جدًا وفاشلة، لن أتمكن من العمل بالطبع، وأنا لا أفهم حرفًا مما يدور حولي، مر عليّ بعض الموظفين، محاولين

الترحيب بي بإنجليزية ركيكة، شكرتهم وظللت جالسة منكمشة على نفسي، أفرك أصابع يدي، حتى حان موعد الانصراف.

استغرقت وقتًا طويلاً، لأجد طريقي إلى المصعد، في الأسفل كانت السيارة الخاصة في انتظاري، سألت السائق عن سر تخصيص سيارة خاصة لي، لكنه لم يفهم حرفًا، أوصلني إلى الفندق، وانحنى مودعًا ثم ذهب.

هرعت إلى غرفتي لأتفقد البريد الإلكتروني، كانت رسالة سعود تنتظرني، فتحتها بلهفة وكأنها ملاذي الآمن الوحيد، في هذه الغربة الموجعة المؤلمة.

الأعز حياة.

لماذا لم أمنعك من المغادرة؟ لأنك تحتاجين إلى الابتعاد قليلاً، هذا لا يعني أنني راضٍ تمامًا عن قرار سفرك لأخر العالم، لكنني أدعوك للصبر بعض الوقت، شعورك الحالي طبيعي ومتوقع، أنت في عالم غريب، بعيد، جديد، حتى اللغة تختلف، لو كنت في بلد أوروبي، لكان الوضع محتملاً بعض الشيء، فقدان القدرة على التواصل مع من حولك سيسبب لك شعورًا بعدم التوازن، لذا أنصحك بضرورة تعلم اللغة في أقرب وقت، يجب عليك أيضا زيارة منطقة الأجانب والتعرف على الجاليات العربية والاندماج معهم، سيمنحك هذا شعورًا ولو مؤقتًا بالراحة.

ما يمكنني أن أنصحك به، هو أن تستغلي هذه الفرصة، في التعرف على جزء جديد من العالم، أعددت لك قائمة بالأماكن السياحية في سيول، ربما تتمكني من زيارتها في العطلات، أريد أيضا أن أؤكد لك، أنك لست منفية أو محجوزة، يمكنك ترك كل شيء والتوجه فورًا إلى المطار والعودة إلى هنا، ستجدينني أنتظرك بفارغ الصبر.

محبتي.

سعود.

قرأت الرسالة عشرات المرات، تفحصت قائمة الأماكن السياحية التي أعدها لي هذا العزيز، منحتني كلماته بعض الراحة، خاصة فكرة أنني لست بسجينة، أملك القدرة على العودة في أي وقت لو أحببت، فكرت في ما قاله، وعقدت العزم على تعلم اللغة في أقرب فرصة.

كان الوضع يتحسن بالتأكيد، خاصة مع انتقالي للسكن الجديد المستقل، والتحاقي بمدرسة لتعليم الكورية بمساعدة السيد سونق، حتى العمل لم يكن يختلف كثيرًا عما كنت أفعله في دبي، تعاملي في معظمه كان مع الأجانب الناطقين بالإنجليزية، وأحيانا العربية أيضًا، كنت أتعلم ببطء التسكع وحدي، شراء الحاجيات، التعرف على زملاء العمل، توجهت مرتين لإيتوان لشراء بعض البضائع العربية، مثل الشاي والقهوة وبعض اللحوم المجمدة والخبز العربي، وبحثت كثيرًا عن مطعم مصري، حتى وجدت واحدًا على الشارع الرئيس في المنطقة.

كان المطعم مصممًا على الطراز الحديث، لكن الطابع العام المصري لم يغب عن العين، كان الموظفون كوريين لكن المالك مصريًا، استقبلني بنفسه، ودعاني للجلوس بمرح، أخبرني كريم أنه يسعد برؤية المصريين، لا يأتون سوى في المناسبات، وتجمعات الجالية، لأن معظمهم يعيشون في بلد آخر، على بعد ساعة ونصف يدعى إنشن، بلد ساحلي مناسب لعمل معظمهم، في تصدير السيارات إلى البلاد العربية، مصر وسوريا وليبيا خاصة.

كان الطعام لذيذًا، بعد أسابيع من الطعام الكوري البشع الحار، عرض علي كريم توصيلي بنفسه إلى المنزل، لكني رفضت شاكرة، حملت حقائبي الكثيرة من جولتي الناجحة في المنطقة وعدت إلى منزلي الدافئ.

لم تكن سيول سيئة جدًا، هذا ما أخبرت به سعود في رسائلي التالية،

كانت لغتي تتحسن باستمرار، وعملي يسير بشكل روتيني رتيب بلا مشكلات، تأقلمت على الحياة وحدي، والصمت المستمر طيلة الوقت، كنت أراسل سعود وريم، أتصفح الأخبار على فيسبوك، أذهب للقاءات الجالية المصرية في مطعم كريم أحيانا، لكني لم أتأقلم كثيرًا معهم، كانوا يتحدثون دائمًا في السياسة والوضع غير المستقر في مصر، لم أكن أشارك سوى بإيماءات مبهمة، ثم أعتذر مُغادرة بسرعة، كانت حياة التفرد والوحدة تناسبني، لكنها بالتأكيد كانت تقودني أيضا إلى المزيد من الاكتئاب والجنون.

سيول ٢٠١٣

عزيزتي ريم.

أفتقدك دائمًا وبشدة، اكتشفت أننا لا نتراسل كثيرًا، ونكتفي بالمزاح والتعليقات ومبادلة الصور على فيسبوك، لكني اليوم شعرت أنني أريد أن أقص عليك تفاصيل يومي في سيول، اليوم الأحد، عطلتي من العمل، قررت النزول والتسكع قليلاً حول المنزل، ربما زيارة المقهى الصغير أمام البناية، الذي لفت انتباهي منذ اليوم الأول.

بالداخل، كان المكان يبدو وكأنه، فصل من فصول حضانات الأطفال، كراسٍ ملونة، وموائد بيضاء عليها أصص من الزرع الطبيعي، دمًى وعرائس وأجراس معلقة في السقف، وخلف البار كانت فتاة كورية مبتسمة، أقرب للدمية هي الأخرى، حيّتني وهي تنحني وسألتني عما أريد.

كانت منبهرة بملامحي الأجنبية، تحاول عدم اختلاس النظر إليّ، وهي تصب قهوتي الأمريكية، لكني ابتسمت لها مشجعة، حاولت أن أشرح بكوريتي الضئيلة، أنني أعيش في البناية التي تواجهها، لم تفهم نصف الكلام، فأخرجت الهاتف الخاص بها، وفتحته على القاموس، لتحاول ترجمة كلامي وكلامها.

فهمت في النهاية أن اسمها يانج شين، وهي فهمت أن اسمي حياة وأننا جارتان، كانت سعيدة جدًا، عندما أخبرتها أنني بالتأكيد سأعود

مرة أخرى، شعرت أنني قد وجدت أول صديقة لي في هذه المدينة.

أفتقدك ريم، وأفتقد القاهرة، وأفتقد كل شيء، كيف حال أحمد؟ وكيف حال خالد، لا أستطيع منع نفسي من السؤال عنه، هل تعرفين أيا من أخباره؟

محبتي.

حياة.

كنت أتخيل أنني تأقلمت على الحياة بلا خالد، لكنني كنت كاذبة بالطبع، الوحدة والفراغ الطويل في سيول، بعثا الألم كله من جديد، بعدما اعتقدت أنني تعافيت في دبي، كان لسعود حضورًا كاسحًا، يبقيني منشغلة طيلة الوقت حتى أتوقف عن التفكير، أما الآن، فأملك كل الوقت في العالم للتفكير، واستعادة ما حدث عشرين ألف مرة في اليوم.

كنت أستيقظ كل ليلة من النوم بفزع، أشعر بالألم والإعياء من جديد، وكأنني ما زلت حبيسة تلك الليلة السوداء، من الربيع قبل الماضي، أشعر بالدماء تنساب من بين فخذي، فأحاول الصراخ من دون صوت، أتقلب، أبكي، أحاول التنفس بلا فائدة، حتى أفيق فجأة مع الصداع الذي بات رفيقي الدائم.

نهضت من مكاني، وأخرجت الصورة الصغيرة بالأبيض والأسود، التي لا تظهر شيئًا، بحثت طويلاً حتى وجدت بقايا شريط لاصق في درج المطبخ، وألصقتها بعناية أمامي على الحائط، كانت تبدو كبقعة سوداء مبهمة فوقه، لكني كنت أحفظ كل تفصيلة، كل نقطة وكل رقم مدون بالإنجليزية على جانبها.

سمعت صوت الرسائل الواردة، فهرعت عائدة إلى الحاسوب، كانت رسالة ريم مليئة بالوجوه الصفراء المبتسمة كالعادة.

حبيبتي حياة.

أفتقدك أكثر، أتمنى رؤيتك في أقرب فرصة، عندما كنت في دبي، كنت أشعر أنك قريبة بشكل أو بآخر، ربما أتمكن أنا من السفر إليك، أو أن تأتي أنت في أي وقت، أما الآن أشعر أنك حرفيًا في آخر العالم.

شعرت بقليل من الغيرة عندما وصفت الفتاة الكورية بصديقتك الجديدة، لكني سعيدة من أجلك، يجب أن تتعرفي على أشخاص جدد حيثما أنت، أنت تعرفينني وتعرفين رأيي في الوحدة، لا يجب أن يظل الإنسان وحيدًا أكثر من ساعتين وإلا جنّ.

أحمد بخير، أما خالد، فلا أعرف عنه الكثير، أخبرني أحمد أنه ابتعد كثيرًا عنه، وعن باقي الأصدقاء، حتى صفحته على فيسبوك تبدو مهجورة، كل حين ربما ينشر بعض الأغنيات أو خبر ما من الجرائد، خبر متداول ربما يقصد به الاعتراض أو التوثيق، أعرف أنه مثل أحمد، يشعر باليأس واللا مبالاة بعد كل ما حدث منذ الثورة وحتى اليوم، كلنا مثله، لكن بالنسبة لشخص كئيب مثل خالد، قد يصبح الأمر مضاعفًا.

هذا لا يمنع أنه حدث أحمد منذ فترة، وأخبره أنه ينتظر طفله الأول، لم أكن أريد إخبارك، لكني أعتقد أنك يجب أن تعلمي الآن، الجميع يستمر في حياته، ربما ينبغي عليك أن تفعلي مثله.

أرجوك كوني بخير.

ريم.

كنت أعيد قراءة جملة، ينتظر طفله الأول، بلا وعي، هل يصح أن نطلق عليه طفله الأول فعلاً، ماذا عن ابنتي أنا، لا تحسب، بالطبع لا تحسب، كانت مجرد كتلة من الدماء الحمراء القانية، وذهبت إلى حال

سبيلها، هو لم يعرف بوجودها أصلاً، فلِم ألومه إذن أو ألوم ريم على وصفها.

ينتظر طفله الأول.

ينتظر طفله الأول.

ينتظر الآن طفله الأول.

لماذا يحزنني ذلك؟ أعرف أنه رجل متزوج، حضرت زفافه بنفسي، رأيت عروسه ولم أرها، كنت أشعر أنني في حلم جعلني لا أتذكر شيئًا، ملامحها اختفت تمامًا من عقلي، ولم يتبق سوى ملامحه هو، كان ككل مرة أراه فيها، صامتًا، لا يحمل تعبيرًا محددًا على وجهه، لم أعرف إن كان سعيدًا أو حزينًا، لم يرني أصلاً.

ينتظر طفله الأول.

هذه الجملة الصغيرة، التي أبعدته أميالاً أكثر مما كان مبتعدًا، كان الفراغ الطويل كل يوم يمنحني الحق في تخيل آلاف السيناريوهات، التي قد تعيد ترتيب الوضع، وتمنحني ما أستحق الحصول عليه، سيناريوهات تافهة ساذجة كالأفلام الرومانسية، تعيده إلي من جديد، صدفة تجمعنا في مطار ما، رحلة تضمنا معًا، حفل زفاف ربما يكون من بين مدعويه، كنت أبالغ في الحلم فأتخيله هنا في سيول، ربما يسافر في رحلة عمل تابعة لشركته، أحلام غبية لن تحدث أبدًا.

وحتى لو كان هناك فرصة في حدوثها، الآن يأتي هذا الطفل، ليصبح حاجزًا أقوى من كل الحواجز التي فصلت بيننا يومًا، الحواجز التي أعرفها، والتي لا أعرفها حتى اليوم، هذا حاجز دائم، مستمر، والأدهى، أنه على عكس الحواجز الأخرى، لا أستطيع أن أتمنى زواله.

فليبارك لك الله في طفلك يا خالد، وليلعنني الله على ما فعلته أنا بطفلتي.

دبي ٢٠١١

تصحبني ريم في عربتها الصغيرة إلى المطار، تساعدني على وضع حقائبي الكثيرة على العربة، تنظر إليّ كل دقيقة بوجوم، وتسأل، هل ستغادرين للأبد فعلاً؟

أهز برأسي من دون إجابة، أخبرها أن لا مكان لي هنا، أبي هناك، وحياتي الجديدة هناك، ربما كان هذا أفضل للجميع.

أحاول ضبط ملابسي، التي أصبحت واسعة جدًا حول جسمي، ريم تعدل وضع حقيبتي على كتفي، تصحبني إلى آخر نقطة يمكن أن تدخل إليها، أقبلها وأحتضنها طويلاً، تبكي فأحبس أنا دموعي بإصرار، كنت قد قررت أن لا أبكي من جديد، بعدما قضيت الشهر السابق بأكمله في البكاء.

شهر كامل قضيته في المنزل، لا أرى أحدًا سوى ريم، التي تمر عليّ كل يوم، تبيت معي أحيانا، تعد لي الطعام، وتجبرني على تناول بعض منه.

أبي يهاتفني، ويشعر بالقلق من صوتي، أخبره بأنني مريضة جدًا، مغص كلوي، يجن جنونه، يصمم على أن أسافر فورًا، لكنني أطلب منه بصبر أن ينتظر قليلاً.

كنت أنتظر استعادة بعض من قواي، استعادة بعض اللون إلى بشرتي الميتة، بعد شهر، قررت السفر وعدم العودة.

أجمع أشيائي الهامة، بعض الإيشاربات الخاصة بأمي، التي لا تزال تحمل رائحتها، صندوق رسائلها، نظارتها الطبية، خاتمها.

أغلق حقائبي، وألقي نظرة طويلة على الأريكة، على السجادة التي لا تزال تحمل بقعة داكنة، لم أتمكن من إزالتها بالكامل، بقعة تذكرني بجريمتي، تذكرني بلحظات احتضاري، بغبائي وقلة حيلتي.

أغلق الباب جيدًا، وأهبط إلى حيث تنتظرني ريم في سيارتها الصغيرة لننطلق إلى المطار.

في دبي، كان والدي ينتظرني بنفسه، يسرع إليّ، يحتضني بقوة، ثم يبعدني عنه ليتأمل وجهي، أرى علامات الذعر تبدو عليه، فأطمئنه ببعض الكلمات.

ـ نوبة مرض شديدة، لكني الآن بخير.

يصمم على أن يصطحبني للطبيب، يدفع عربة الحقائب إلى الخارج، وهو لا يتوقف عن الكلام، يلومني على إهمالي، يلومني على عدم سفري فور وفاة أمي، يتوقف عن الكلام وينظر إلي، ثم يعتذر عن عصبيته، أبتسم له نصف ابتسامة، أعيد إخباره أنني بخير، لم يحدث لي شيئًا، وأنني جئت لأبقى معه طويلاً.

نصل إلى المنزل، فتكرر زوجة والدي نفس الكلام، وهي تنظر إليّ بهلع، تدخل حقائبي إلى الغرفة، وتعود لتطالبني بتغيير ملابسي والاستعداد لتناول الطعام.

ـ سأعمل الفترة المقبلة على تغذيتك فقط، لن أتركك حتى تعودي كما كنت وأفضل.

أبتسم لها، وأتقدم نحوها لأقبلها على وجنتها، تتراجع إلى الخلف بدهشة،

وتضع يدها على مكان قبلتي، يحمر وجهها وتدمع عيناها، فأخبرها أنني سأخرج لهم بعد لحظات.

تغادر مسرعة، ربما لتحكي لوالدي أنني أخيرا قبلتها، أشعر بالشفقة عليها، وأشعر بقسوتي الدائمة نحوها، ألعن نفسي كما أفعل كل يوم، وأنوي أن أغير معاملتي السيئة لها.

أجلس معهما على المائدة، أتظاهر بالمرح وبتناول الطعام، يدق جرس الباب فأسرع لفتحه، أرفع عيني إلى سعود أخيرا، أصافحه بسعادة لكنه ينظر إليّ طويلاً، من دون أن يتكلم، يعقد حاجبيه، وهو ينظر لوجهي، لجسمي النحيل، لعروق يدي البارزة بلونها الأزرق الداكن.

أسحب يدي من يده ببطء، لا أعرف ماذا أقول، يحييه أبي من الداخل فيتجه إليه، يطالبه بأن يجلس معنا لتناول الغذاء، يعتذر بأدب مبررًا بأنه في طريقه إلى الخارج، مر علينا فقط ليحييني قبل الذهاب.

أصحبه إلى الباب من جديد، يمسك بذراعي بقوة ويقول: ماذا بك؟ لا تكذبي.

ـ لا شيء أنا بخير، مغص كلوي عنيف، قضيت شهرًا في الفراش على المحاليل، كان طبيعيًا أن أفقد بعض الوزن.

ـ حياة، ثلاثة أشهر من دون كلمة، من دون رسالة، من دون حتى تحديث على صفحتك على فيسبوك، لا تخبريني بأن كل هذا من تأثير المغص الكلوي، أنا لست غبيًا.

ـ أنا بخير، كنت مريضة ومشغولة، اكتئاب بسبب أمي، أنت تعرف الوضع، لم يكن مثاليًا جدًا بالنسبة لي.

ـ اكتئاب نعم، لكنك غريبة، تبدين كالميتة.

أنظر له بصمت، يرتعش جانب فمي، فلا أستطيع مدارته، تدمع عيناي، أستجديه بهما أن يتوقف عن الكلام، فيفهمهما بسرعة.

ـ سأعود في السادسة، ما رأيك أن نتناول العشاء معا، هناك مطعم لطيف قريب من هنا، يمكننا الذهاب والحديث، سأسمح لك بتدخين الشيشة معي.

أبتسم أخيرا، أهز رأسي موافقة، فيودعني ويذهب.

سيول ٢٠١٤

انطلقنا في الصباح إلى العمل معا، لم يخلف تيو ولا كلمة من وعده، لكنه أخلف تركي لأنام في سلام، قضينا الليل كله نتحدث معًا، أحكي له عن القاهرة، عن دبي، عن أصدقائي وطفولتي ومراهقتي السخيفة، أتذكر أحداثا كنت أتخيل إنني نسيتها تمامًا، لكنني لم أحكِ له كل شيء، لم أحك قصة وفاة أمي، ولا قصة خالد، ولا هند.

كنت أحاول تجنب المواقف السوداء في حياتي، أتحدث بشكل عام لطيف ومسلٍّ، هذه هي المرة الأولى، التي أتحدث فيها بكل هذا الكم من السعادة والضحك.

هو أيضا كان يحدثني عن زوترمير، مدينته الجميلة الأقرب للأقاليم الهادئة، أخواته الثلاث، ووالدته الباسلة، مات والده في طفولتهم، لتكمل هي الرحلة معهم من دونه، كان يشعر بالفخر كثيرًا، كانت عائلته جميلة مثالية، يحكي عن أشياء لم أفهمها، علاقته بأخواته، وأمه، أنا عشت طيلة حياتي وحيدة، بعد انفصال والديَّ وسفر أبي للعمل في الإمارات منذ طفولتي، أمي كانت طيبة جدًا، لكنها كانت مسكينة، هادئة لا تتحدث كثيرًا، وحيدة مثلي، لم يملك أحدنا سوى الآخر، لا أذكر أي مواقف فريدة بيننا، أو أحداثا ضخمة، عاشت أمي صامتة، ورحلت صامتة.

كان تيو يستمع لي باهتمام، وكأني أقص عليه أخبار العالم المثيرة، يضمني

قليلاً، يقبلني قليلاً، يضحك ويحكي، كنت بشكل أو بآخر سعيدة، أريد أن أظل هكذا إلى ما لا نهاية، لم نتوقف عن الكلام حتى الصباح التالي، كانت هذه أول مرة أتوجه فيها إلى العمل بمعنويات مرتفعة.

توجهنا معًا لشراء القهوة التي يحرص على شرائها كل صباح لي وله، وصعدنا إلى المكتب.

في الداخل انتهت السعادة فجأة، كانت الشاشات تنقل الأحداث المرعبة المتتالية من حول العالم، داعش تقتل ١٢ سوريا ذبحًا، صور نساء مصفوفات في سلاسل حديدية، أيزيديات يُبعن في سوق الجواري، أشعر وكأننا انتقلنا عبر الزمان والمكان فجأة.

ـ ما هذا بالضبط؟

ـ هذا هو العالم الجديد يا عزيزتي.

لا أريد أن أصدق، لا أستطيع التصديق، قرأت بعد ذلك عن حفلات الجنس الجماعية لنساء يعاملن معاملة الدمية المطاطية الشهيرة، المراسلون يقسمون إن المرأة الواحدة تنكح عشرات المرات في اليوم الواحد، حتى تنزف، حتى لا تستطيع التبول ولا الجلوس، تتعفن داخليًا، وتُترك لتموت من القهر والاشمئزاز.

ـ سأقتل نفسي قبل أن أقف في موضعهن.

ـ فلنحمد الله إذن أنك لست هناك.

ـ الله؟ أين الله الآن؟

ـ الله غير مسؤول عن غباء هؤلاء البشر، أو لنقل عن شرهم، هؤلاء بالطبع ليسوا أغبياء.

أشعر بالدماء تفور في دماغي ببطء، أنسخ الصور على الفلاش ميموري الصغيرة التي أحملها معي دومًا، رغبتي في طباعتها تتعالى وتزيد، أنقل صور الرجال المذبوحين، أحاول تخيل وضعهم، في ما فكروا؟ لماذا يملكون هذه النظرة الزجاجية الخاوية، هل الاستسلام للموت يمنح المرء شجاعة ما، أذكر يوم كنت في غرفة منزلي وحدي، دمائي كلها باتت على سجادة البيت القديم، حيث ظللت ملقاة لساعات، قبل أن يغلبني جبني، ويدفعني للوصول إلى الهاتف والاتصال بريم.

هل كان في موتي راحة؟ هل الموت أهون من هذا العذاب؟ ربما علموا ذلك، وهم على بعد لحظات منه، ربما أماتهم الله قبل أن تمسهم الأنصال الباردة، ربما كانت أرواحهم واقفة على بعد أمتار تراقب هؤلاء الأغبياء الملثمين، وهم يذبحون أجسادًا خاوية لم يعد شيئًا فارقًا معها.

اكتشفت أنني أصبحت مثل أمي تمامًا، أفكر في أي طريقة تمكنني من تقبل الأشياء الفظيعة في العالم، الآن أتفهم موقفك يا أمي، ربما كنت على حق فعلاً.

كانت الصور تخرج تباعًا من الطابعة الضخمة، أسند ظهري على الباب، عاقدة ذراعي أمامي، حتى لا يدخل تيو، لكنه لا يدخل، يكمل ترجمة الأخبار وصياغتها، يعمل محلي ليتركني قليلاً في صدمتي.

ـ يجب أن تفكري في تغيير مجال عملك، فالقادم أسوأ.

يمر من جواري، وهو يحمل الأوراق المطبوعة إلى المكتب المقابل، حيث المحررين يدورون مسرعين كالنحل قبل بدء النشرة.

أجمع أوراقي، وأرتدي سترتي بسرعة، لأذهب قبل أن يعود، يصادفني

رئيس التحرير السيد جونق هون في منتصف الطريق.

ـ حياة أين تذهبين الآن، لم ننته بعد.

ـ أنا متعبة فعلاً يا سيدي، تيو سيحل محلي الليلة، لم يبق سوى نصف ساعة على النشرة.

ـ هناك مواعيد محددة للعمل.

ـ يمكنك مجازاتي كما تشاء، أنا سأغادر الآن.

أعلم أنه لن يفعل شيئًا، كان طيبًا لدرجة السذاجة، لا أعرف كيف تركوه يشغل هذا المنصب أصلاً.

الكوريون في العمل ليسوا سُذّجًا، ربما يحتفل المدير مع موظفيه كل فترة، يخرج معهم ويدعوهم على الشراب، لكن في العمل هم لا يعرفون الرحمة، العديدون ينهارون فعلاً من الضغوط غير المحتملة، لكن جونق هون كان مختلفًا، ربما لِحَظي الحسن، أو لأنني أصلاً لم أكن أعبأ بشيء، فليرفدني إن شاء، لا أهتم.

أغادر من دون أن أخبر تيو، ربما كان عليَّ إخباره بعد ليلتنا الماضية معًا، كنت أشعر بأنه بات قريبًا، الأمر الذي لم يعجبني على الإطلاق، لا أريد الاقتراب من أي شخص، ولا أن يقترب مني أحد، أريد أن أظل وحدي هكذا، في زاوية مظلمة بعيدة، لا أحدث أحدًا ولا يحدثني أحد، لماذا يا رب قبلت دعوته لي أمس.

ألقي الصور على المائدة فور وصولي إلى منزلي، وأندس بملابسي تحت الأغطية، أريد أن أنام جدًا، لا أستطيع أن أفتح عيني حتى.

لكنني لا أنام، فعلاً، أنا الآن ملقاة على جانب طريق حار، الأرض

تكاد تشتعل أسفلي، أرتدي عباءة سوداء متسخة، والسلاسل الحديدية في يدي تثقلني، الذباب يقف على جفني فلا أستطيع طرده، صوت الطنين القذر يثير أعصابي، أهز رأسي كما لو كنت مصابة بالصرع، عصا غليظة تسقط فوقها تمامًا.

الرجال الملتحون الأقرب للشياطين يسيرون حولي، أشعر أنهم عمالقة جدًا، الشمس تسقط فوق رؤوسهم فلا أري ملامحهم، يرتدون أحذية عالية الرقبة في هذا الحرّ الشديد، وسراويل مموهة قصيرة.

ـ اصمتي يا «مرة».

يصرخ أحدهم في امرأة ستينية تبكي في أول الصف، أما أنا فلا أفكر سوى، في البحث عن أي شيء حاد لقتل نفسي، أعرف أنني سأباع الآن لوغد ما، وكأنني دمية جنس من التي تُباع على الإنترنت في عالم آخر بعيد.

أريد أن أموت الآن.

العصا تسقط على كتفي، تنهضني، أسير في صف واحد مع عشرات النسوة، أشعر بالمرض، بالوهن، يارب أرحني الآن، صليل السلاسل، يبدو وكأنه موسيقى منغمة رتيبة، موسيقى مألوفة.

الجميع يختفون من حولي، أظل أنا واقفة أسفل الشمس، والموسيقى لا تزال تدوي.

أنظر حولي محاولة الفهم، أكتشف أنها موسيقى برنامج سكايب، أستيقظ فجأة.

نغمة سكايب تدوي في الغرفة المظلمة، لا أقوى على النهوض، أنظر

إلى الساعة المضيئة لأجدها الثانية عشر بعد منتصف الليل، بالتأكيد سعود، هو الوحيد الذي لا يراعي فروق التوقيت بين كوريا والإمارات.

أتحامل على نفسي للنهوض، قطرات العرق تسيل من على حاجبي وعلى ظهري، أشعر بالعطش، وكأنني كنت في الصحراء فعلاً، أعتزم الرد ثم الذهاب لشرب بعض المياه.

ـ مرحبا سعود

ـ أهلا حياة، ماذا بك هل كنت تركضين؟

ـ أركض في الثانية عشر بعد منتصف الليل؟ بالطبع لا كنت نائمة.

ـ أوف آسف، دائمًا ما أنسى موضوع فرق التوقيت هذا.

ـ انتظر لأجلب زجاجة ماء.

أقف أمام الثلاجة المضاءة أستعيد أنفاسي، يؤلمني رأسي وكتفي، وكأنني ضُربت بعصا غليظة، معصماي محمران جدًا، وكأنهما كانا مقيدين بالسلاسل، أفكر، مستحيل، كان حلمًا بالتأكيد، أنا جننت تمامًا، تمامًا.

أعود لسعود، وأبتسم، كيف حالك.

ـ بخير، وأنت؟

ـ لا بأس.

ـ متى ستعودين؟

ـ أفكر فعلاً في الحصول على عطلة.

ـ لم أقصد عطلة، أقصد متى ستعودين من هذه البلاد البعيدة، حياة ماذا تفعلين عندك؟

ـ ماذا تظنني أفعل؟ أعمل.

ـ يمكنك العمل هنا.

ـ لا أريد، أريد العيش بمفردي.

ـ حياة، إن كان الأمر متعلقًا بالحياة مع والدك وزوجته، يمكنك العيش في سكن للفتيات، أو حتى وحدك، لن يعترض.

ـ ومن أدراك.

ـ الرجل يقابلني كل يوم في المصعد، وكل مرة يتوسل إلى أن أحدثك في الأمر.

ـ غريبة لم يحدثني منذ شهور.

ـ يشعر أنك لا تريدين الحديث معه، زوجته أيضا تريد عودتك، هي طيبة وتحبك كابنتها فعلا، لما لا تعودين؟

ـ أنا لا أكرهها، ولا أكرهه، أنا فقط لا أشعر بالراحة معهما، أحبهما لكني لا أنتمي إليهما.

ـ انتمي لي أنا إذن، تعالي، وسأحرص على راحتك.

ـ سعود، أنت بالفعل عائلتي الوحيدة المتبقية، لكني سعيدة هنا، فعلا.

ـ أنت كاذبة جدًا، اسمعي، إن كنت تحبين العمل الصحفي، تعالي، مكانك محفوظ في الجريدة، يمكنني أن أحدث صديق يعمل في مدينة الإنترنت هنا، إن كنت تفضلين العمل في التلفاز، يمكنك البدء فورًا.

ـ ليس هذا ما يشغلني.

ـ ماذا إذن؟

ـ ألم تنصحني من قبل بالابتعاد؟

ـ نعم لبعض الوقت وليس لعام ونصف!

ـ سأفكر في الأمر.

ـ أرجوك.

يُظهر البرنامج حدوث مشكلة في الاتصال، تظهر جملة: معاودة الاتصال؟ أضغط لا، وأغلق الجهاز.

أنهض، لا أريد النوم، يبدو أنني سأظل مستيقظة للصباح، أمسك الهاتف وأتصل بتيو.

رنين طويل طويل، يبدو أنه نام، أنوي الإغلاق لكنه يجيب بصوت ناعس.

ـ حياة؟ ما الأمر؟

ـ آسفة لم ألاحظ الوقت المتأخر.

ـ لا مشكلة.

ـ كنت أريد أن أخبرك أنني اضطررت للرحيل من دون إنذار اليوم، كنت متعبة جدًا.

ـ لا مشكلة حياة، لست وصيًا عليك.

ـ لكن كان يجب علي أخبارك.

ـ لم؟

ـ لا أعرف، ظننت أنك ستهتم.

ـ أنا مهتم فعلا، أما أنت فلا، لا أستطيع إجبارك على شيء.

ـ نعم، أقصد، لا، أنا مهتمة لكني غادرت سريعا.

ـ حسنا.

ـ هل أنت منزعج؟

ـ لا، أخبرتك من قبل، نحن لسنا ثنائيا، أليس كذلك؟

ـ كنت أعتقد أنك تتمنى كما أخبرت آدم.

ـ أنا فعلا أتمنى، أريد ذلك، أفكر في ذلك منذ شهور، لكنك لا تريدين.

ـ ليس الأمر كذلك تيو أنا فقط لا أعرف.

ـ حسنا هذه مشكلتك إذن، سأنام الآن، أراك في الصباح، وداعا.

أنهى تيو المكالمة من دون أن ينتظر ردي، أشعر بغصة في حلقي، ماذا أريد فعلا؟ يسألني سعود، يسألني تيو، وأسأل نفسي، ماذا أريد، ماذا أفعل هنا بالضبط؟ لماذا لا أترك كل شيء وأعود؟ لماذا أنا مصممة على عقاب نفسي.

أتوجه نحو الصور الملقاة على المائدة، أضع نظاراتي على عيني، وأجلس بحركات آلية، أمسك بالمقص والشريط اللاصق، وأنظر إليها في صمت.

دبي ٢٠١٢

أجلس مع سعود في المطعم الهادئ، أفرك كفي يدي، كما أفعل عند التوتر، أحاول الابتسام لكنه ينظر إليّ نظرته الغريبة التي تفضح كذبي، وتشعرني بعدم الراحة.

ـ هل ستخبريني الآن؟

ـ بم؟

ـ ما الذي حدث في القاهرة؟ هل رأيت خالد؟

ـ خالد، تزوج.

ـ ثم؟ نحن نعلم أنه تزوج، الأمر لا يشكل صدمة.

أصمت، أركز نظري على طرف المائدة، أحاول ابتلاع ريقي، الغصة الدائمة تزداد قوة، أشعر بكتلة صغيرة تتكون في حلقي بسببها، أشعر أنني سأفقد وعيي.

بصوت بارد، بلا أي مشاعر، أحكي له بآلية كل ما حدث، أحكي له تفاصيل التفاصيل، من يوم التنحي وحتى يوم الزفاف، أحكي له عن الدماء التي أغرقت سجادة المنزل، عن أمي التي تزورني كل ليلة في أحلامي، وهي تحمل الطفلة، وتضحك أحيانا، وتبكي أحيانا، أصمت

قليلاً، ثم أبدأ في الضحك، تدمع عيناي من كثرة الضحك فأبدأ في البكاء.

كانت نظرة سعود، تتغير من اللوم إلى الشفقة، من الحزن إلى الغضب، من العجز إلى القلق.

أنهيت كل الحكاية، من دون أن أجرؤ على رفع عيني إليه، توقفت أخيرا عن البكاء، أشار بيده إلى النادل، وهو يشعل سيجارة، طلب قهوة له، وعصير ليمون بالنعناع لي، رفعت عيني إليه أخيرا، فحاول الابتسام ثم أشاح بنظره بعيدًا.

لم أعرف ماذا أقول، جاءت المشروبات فأشار لي أن أشرب، لم يتحدث بعدها، انتهى من قهوته واستعد للمغادرة، نهضت معه من دون كلمة، أوصلني حتى باب المنزل، ثم قبلني على وجنتي مودعًا، وغادر إلى منزله.

لم أفهم ما الذي حدث، وما الذي يجب عليَّ فعله، رقدت في الفراش، أتأمل سقف الحجرة، أفكر في موقفه وصمته، هل أخطأت عندما حكيت له كل شيء؟ هل يكرهني الآن؟ يحتقرني كما أحتقر نفسي، هذا حقه الكامل.

في الصباح، سمعت صوته بالخارج، يتحدث مع أبي بطبيعية، يتجادلان في الوضع المصري، واستلام الجيش للحكم في مصر، يقول له أبي إن هذا طبيعي وحتمي، وسعود يرفض تمامًا، مؤكدًا على ضرورة الحكم المدني.

أنهض من فراشي وأخرج بسرعة، يبتسم لي، وكأن أمس لم يحدث، يقول: هل أنت مستعدة للعودة إلى الجريدة؟

يعترض أبي ويخبره بأنه وجد لي فرصة عمل ذهبية، في العلاقات العامة بشركته، وظيفة سهلة ومرتب كبير، لا تحتاج حياة إلى العمل في جريدة متواضعة بأجر ضئيل.

أحاول أنا إيجاد حل وسط، فأسأله إن كان يمكن العمل بعد العصر في الجريدة؟ عدة أيام في الأسبوع؟ أعني «بارت تايم».

يقول: سأعرض الأمر على رئيس التحرير، أصحبه للخارج، فيسألني ماذا تفعلين؟ علاقات عامة، ما الذي يغريك في هذه الوظيفة المملة؟

ـ ليست مملة تمامًا، بصراحة أحتاج لوظيفة ذات دخل مناسب لأنني أخطط جديا للانفصال عن أبي.

يصمت قليلاً، ثم يقول: حسنًا، أعتقد أنك محقة، أعتقد أننا سنتمكن من إيجاد حل، يمكنك فعلاً أن تأتي بعد العصر لعدة أيام، لكنني أراه عملاً مناسبًا وهامًا لك.

ـ حياة، يجب أن تندمجي قليلاً في العالم، يجب أن تعرفي ما الذي يحدث من حولك، الصحافة هي ملاذك.

أنظر له بدهشة، أتردد قليلاً ثم أسأله، ألن نتحدث في الأمر؟

ـ لا.

يبتسم بعدها ويتركني لدهشتي ويغادر.

لا أعرف إن كان هذا تسامحًا أم هربًا، لكنني أقرر عدم التحدث من جديد في الأمر، أحترم رغبته، التي أراحتني في الواقع، وأقرر الالتزام بها أنا الأخرى.

سيول ٢٠١٤

يعرض عليَّ زميلي في المكتب، ثيودور، أن يوصلني إلى البيت، أوافق ممتنة، فيفتح لي باب المصعد، ويبتسم، أشعر بسعادة لا أعرف كنهها، أشكره وأقف بجواره هادئة حتى نصل.

يفتح لي باب السيارة، ويسألني إن كان من الممكن أن نذهب لتناول العشاء معًا؟

أجيبه بنعم بلا تردد، كان لطيفًا أن أتناول طعامي، مع شخص ما على سبيل التجديد، بدلاً من تناولي إياه كل يوم، وحيدة أمام شاشة الكمبيوتر.

أسأله أن نختار مطعمًا قريبًا من منزلي، يدور بالسيارة في المنطقة بحثا عن مطعم مناسب.

ألمح واحدًا على جانب الطريق، فيتوقف فورًا، يسرع لفتح الباب لي، ويمد يده إليَّ يساعدني على النزول.

ـ شكرا لك ثيودور.

ـ تيو، يمكنك اختصاره إلى تيو.

ـ لماذا لم تخبرني بذلك طيلة الثلاثة شهور الماضية؟

يضحك ويجيب، لم تأت فرصة، ثم أن ثيودور جميل جدًا منك.

أشكره من جديد، نتناول الطعام ونحن نتحدث، ثم يصحبني مشيًا إلى المنزل، يقبلني على وجنتي برقة، ثم يعود من جديد إلى سيارته.

صار هذا روتينًا دائمًا كل يوم، يوصلني تيو إلى باب المنزل، أحيانا نتناول العشاء، وأحيانا نكتفي بكوبين من القهوة في السيارة، نتحدث، نضحك، نذهب إلى «إيتوان»، نتسوق لمنزلينا معًا، نختار معًا أنواع الشاي، والقهوة، والطعام وبعض الحلوى، كنت أرشده إلى بعض المأكولات العربية، ويعرفني هو على بعض المنتجات الهولندية مثل الأجبان، التي لم أحبها كثيرًا.

شهر كامل مر علينا، ونحن معًا كل ليلة، وكل عطلة، شهر كامل يتأملني كثيرًا، يلتقط لي الصور وأنا أعمل، وأنا أضع سماعات الرأس الضخمة، وأنا أنتقي الفواكه من على الرفوف، وأنا أحاول تناول الطعام، بالعصيان الكورية الرفيعة المخصصة للأكل، وأنا أنظر له بعتاب على التقاطه صوري الحمقاء.

كنت أشعر بسعادة حقيقية، أخيرا وجدت صديقًا لطيفًا هنا، يمكنني التحدث معه بانطلاق، مناقشته في الأمور الجادة، وليس مجرد الحديث عن الطقس والطعام والعطلات المقترحة ليانج شين وحبيبها، أو فض الخلافات الطفولية بينهما.

كان تيو معينًا جدًا، أنساني الكثير من الأمور، لكنني كنت أتسلى وحدي بأشياء أخرى، أشياء مثل لصق بعض الصور على الجدار المواجه لفراشي، بعدما بدأت بصورة السونار الصغيرة في المنتصف تمامًا.

بعدها بأيام، طبعت صورة هند على الطابعة الضخمة في المكتب،

قصصت الحواف البيضاء بدقة، لصقتها بعناية حول الصورة الصغيرة السوداء التي لا تظهر شيئًا، تراجعت لأتأمل الجدار من جديد، وأنا أفتح المقص وأغلقه، أعجبني شكله الآن، كان يلزمه صورًا أكثر، أفكر في ذلك، وأنا أمرر الحافة الحادة للمقص الصغير على معصمي، الدم ينسال على الأرض من دون أن أشعر، يلوث بعضًا من البساط أمام السرير، أمرره من جديد، فتتساقط المزيد من الدماء، أمرره ثلاث مرات وأنا أتأمل الصور، ثم أضعه على المائدة الصغيرة، أتناول بعض المناديل وأمسح بها معصمي، ينز الدم من جديد، فأنظر له ببرود، ترتعش أصابع يدي قليلاً، فأضغط أكثر بالمناديل، يتوقف بعد حين، فأنسى الأمر كله.

سيول ٢٠١٣

عزيزي سعود

أرسل لك هذه الرسالة، وأنا أستعد للسفر إلى القاهرة فجأة، لم أرتب أبدًا لهذا الأمر، لكن هذا ما حدث أمس، فقد قطعت التذكرة، وطلبت عطلة لا تتجاوز الأسبوع، سير الأمور بهذه السهولة، في شركة لم أبدأ العمل فيها سوى منذ ٩ أشهر فقط، جعلني أشعر أنني أسير في الطريق الصحيح.

الأمر كله بدأ لو لاحظت، بهذا المنشور التي وجدته أمامي، لا أعرف من أين ظهر لي على فيسبوك، منشور يدعو الجميع للتبرع من أجل إنقاذ فتاة صغيرة مصابة في المستشفى، نرى هذه الأشياء كثيرًا، في بعض الأحيان أتعاطف وأدمع، وفي بعضها أقوم بعمل إيجابي، وأسرع إلى البنك متبرعة، أحيانا أتجاهل الأمر، وكأنه لا يعنيني، لكن هذه المرة كانت الأمور مختلفة.

هند، هند الصغيرة كانت ملتفة بالشاش والقطن من رأسها إلى خصرها، الفتاة التي تبلغ من العمر ١١ شهرًا، ظلت آخر ثلاثة أشهر، تخضع لعمليات جراحية متعددة، من أجل إنقاذ حياتها، ومنحها شكلاً طبيعيًا بعد الحروق المنتشرة في وجهها وجسمها، فقدت إصبعين من يدها اليمنى، إلى جانب تهتك صوان الأذن وفروة الرأس.

لا لم يكن حادثًا مروعًا قدريًا، بل تركت هذه الطفلة وحدها، وسط النيران التي أشعلتها أمها حولها، وذهبت.

أرجوك لا تخبرني أن الأم مختلة عقليًا، لا أستطيع أن أصدق، أن حتى المختلين يفقدون هذه الفطرة، في منع الإيذاء عن أطفالهم، هذه امرأة متوحشة، يجب أن تُعدم في ميدان عام، لا أبالي لو كانت مجنونة، أو حتى لا تملك مخًا في جمجمتها، هي لا تستحق أبدًا طفلة مثل هند، هند الجميلة التي تشبهني كثيرًا.

نعم أنت نفسك لاحظت الشبه، عندما نشرت الصورة، أخبرتني أنها تبدو كما لو كانت طفلتي، الحقيقة أنني أشعر بذلك أيضًا، لو كنت احتفظت بطفلتي التي لم أعرفها لكانت في مثل عمرها بالضبط اليوم، إحدى عشر شهرًا، تخيل، هل يعقل أن تكون هذه طفلتي حقًا؟ هل حلت الروح التي كان يجب أن تحل فيها إلى هذه الطفلة؟ أنا لا أخرف يا سعود، ربما تقرأ كلامي وتضحك، لكني مقتنعة فعلاً بالأمر، مقتنعة لدرجة أنني أتواصل مع أسماء، الممرضة النبيلة التي تقوم بكل هذه الحملات، من أجل إنقاذ هند بلا مصلحة، أحدثها كل يوم وتطمئنني عليها، فاتحتها في بعض أفكاري، فلمحت لي بأن أبا الفتاة قد يرحب بمنحها إلى أي شخص، ربما مقابل بعض الأموال.

لا تتعجب، هذا الملاك البريء، الروح التي كان يجب أن تحل في ابنتي، تعيش وسط كائنين لا يستحقونها، ماذا فعل هؤلاء الوحوش، ليحصلوا على ابنة كان من المفترض أن تكون لي؟ ولماذا يجب أن أتركهما يحتفظان بها، الرجل لم يوجه حتى اتهامًا رسميًا للأم، التي أخجل من وصفها بذلك، تعيش المرأة حرة طليقة، وابنتها تعيش في آلام متصلة منذ ثلاثة أشهر.

بدلاً من أن تنعم هند، بالتعرف على الأشياء المبهجة لأول مرة، بتذوق الشوكولاتة، تناول المانجو، مشاهدة الرسوم المتحركة، حفظ الأغنيات، تتعرف الآن على شتى أنواع الألم، ألم الاحتراق، ألم العظام، ألم الإفاقة من العمليات الجراحية، ألم الوحدة، ألم القسوة.

عزائي أنها تملك أسماء بجوارها، لكن هذا لم يعد كافيًا لي، سأذهب إليها فورًا، وسأقاتل من أجل الاحتفاظ بها، حتى لو اضطررت للبقاء في مصر، أو دفع كل ما أملك لهذا الرجل.

أرجوك أن تساندني في هذا الأمر، أعلم أنني مجنونة، وأنني خيالية، وأنني لا أفقه شيئًا في تربية طفلة مريضة بمفردي، لكنني أريد ذلك، أريده بكل قلبي وجوارحي، ومساندتك سيكون لها وقعًا عظيمًا عليّ.

حياة.

كانت الأسابيع الماضية سريعة ومرعبة، كنت سارحة معظم الوقت، أفكر في هند، هند التي تحولت فجأة لابنتي، ابنتي أنا من دون أن أراها ولا ألمسها، أتخيل مستقبلها معي، أتخيل وجهها الجميل المبتسم في صورتها قبل الحادث، التي أرسلتها لي أسماء، كنت أحلم بأنني أنزع عنها الشاش والقطن، أصفف لها شعرها، أحملها، أغني لها وأركض معها، أعادت لي هند القدرة على الأمل، والابتسام، والحلم، نسيت خالد، نسيت كل شيء، لم أعد أفكر سوى في هذه الطفلة الجميلة، طفلتي، ابنتي الحقيقية، ربما عطف الله عليّ، وأعاد منحها لي من جديد.

كنت أنتظر رد سعود، حتى اللحظات الأخيرة في الطائرة قبل الإقلاع، كنت أتمنى لو منحني بعض الكلمات المشجعة، مثلما يفعل معي دائمًا،

لكنه لم يرد بعد، الرحلة الطويلة المظلمة استغرقت تسعة ساعات ونصف إلى دبي، قضيتهم جميعًا في ترتيب الخطط والآمال لبقائي في مصر، وانتظار شفاء هند، والعودة بها إلى منزلي، حتى في مطار دبي أثناء انتظاري الطائرة الثانية إلى القاهرة، كنت أتأمل ملابس الأطفال في السوق الحرة، الألعاب الملونة الجميلة، اخترت دبًا وردي اللون، متوسط الحجم حتى تستطيع حمله واحتضانه، حملته بفخر في يدي، وكأنه هديتي الأولى لطفلتي، كنت سعيدة جدًا لأنني اليوم سأراها وأحدثها، سأغرقها بالحنان الذي لم تره سوى مع أسماء، أسماء أيضا كانت تنتظرني بفارغ الصبر، كنت أحمل معي تكاليف عمليتها القادمة لترميم صوان الأذن، أخبرتها أن تُعد كل شيء لإجرائها بأسرع وقت، كنت أريد أن تشفى سريعًا جدًا، بأسرع الطرق التي يمكن أن تحدث.

لم يكن هناك أحد يعرف، بوصولي في هذا الصباح المشمس الحار إلى القاهرة وحيدة، بحقيبة كتف صغيرة، وحقيبة بلاستيكية تحوي دبًا ورديًا مبتسمًا، أنهي إجراءات خروجي إلى وطني بعد أكثر من عام ونصف على الرحيل منه، كانت الوجوه مختلفة، الهواء يبدو ثقيلاً جدًا، وكأن المدينة اكتست بطبقة من التراب الحسي البارد، طنين وصمت، أشعرني بعدم التوازن، لكنني نفضت الأمور عن ذهني ولو مؤقتًا، وتوجهت لاستئجار سيارة تقلني فورًا إلى الشرقية.

سيول ٢٠١٤

يعود تيو من غرفة المحررين، يتمتم شيئًا عن غباء الإعداد، ويضع الأوراق على مكتبه، لا أسمعه جيدًا، أضع كفي يدي على رأسي، أسنده عليهما وأضغط بقوة، كان الصداع مريعًا جدًا، أعيد النظر إلى التاريخ، ٢٥ أبريل، يتصاعد صوت تنفسي الثقيل، أشعر بقدمي ترتعشان، أشعر بالغثيان، بالبرد، أرتعش، فينتبه تيو.

ـ حياة، ماذا بك؟

لا أرد، لا أقوى على الرد، ككل عام، أستعيد الذكرى البغيضة القاسية، أشعر بالدماء تغرق سروالي، فأنظر إليه بهلع.

ـ الدماء، أنا أنزف، أموت.

ينهض تيو من خلف مكتبه، يمسكني من كتفي ويهزني بقوة، كنت أتمتم بكلمات عربية وإنجليزية من دون وعي، أبكي بحرقة، ثم أضحك بهيستيريا.

يحملني تيو حملاً إلى الحمام، يغسل وجهي ورقبتي، كانت جبهتي تشتعل، يجسها بكف يده، ويتراجع إلى الخلف، يعيدني إلى المقعد، ويرتدي سترته، يذهب للحديث مع رئيس التحرير، ربما للاستئذان، ثم يعود معه إلى المكتب، يراني الرجل ويلمس جبهتي بيده، يقول لتيو:

ربما يمكنك اصطحابها إلى المستشفى؟ أم نتصل بالإسعاف؟

يختار تيو أن يصحبني بنفسه.

كنت لا أزال أهمس بنفس الكلمات الغريبة، أردد اسم هند، أمي، سعود، أقول له: أنا قاتلة تيو، هل تعرف ذلك؟ أنا قاتلة، أضحك بقوة، أضحك حتى تدمع عيناي.

يسندني تيو بذراعيه ويمشي بي، من السيارة إلى مدخل المستشفى الصغير المجاور، يرانا المسعفون في الطوارئ، فيهرعون لإجلاسي على كرسي متحرك، ودفعي نحو غرفة الفحص.

تفحصني الطبيبة الشابة بعناية، تقيس ضغط الدم، الحرارة.

تهمس لتيو بأن ضغطي طبيعي، حرارتي مرتفعة، لكن الأمر يشبه الصدمة العصبية، لا تفهم ما الذي دهاني، تصف بعض الدواء الخافض للحرارة، بعد أن تعطيني حقنة لها ذات المفعول، وتنصح تيو بالراحة والنوم.

يعود بي تيو إلى السيارة، أشعر بجفني ثقيلين بعد الحقنة المسكنة، فاستسلم للنوم تمامًا في سيارته.

دبي ٢٠١٢

أملك الآن مكتبي الخاص الصغير جدًا في الجريدة، خصصه لي سعود، بجوار مكتبه تمامًا، حتى يتمكن طيلة الوقت من مراقبتي، كان يعاملني بلطف، وكأنني سأنكسر في أي لحظة، قدرت له موقفه، وقدرت أيضا عدم رغبته في الحديث عن الأمر، يوكل لي رئيس التحرير كتابة بعض الأخبار الفنية والاجتماعية، ترجمة مقالات إنجليزية هامة، كنت أحب الترجمة أكثر، أنغمس فيها، أصيغها بأسلوبي الخاص الذي أعرف أنه سيناسب القارئ العربي، أفسر التعبيرات الأجنبية غير المفهومة، أبحث عن الأحداث والأمثلة التي ترد في المقال، وأقوم بتفسيرها للقارئ، تحسبًا إن لم يكن يعرفها.

كان رئيس التحرير معجبًا بعملي، وكنت أنا أيضا سعيدة به، ربما أكثر من عملي الصباحي الأساسي في شركة مملة للسيارات، أما سعود فكان يدفعني دفعًا للقراءة، لمتابعة التطورات في البلاد العربية، في متابعة الأحداث المتصاعدة في سوريا، ليبيا، تونس ومصر، لكنني كنت أحاول بكل الطرق تجنب ذلك.

يستدعيني سعود إلى مكتبه، ويقترح عليّ إعداد تقرير عن العنف الأسري، أرفع عيني إليه بلوم، فيشيح بنظره بعيدًا، يعطيني عشرات الأوراق، التي تحوي تفاصيل شنيعة عن حوادث للعنف الأسري في

العالم، أشعر بالدماء تهرب من رأسي، أتناول الأوراق من دون كلمة، وأعود إلى مكتبي.

كان الطنين يعود من جديد إلى أذنيّ، أحاول ابتلاع ريقي، وقراءة المكتوب، هناك صور مطبوعة لأطفال لا يبتسمون، على وجوههم علامات لا تصدق، عيون منتفخة، جروح قطعية، أطفال بأنابيب التنفس الصناعي في المستشفى، كلهم بذات التعبير الميت على وجوههم الصغيرة، تعبير ناضج غريب يشي بأنهم رأوا الكثير، لا يضحكون، والأغرب أنهم ليسوا حزانى.

كانت وجوههم جامدة تمامًا، صامتة تمامًا، ينظرون إلى الكاميرا ببساطة، وكأنهم يتوقعونها تهوي على رؤوسهم هي الأخرى، في أي لحظة.

أعيد تأمل الصور، أفتح «جوجل» لأبحث عن صاحبة الصورة الأولى، شهد، اغتصبها أبوها ليثبت أن طليقته لا تصلح للحضانة.

أعيد قراءة الجملة من جديد، اغتصبها أبوها ـ الداعية الإسلامي ـ ليثبت أن أمها غير صالحة للحضانة؟ اغتصبها ليثبت أن أمها غير صالحة لتربيتها، هو الصالح إذن؟

أشعر بغضب عارم، تهتز قدماي لا إراديًا أسفل المكتب، أنجذب تمامًا نحو التفاصيل، أستمتع أكثر بالألم المبرح في رأسي والطنين في أذني، أشعر بالدماء تنسحب من مخي، أشعر أنني أطفو، أشعر وكأنني تحت تأثير مخدر ما، الخدر يتسلل إلى أصابع قدمي، أغيب تقريبًا عن الوعي وأنا مستيقظة، أكمل قراءة التفاصيل، أشاهد مقاطع الفيديو.

اغتصبها أبوها «من كل مكان» ضربها بالسوط، وعذبها بالكهرباء، هناك كسور في الجهة اليمنى وساعدها الأيمن، نزع إظفرها، نزع إظفر

الطفلة التي لم تتجاوز الخامسة، وكأنها تحت يد المخابرات الصهيونية، كما كنا نقرأ في الروايات البوليسية القديمة.

الثقل على أذني لا يحتمل، الضغط يزيد، أشعر بأن روحي تنطبق، لا أستطيع التوقف رغم ذلك.

قضت الطفلة أسابيع في العناية المركزة قبل أن تستسلم للموت، أفتح صورها في غيبوبتها التي استمرت للأبد، تزداد الغصة في حلقي، أفكر مثلها، أريد أن أصل إلى شعورها ووالدها يغتصبها، يضربها، ينتزع إظفرها، أرتجف هلعًا.

تأتيني فكرة كتابة التقرير الذي طلبه سعود، على لسان كل طفل وطفلة، في ملفه الأسود الذي أضعه أمامي على المكتب، أفتح صفحة «وورد» جديدة، وأكتب.

اسمي شهد، عمري خمس سنوات، سأنتقل إلى جوار الله بعدما أموت من التعذيب على يد أبي.

أتوقف لحظة لأستجمع أفكاري، يغادرني الخدر الغريب، الذي سيطر على مخي وجسمي طيلة الساعة الماضية، ثم أواصل الكتابة.

سيول ٢٠١٤

يرن جرس الهاتف في الصباح الباكر، وأنا أفرش أسناني، أرفع السماعة وأقول: هاي تيو.

يأتيني صوت لا أعرفه، يتنحنح بارتباك ويقول: مرحبًا حياة، أنا آدم.

أفكر في الاسم لحظات قبل تذكره، يعيد، آدم بريخت، صديق تيو.

ـ نعم، نعم، كيف حالك؟

يبدو على صوتي الاستغراب، من مكالمته الساعة السادسة صباحًا، يبدو وكأنه يقرأ أفكاري، فيقول: أخذت رقمك أمس من تيو، أخبرته أنني أريد أن آخذ رأيك في بعض الأمور حول المجتمعات الشرقية، من أجل دراسة جديدة لي.

ـ ولكنك بالطبع تريد شيئًا آخر؟

ـ نعم في الحقيقة، أريد لقاءك.

ـ ...

ـ لا داعي للقلق لن أعترف لك بحبي، أريدك في أمر هام، ربما يجب علينا التحدث معًا.

ـ حسنا، أين؟

يملي عليّ عنوانه، آملاً أن أتمكن من زيارته في عطلة الأسبوع، أوافق على طلبه، وأضع السماعة.

في المكتب، كان تيو جالسًا أمام شاشته يشاهد مقطع فيديو ما، أما أنا فتوجهت فورًا إليه لأرفع السماعات الضخمة من على أذنيه.

ـ تيو، هل أعطيت رقمي لآدم؟

ـ نعم، يريد سؤالك عن بعض الأمور حول العرب، هل أزعجك هذا الأمر؟

ـ لا أبدًا.

أعيد وضع السماعات على أذنيه فيقبلني في الهواء، ويبتسم.

أعود إلى مكتبي أنا الأخرى لأنتهي مما ورائي.

تمر الأيام ببطء، وأنا أحترق لأعرف ما الذي يريده آدم مني، أفكر في كل الاحتمالات، لكنني لا أفلح في الإجابة.

أقرر تجاهل الأمر حتى ميعاده، وأنخرط في العمل.

القاهرة سبتمبر ٢٠١٣

في صغري، كنت دائمًا أخاف مما أنتظره وأشتهيه، أذكر جيدًا تلك المرة، التي انتظرت فيها أبي العائد من الخليج، أكثر من شهرين بلهفة، لأنه وعدني بشراء جهاز فيديو حديث، لطالما تمنيت اقتناءه، شرح لي أن هذا الجهاز، سيمكنني من مشاهدة كل الأفلام التي أحبها، ولا تُعرض في التليفزيون بعد، بل ويمكنني أيضا أن أسجل عليه حلقات المسلسلات المفضلة، وإعادة مشاهدتها من جديد، كنت أنتظر أبي كل عام، لكن هذه المرة، كنت أنتظره بلهفة أكثر، لهفة كانت تثير ضحكات أمي، وهي تراني أستعد لميعاد التوجه إلى المطار معها لاصطحابه، وكأنني ذاهبة للجنة.

في اليوم المنتظر، لم يصل أبي، فات ميعاد طائرته، وعشرات الطائرات من بعده، ولم يأت بعد، بدأت أمي في التوتر، في الإسراع بين موظف وآخر، وهي تجرني من يدي بعصبية، باقي الأهالي يفترشون أرض المطار، طالبين أي معلومة عن أولادهم وعوائلهم، والمطار لا يعرف، لا يملكون أي تواصل مع الطائرة، ولا المطار الآخر، لأسباب لم أفهمها.

تأكدت أن الطائرة سقطت بأبي، وانتهى الأمر، شعرت بأنني السبب، لأنني انتظرت ما يحمله لي أكثر من انتظاري له، هكذا إذن عاقبني الله بحرماني من كل شيء، من هديتي ومن أبي، بكيت كثيرًا جدًا، بكيت بكل شعور طفلة انسحقت أحلامها السعيدة طيلة الشهرين الماضيين في

لحظة، سألت أمي هل مات أبي؟ كانت تبكي بلا صوت، لكنها أكدت لي بحسم أن هذا لم يحدث.

بعد ثلاثة أيام بأكملها، وصلت طائرة أبي بعدما ظل راكبوها في فندق المطار، بلا أي إمكانية للتواصل مع ذويهم، لكننا لم نكن بانتظاره، كنا في المنزل نستريح لنتوجه إلى هناك من جديد، لكن أبي لم يدعنا، ظهر فجأة في منتصف الليل، ليوقظني وهو يبتسم، حملني ودار بي للحظات، كانت هذه من أسعد لحظات حياتي.

لكن الذنب الذي يصاحبني دائمًا، كلما انتظرت شيئًا لم يزل، الشعور بأنني لن أحصل على ما أنتظره لم يختفي، الشعور الذي يصاحبني الآن، وأنا في طريقي إلى هند، وأنا أترجل من السيارة أمام مدخل المستشفى، وأنا أطمئن إلى وجود النقود في حقيبتي، والدب الوردي في يدي، وأنا أسير في الممرات، باحثة عن عنبر الحروق، وأنا أسأل الممرضات المسرعات في جوانبها، إلى أن تطوعت واحدة منهن في إرشادي.

لم يزل وأنا أرى الرجل، الذي يرتدي جلبابا أزرق اللون وعمامة رأس، جالسًا على الأرض خارج الغرفة يدخن وهو عابس، وأنا أرى جسدًا ضئيلاً مغطى بالكامل على السرير، من دون حياة، وأنا أنظر إلى أسماء، التي جلست بجواره تبكي، تبكي وتنتفض، وكأنها فقدت قلبها.

كنت أسير كالمنوّمة إلى داخل الغرفة، أريد أن أتحدث، أتساءل، أضحك، أصرخ، أنظر إلى السماء وأقول: بالتأكيد أنت تخدعني، لا يمكن أن تفعل بي هذا، لكني لم أنطق.

نظرت إلى أسماء فنظرت لي، عرفتني فورًا من دون أن أحتاج للشرح،

رفعت الغطاء عن وجه الطفلة النائم بسلام، كان الشاش لا يزال يغطيها، أصابعها الصغيرة تطل من بين الضمادات على استحياء، رفعت أطرافها إلى شفتي، ولثمتها كثيرًا جدًا، قبلت جبهتها، وجنتيها، عينيها وساقيها، قبلت أنفها الصغير، وباطن قدمها، نظرت إلى وجهها كثيرًا جدًا، حفظت ملامحه، حفظت كل تفاصيله، حتى الخدوش على جانب أنفها، خصلات شعرها، عدد رموش عينيها، طول أظافر يديها الطريتين.

سحبتني أسماء من فوقها، وهي لا تزال تبكي، أعادت تغطيتها من جديد، وهي تتحدث كالآلة.

ـ كنت بالخارج أشتري لها لبنًا وحفاضات، يقول الطبيب إنها توقفت عن التنفس فوضعوها على جهاز التنفس الصناعي لبعض الوقت، عند عودتي كانت تحتضر، ضممتها إلى بشدة والروح تخرج منها، لا أعرف ما الذي حدث، استردها الله، ربما كان هذا أفضل، أقسم بالله كانت تبتسم، كانت جميلة جدًا، وتبتسم، بالتأكيد هذا أفضل لها.

لم أرد، لم يكن هذا أفضل لي، لم يكن منصفًا لي، ربما كان من الأفضل لو استردها في أحضاني أنا، ربما لو كنت رأيتها ولو للحظات وهي حية، كنت أريدها أن تراني، تعرفني، تتأكد أن هناك شخصًا في هذا العالم يهتم بها، يحبها ويريدها، ولن يتركها أبدًا أبدًا تبكي وحيدة في غرفة مشتعلة النيران.

أخرجت النقود من حقيبتي ووضعتها في يد أسماء.

ـ أرجو أن تساعديني في توزيعها، يمكنك وضعها في حساب الأطفال المحتاجين في هذا المستشفى.

أومأت لي من دون رد، كنت أمسك يديها بكفي يدي، دقيقة، دقيقتين،

لم أنطق بكلمة أخرى، تركتهما فجأة، وذهبت.

أسير في ردهات المستشفى البيضاء، وأنا أجر قدميّ، كان قلبي يدق في حلقي، وكان عقلي خاويًا تمامًا، لا أعرف كيف وجدت الطريق إلى الشارع، أو كيف أوقفت سيارة أجرة عارضة على سائقها أخذي إلى المطار، مقابل مبلغ كاف، أو كيف أقنعت المسؤلين في المطار، بأسباب عودتي إلى كوريا في ذات يوم وصولي إلى القاهرة، لكني أذكر أنني لم أنتبه إلى العالم من حولي، إلا في الطائرة العائدة من دبي إلى سيول، بعد انقضاء فترة الترانزيت، أتحرك بآلية نحو بوابة الرحلة، أضع حقيبتي على سير الكشف، أستسلم للمفتشة، وهي تمرر جهاز كشف المعادن على جسمي، وأنا أسترد حقيبتي، أسترد الكيس البلاستيكي الذي يحوي دبا ورديا جميل الشكل، كان مقدرًا له العودة معي وحيدًا دونها، أجلس في الأتوبيس الذي ينقلني إلى الطائرة، نسمات باردة تهب على وجهي، وأنا أصعد سلالمها بصعوبة، وأنا أجلس على مقعدي في الصف الأخير وحيدة، أضع الدب الوردي بجواري على مقعد بمفرده، أتأمله، أربت على رأسه، ألتفت حولي فلا أجد أحدًا، سوى امرأة مستغرقة في النوم، إلى جوار النافذة في الصف المجاور، وقتها فقط انفجرت في البكاء.

سيول ٢٠١٣

عزيزتي حياة.

لن أدعوك بالجنون أو الغباء، على العكس، أعتقد أنها خطوة جيدة ومفيدة، أعتقد أنك ستسعدين برعاية هذه الطفلة، ربما منحتك المساعدة، التي لم أستطع أو يستطع أحد أن يمنحها لك.

طمئنيني عند الوصول.

محبتي.

سعود.

عزيزتي ريم.

أعتذر عن قدومي إلى القاهرة من دون إخبارك، أعرف أن سعود حكى لك كل ما حدث، فلن أكرر الأمر، أنا بخير لا تقلقي، كنت أتمنى، لو مر الأمر كما كنت أحلم وأتمنى، ولكني تعودت على الصدمات المتتالية، فلم أعد أتوقع الأفضل.

يبدو أنني من ضمن هؤلاء الذين حُكم عليهم بالوحدة، أو ربما يعاقبني الله على جرائمي، ربما يملك هذا الحق، فأنا أشعر بالفعل، بأنني

خاطئة، حقيرة، لا أستحق عطفه، لكن ما ذنب الطفلة الصغيرة؟ لماذا يعاقبني الله فيعاقبها؟ هل هو قاسٍ لهذه الدرجة؟ أحيانا أعتقد أنني لم أعد أؤمن به، أو بأي شيء آخر، انقطعت عن الصلاة التي لم أقطعها منذ طفولتي، لم أقطعها حتى بعد خالد وما حدث، لكن اليوم أعجز عن مواجهته ولقائه، وأنا أحمل له كل هذا الحقد والكراهية، كانت أمي ستخبرني اليوم أن الفتاة استراحت، باتت ملاكًا في جنته، وأنه أرحم عليها مني، لكنه لم يمنحني حق أن تراني وأراها، أن تعرفني وتحفظ ملامحي، علنا نلتقي في الحياة الأخرى، في جنته كما كانت تقول.

هذا العالم القاسي القذر، لماذا نستمر في العيش فيه؟ أحيانا أشعر أنني كنت محقة بالتخلي عن طفلتي، لماذا كنت سأتسبب في إحضار مخلوق مسكين إلى هذا العالم، ترى كيف فعلها خالد، وهو الأكثر تشاؤمًا واكتئابًا مني؟

اعذريني ريم على عدم محادثتك طيلة هذه الفترة، وعلى إغلاقي لحساب فيسبوك، لم أكد أفق من هند، حتى ظهرت لي صور أطفال الغوطة، يبدو أن هذا الكيان الاجتماعي بات مكانًا للقهر والتعذيب، البعد عنه أفضل، للأشخاص الذين لم يعد باستطاعتهم التحمل مثلي، ينقصني قشة فقط لينكسر ظهري.

محبتي.

حياة.

عزيزي خالد.

هذه رسالتي، التي أعرف أنني لن أرسلها لك أبدًا، لكنني رغبت في كتابتها رغم ذلك.

هل تعرف فيلم Butterfly Effect؟ بالتأكيد تعرفه، نحن شاهدناه معًا ذات يوم، هل تذكر نهايته التي لم تنل إعجابي، لكنك وجدتها منطقية تمامًا، عندما عاد البطل إلى طفولته، وأثار ذعر الطفلة الصغيرة، التي كانت ستصبح حبيبته في المستقبل، ليبعدها عنه إلى الأبد، وعندما عاد من جديد، تأكد أن ابتعاده عنها كان الأفضل، وأنها الآن سعيدة وحية ترزق مع أخيها وعائلتها، هو أيضا كان بخير حال، الاثنان كانا يحبان بعضهما البعض جدًا، روحان متناغمان كما اعتدت أن أخبرك عنا أنا وأنت، لكن وجودهما معًا كان خاطئًا، على عكس كل التقديرات العاطفية البلهاء، لم يجلب لهما سوى المشكلات، والحزن، والموت، والكراهية.

ربما كنا كذلك أيضًا، لو كان الأمر بيدي، لعدت إلى هذا المقهى الهادئ في المعادي، يوم ١٩ يناير من عام ٢٠٠٩، وتوقفت عند بابه من دون أن أدخل، كنت سأهرب إلى منزلي وأتدثر بالأغطية، وأدعو الله أن تختفي تمامًا من حياتي، ربما سأفتح عيني بعدها، لأجدني في مكان آخر، مختلف عن مكاني الآن، ربما أفضل أو أسوأ، لكنه بالتأكيد أقل تعاسة.

المبتلية دائمًا بك وفيك.

حياة.

سيول ديسمبر ٢٠١٣

أبي العزيز.

أعتذر عن تركي العمل في الشركة، من دون إخبارك، لكنني عثرت على هذا العمل الذي أحبه ويشبهني، سأتسلمه بدءًا من الأول من يناير من العام الجديد.

الشوارع هنا مغطاة بالثلج وشجر الكريسماس، بالتأكيد تحتفل دبي أيضا بالعام الجديد على طريقتها الخاصة، كنت أتمنى لو كنت معك اليوم لتصحبني ونشاهد الألعاب النارية فوق برج خليفة، كما فعلنا العام الماضي، كانت لحظات سعيدة وممتعة، لحظات سعيدة قليلة التي أقضيها معك يا أبي، ليس ذنبك أعرف، ربما كان ذنبي أنا، لكنني على كل حال ممتنة لها.

أجريت المقابلة في هذه الوكالة الإخبارية بنجاح، سعدوا بإجادتي للثلاث لغات المطلوبين في أعمال الترجمة، رأيت مكتبي الجديد، غرفة صغيرة، سيشاركني بها زميل من هولندا، أخبرني أن اسمه ثيودور، أو شيء من هذا القبيل.

أنت تعلم حبي للعمل الصحفي والترجمة، كنت أتمنى دراسة الإعلام، لكن درست الصيدلة بناء على رغبتك، وعملت في شيء مختلف تمامًا بناء على رغبتك، هذه المرة سأفعل ما أرغبه أنا، وأتمنى أن تساندني، وألا تغضب مني.

ملحوظة.. توقف عن شكوتي إلى سعود هو ليس ولي أمري.

محبتي، حياة.

سيول ٢٠١٤

أدخل إلى بيت ومكتب آدم للمرة الأولى، يستقبلني مُرحبًا ويدعوني للجلوس على الأريكة غير المريحة أمام النافذة الضخمة، أنظر حولي ويعجبني الجو العام للمكان، يناولني سيجارة فأرفض شاكرة.

يتحدث في أمور سخيفة عامة، ويضحك محاولاً التخفيف من الموقف، لكني لا أبتسم، أنظر له فقط حتى يستسلم، يسحب كرسيا خشبيا من دون مسند ظهر، ويجلس أمامي.

ـ حياة، أنا قلق عليك.

ـ قلق عليَّ أنا؟

ـ نعم، ربما لا أعرفك تمامًا، لكني لا أخطئ التعرف على هذا النوع من الوسواس القهري، أنت تعرفين جيدًا ما الذي أتحدث عنه.

ماذا تقصد؟ هل تعتقد أنني أؤذي نفسي؟

ـ بالطبع، حياة انظري إلى الجروح القطعية في كفي يديك، في معصمك مرورًا بذراعك، أنا متأكد أنني سأجد جروحًا أخرى، في باقي أجزاء جسدك، المخفية تحت الملابس، هذه حالة OCD واضحة.

ـ هذه، هذه جروح سطحية، لأني أستخدم المقص كثيرًا، أحب قص الصور وتجميعها.

ـ ما نوع الصور؟

ـ هل تمارس عليَّ مهنتك كطبيب نفسي؟

ـ هل تمانعين؟

أنهض واقفة، وأنا أرتجف، بالطبع أمانع، من إعطاك الحق؟ لماذا تفحص جسدي وتراقبني؟ هل طلب تيو منك ذلك؟ هل أخبرته باستنتاجاتك الخاطئة؟

ـ لم أخبر أحدًا، وفي الواقع لم ألحظ، آنا هي التي لاحظت الجروح في يديك وتعجبت للأمر، عندما عدت إلى المائدة، استطعت التعرف عليها بسهولة، هذه جروح أحدثتِها بنفسك، ربما من دون أن تشعري.

أحمل حقيبتي وأنظر إليه، قائلة:

ـ هذا يكفي يا آدم، شكرا لاهتمامك، لكني غير مهتمة، هذه الجروح حدثت بالخطأ، لو كنت أشعر أنني أحتاج إلى المساعدة، للجأت إليك فورًا.

ـ حسنا، كما تشائين.

كان جالسًا في مكانه، ينظر إليّ ويبتسم، من دون أن يتحرك، أو يحاول حتى إقناعي بالأمر، أبادله النظر بدهشة، ثم أهز رأسي وأغادر المكان.

سيول ٢٠١٥

أفتح باب منزلي بيدين مرتعشتين، خلفي يقف تيو منتظرًا أن أفسح له المجال للدخول، لا تقوى قدماي على حملي، الباب يحدث صريرًا مخيفًا كأفلام الرعب، أتثاقل في الدخول بشكل يثير تعجب تيو نفسه، يزيحني بيديه، ليسبقني إلى الداخل.

أستند على كل ما يصادفني، إلى أن أصل إليه، أتوقعه واقفًا أمام الجدار المرعب يشكك في قواي العقلية، لكنه كان واقفًا أمام حقيبتي السفر الكبيرتين أمامه.

ـ حياة ما هذا؟

ـ أي هذا بالضبط؟

ـ حقائب السفر، هل ستسافرين؟ متى ستسافرين؟ ما الذي تنتوينه بالضبط؟

ـ أنا، كنت سأخبرك.

ـ متى بعد الوصول؟

ـ تيو، سأغادر غدًا.

ـ غدًا، غدًا يا حياة؟ سألتك منذ ساعات، إن كنت ستسافرين من دون أن تخبريني، وأنت تستعدين للأمر منذ أسابيع، من دون أن تُلقِ بالاً للأحمق، الذي يتوسل إليك القدوم معه إلى موطنه.

ـ تيو أنا لم أخطط للأمر، قررت منذ أيام.

ـ أيام، وستسافرين غدًا؟ هل كنت تنوين الرحيل من دون إخباري؟ متى ستعودين؟ إلى أين تذهبين؟

ـ أنا.

ـ لا داعي لقول أي شيء، سأغادر.

ـ تيو انتظر، أرجوك.

أتوقف أمامه، أحاول جذبه من ذراعه ليستدير ويرفع رأسه عن الحقائب قليلاً، إلى حيث الجدار، إلى الصور المرعبة.

ـ انظر، انظر تيو، انظر إلى هذه الصور، انظر إلى البساط الملوث بالدماء، انظر إلى منزلي، أنظر إليَّ تيو، أنا لست طبيعية.

كل ليلة، أجلس أمام هذه الصور المرعبة، أتأمل جثث أطفال محترقين، ملقون على بطونهم أمام البحر، أتأمل صور قاتلين متوحشين، أنظر إلى هذه الصورة، هذه جثة طفل عراقي وجدوه ميتًا بعد انتزاع أعضائه، انظر هنا، هذا طفل مفقود في مصر، يتوسل والده كل يوم من أجل البحث عنه.

انظر لهذه الصورة، هؤلاء أطفال يحملون البنادق، ويقتلون بشرًا مثلهم، انظر تيو لهذه المرأة، هذه المرأة قُتلت بعد اغتصابها مرات متتالية في الصين، هذه المرأة قضت ليلتها هنا أمس أمامي على السرير، تصف لي بدقة ماذا فعلوا بها قبل قتلها وإلقائها في مقلب للقمامة بسوق السمك.

انظر إلى هذه السيدة البريطانية المبتسمة في الصورة، هذه السيدة اللطيفة التي تشبهني كثيرا، قتلت رضيعها الذي يبلغ من العمر ٩ أشهر ضربًا، أتعلم ماذا قالت لي منذ أيام عندما كانت تقف مكانك الآن؟ حملته من ساقيه، مثلما حمل الجنود أطفال دير ياسين من أقدامهم، ليضربوا

رؤوسهم في الحائط، وكانت تبتسم، تقهقه، هنا، في نفس المكان الذي تقف أنت فيه الآن.

انظر، انظر تيو.

كنت أتحرك أمامه كالمجنونة، أذهب وآتي، أضع يديّ على الجدار والصور، أحاول نزعهما بأظافري ولا أستطيع، كنت أرتعش، وأُتهته، نظراتي المجنونة تحلق في فضاء الغرفة حوله، أما هو، فكان يرمقني بنظرة لا أنساها، نظرة لم أتوقعها، لم يكن يراني كمجنونة، كانت عيناه تدمعان وكأنه يصدقني، وكأنه يرى معي هؤلاء الأشباح وزياراتهم المتكررة، للحظات لم يعرف ماذا يفعل، لكنه حسم أمره فجأة، ليتجه نحوي ويجذبني إليه بقوة.

احتضنني تيو طويلاً جدًا، ظل متمسكًا بي، وكأنني سأرحل الآن، كان يبكي وكنت أبكي معه، لا أعرف كم ظللنا على هذا الوضع في الظلام، لكنه لم يمل، لم يتركني، ظل هكذا واقفًا كصخرة، محتويًا لي كأمي، وحين استطعت أخيرا رفع عيني إلى وجهه، كان لا يزال يحبني، توقعت كل شيء، إلا أن يظل يحبني.

ـ أين ستذهبين حياة؟ أنا أحتاجك معي، تعالي معي إلى هولندا، سنستعين بمتخصص، سيساعدنا معًا.

ـ يجب أن أعود إلى القاهرة تيو، أنت لا تعرف شيئًا، هناك الكثير من الأمور العالقة هناك، غير المنتهية، أنا لا أختلف عن هؤلاء السفاحين في الصور، هؤلاء المقنعين الذين يحملون البنادق والسيوف، أمام ضحاياهم الراكعين على ركبهم أمامهم، أنا أيضا قاتلة.

كنت أشير بأصابعي إلى صورة السونار الصغيرة غير الواضحة، صورة بالأبيض والأسود لا تظهر شيئًا، أحاول نزعها بأظافري من على

الجدار، أحاول أن أجعله يراها، أن أشرح له ماذا تعني.

ـ انظر تيو.

هذه طفلتي، مجرد حبة عدس صغيرة في أحشائي، أنا قتلتها قبل حتى أن تبصر النور، قبل أن تكبر، قبل أن أرى ملامحها، أصابعها، أنفها، وعينيها.

هذه طفلتي، أعرف أنها طفلة، ربما لم تكن قد مُنحت روحها بعد، لكني كنت أشعر بها، كنت أشعر بها داخلي، وكنت أشعر بها وهي تنسل مني، أنا قاتلة تيو، قاتلة، والله عاقبني بما يكفي عن فعلتي، منحني إياها فدفعتها عني، ليستردها ويسترد معها، كل فرصة لي في أن أكون أمًا ذات يوم.

أنا قاتلة، قتلت ابنتي، وقتلت كل أبنائي القادمين.

كان تيو واقفًا أمامي لا يتحرك، ينظر إليّ بنظرته التي تشعرني بمزيد من الذنب.

ـ لا تنظر إليّ هكذا تيو، قل شيئًا، اتهمني بالجنون، بالقسوة، أنا لا أستحق عطفك، أرجوك.

لكنه لم يقل شيئًا، خلع معطفه بهدوء، ووضعه على المائدة، ثم دفعني دفعًا إلى السرير، وضعني برفق مثل الطفلة، نزع حذائي، سترتي، ونظارتي الطبية، لم يفعل سوى الرقود بجواري طيلة الليل، يضمني إليه، يهدهدني، يغني لي بالهولندية، كنت أهلوس بكلمات غير واضحة، وكان هو يضمني أكثر إليه.

كنت أتشبث به كالغريق، وكان هو ثابتًا وقريبًا.

ـ لن يزورك أحد بعد اليوم يا حياة، أنا هنا الآن، لا توجد دماء على البساط، ولا الملاءات، والصور يمكن نزعها من الجدار بلا مشكلات،

ثقي بي، ثقي بي حياة، أنت تؤذين نفسك، تجرحين معصميك بالمقص كل يوم، هل تعتقدين أنني لا ألاحظ؟ هذه الدماء دماؤك، أنت تجرحين نفسك كل يوم، أنا أعلم ذلك، وأعلم أنك تحتاجين للمساعدة، أرجوك ثقي بي.

كنت أهلوس، أرتجف، وأنكمش فيه أكثر، أنكمش فيه حد الاختفاء، حد التلاشي، أتمنى لو أظل هكذا للأبد، أتمنى عدم المغادرة، لكني مضطرة تيو، مضطرة.

كان يسمعني، ويربت على ظهري، ويهدهدني، من دون ملل، طيلة الليل، حتى غفوت.

عندما تسرب الضوء الرفيق عبر النافذة، كنت أفتح عيني اللتين تزنان أطنانا، أحاول استيعاب ما حدث وما سوف يحدث، كان تيو واقفًا أمامي، ينظر إلى الجدار المرعب باهتمام، كان قد ارتدى معطفه وحذائه من جديد، يبدو كما لو لم يكن قضى ليلة سوداء على فراش ضيق.

انتبه لي فنظر إليّ مبتسمًا، توجه إلى بار المطبخ، الموضوع فوقه كوبين ساخنين من القهوة الورقية.

ـ يانج شين أحضرتهما، تنتظرك بالأسفل لوداعك قبل الرحيل.

ـ كنت أنظر له بعدم تصديق، أنت هنا، لا تزال هنا؟

ـ سأرافقك إلى المطار، لكني سأنتظرك هنا حياة، سأسافر، وسأعود بداية يناير، وسأظل هنا أنتظرك.

ـ لكن.

ـ لا داعي للشرح، أفهم أن عليك العودة الآن، ربما ترغبين في لقاء والد طفلتك، ربما ترغبين في حل بعض الأمور العالقة، لكني أعلم جيدًا أنك ستعودين.

جلس على طرف السرير ومد يده إلى وجهي، قائلاً.

ـ حياة، ربما لا تؤمنين بشيء، لكني أنا، أنا أؤمن بك، بنا.

لا أعرف ماذا أقول، كنت أحاول النهوض على قدمين مهتزتين، ساعدني هو على الوقوف، وارتداء سترتي الملقاة بإهمال على الأرض، ساعدني على إعادة وضع حذائي في قدمي.

ـ أحضري القهوة، وسأحمل أنا الحقائب إلى الأسفل.

ـ سأترك مفاتيح المنزل مع يانج شين، اتفقت مع المستأجر على أن تكمل هي العقد حتى العام القادم.

ـ حسنًا.

كان يسير نحو الحقائب، عندما هتفت باسمه فجأة، توجهت نحوه بلا تفكير، ألقيت نفسي بين ذراعيه، كنت أريد أن أعتذر، لكني لم أستطع حتى الكلام.

كان يمسح على رأسي، شعري وظهري، من دون كلمة، كنت متأكدة أنه يفهم تمامًا، ماذا أريد أن أقول، ربما كان متفهمًا، ربما كان يحاول التظاهر بالتفهم، لكن هذا كان كافيًا جدًا لي.

عندما تعودين، سنتخلى عن هذا العمل فورًا، لو تحبين البقاء هنا، آدم سيعثر لنا على عمل آخر، لو تودين العودة معي سنعود، وسنبحث عن متخصص لمساعدتك حياة، يمكننا تجاوز ذلك.

كان ينظر إليّ بأمل، نظراته أرعبتني، ماذا لو لم أستطع العودة؟ لم أكن أعرف ما الذي سيحدث لي في مصر، هل سأتمكن حقًا من إنهاء كل شيء؟ هل سأعود إلى دبي وأبقى بجوار أبي، أم سأتمكن أخيرا من العودة إلى هنا، من البقاء مع تيو كما أتمنى أن أفعل من دون أن أستطيع؟

حمل تيو الحقائب وغادر المنزل، ووقفت أنا وحيدة في المكان الذي شهد ثلاثة أعوام مرعبة، سعيدة، مفعمة بالأحداث والأفكار، بالأشباح الهائمة، بالظلام والبكاء، ربما كان هذا المكان الوحيد الذي شعرت أنه بيتي فعلاً، ربما كان من الصعب عليّ فعلاً هجره.

حملت كوب القهوة، وحقيبة يدي وغادرت المكان، بالأسفل، كان تيو يضع الحقائب في السيارة، وبجواره تقف يانج شين وكيم يبادلانه حديثًا مفتعلاً، لكسر الصمت البارد.

الثلوج تحيط بالسيارة، يتعاون كيم وتيو في كسحها قليلاً، من أمام العجلتين الأماميتين المغطتين بالجنازير، مثل كل السيارات في هذا الوقت من العام، وخلفهما تقف يانج شين بجواري، كانت حزينة فعلاً بلا افتعال أو تمثيل، احتضنتني لأول مرة منذ معرفتي بها.

ـ حياة هل ستعودين؟

ـ لا أعرف أوني.

ـ أريد أن أخبرك بخبر سعيد، كيم تقدم للزواج بي منذ أيام.

ـ حقًا، أنا سعيدة جدًا أوني، سعيدة بالفعل.

ـ الزفاف في نهاية مارس، عندما يذوب الثلج، ويبدأ الطقس في التحسن، أرجوك قولي لي إنك ستحضرين.

ـ سأحاول فعلاً، أريد رؤيتك وأنت عروس.

ـ تعالي وسأجلب لك هانبوك خاص كوصيفتي.

ـ أشكرك، يانج شين، أنا أحبك فعلاً.

ـ وأنا أحبك حياة.

ـ هذه مفاتيح المنزل.

ـ حسنًا، سأهتم بالمنزل من أجلك، لأنني أعرف أنك ستعودين.

ودعتها من جديد، لم أشعر بدموعي، إلا بعدما أغلقت باب السيارة، نظر إليّ تيو، وأمسك يدي مواسيًا، لم أستطع الحديث ولا الكلام، ظللت طوال المسافة صامتة، الطريق السريع فوق الكوبري المعلق على المحيط، الذي يصل سيول بالجزيرة الصغيرة التي يقع عليها المطار، لم يستغرق سوى عشر دقائق بالضبط، انتبهت فجأة إلى أنني في طريقي للاختفاء حالاً عبر هذه البوابة السوداء المظلمة.

ـ تيو أنا أحبك.

ـ لا تقولي شيئًا، لا أريد أن أسمع شيئًا الآن، سأنتظر عودتك لنتحدث كما تريدين، نتحدث طيلة العمر القادم وما بعده، كان يضع علبة مخملية صغيرة في جيب معطفي، عرفت محتوياتها على الفور.

اقتربت منه، وطبعت قبلة أخيرة على وجنته، لم يخرج هو يديه من جيوبه، ولم يعد إليّ قبلتي، أدرت له ظهري ومشيت ببطء إلى داخل ظلام البوابة، كنت أشعر بعينيه على ظهري تتابعاني، ظل ناظرًا إليّ حتى اختفيت.

دبي ٢٠١٢

ديسمبر من جديد، يأتي عيد ميلادي مع الكريسماس، الذي يحتفل به الكاثوليك ليلة ٢٥، كان سعود يصحبني للعشاء، احتفالاً بي، واحتفالاً بقرار سفري المفاجئ أيضًا، أو هكذا تظاهر.

اختارني رئيسي في شركة السيارات للسفر إلى كوريا الجنوبية، والعمل في المقر الرئيسي هناك، راتب ضخم، وفرصة لرؤية دولة جديدة، بعيدة، لا أعرفها.

كنت متحمسة جدًا، وكان أبي رافضًا تمامًا، لكن زوجته وسعود توسطا لإقناعه، إلى أن وافق على مضض، مع وعد بأن أظل هناك لمدة عام فقط، ثم أعود.

لكني كنت متأكدة أنني سأبقى أكثر، أو على الأقل سأغادر إلى مكان آخر مختلف.

كنت أريد الاختفاء بعيدًا، التجول وحدي في شوارع لا أعرفها، أرى أشخاصا آخرين، مختلفين تمامًا حتى في ملامح الوجه، لغة أخرى، طقس آخر، عادات أخرى، طعام آخر.

كنت أشعر بحاجة ماسة للهرب، من الأخبار المؤلمة التي تنهمر عليّ في النشرات العربية، من حديث أبي المتواصل عن الوضع السيئ في

مصر، من العمل في الجريدة، من ترجمة المواضيع الطويلة القاسية عن داعش، وسوريا، وليبيا، عن سعود، ومطالبته المستمرة لي بالخروج من قوقعتي، والتعرف على العالم، من محاولاته لإقناعي بأنني في خير حال، بأنني أفضل من الآخرين.

كنت أعرف أنني أفضل من الآخرين، أعيش في بيت جميل، مع أبي الذي يحبني وزوجته اللطيفة، أتناول طعامي في المطاعم الفاخرة، أتسوق من المتاجر الراقية، من العلامات الشهيرة، أعمل في شركة سيارات كبيرة، وتُنشَر لي في الجريدة مقالات هامة باسمي، كنت في خير حال، كما يرى سعود، وكما يرى أبي، وكما يرى الجميع، لكني لم أكن كذلك.

كان الاكتئاب يحكم سيطرته عليّ، أعرفه جيدًا، وأشعر به كالجاثوم، أشعر أنني لا أستحق أي شيء، لا معاملة أبي الحانية، ولا صداقة سعود، ولا عملي اللطيف، ولا ملابسي الجميلة.

لم أكن أشعر بالتحسن، سوى في غرفتي، وحيدة، أتابع بلهفة صور الأخبار القاسية، أقرأ التفاصيل بتدقيق، أشاهد الصور، مقاطع الفيديو، أجلس طيلة الليل، أحاول تخيل مشاعر الأسرة، التي دفنت فجأة تحت الركام، مشاعر أب يبحث عن طفلته أسفل التراب، أعيد تشغيل مقطع فيديو لطفلة يخرجونها من أسفل التراب حية.

أقرب رأسي من الشاشة، كانت ترتدي كنزة حمراء مثل كنزة بابا نويل، وكان التراب يغطي وجهها ويديها، أرى ارتعاشة جسمها كله، والرجال يصيحون حولها، يحفرون الركام بأظافرهم، يحاولون تخليص قدميها من الصخور، ترتعش الطفلة، أود لو أحتضنتها الآن، أتمنى لو عثرت على اسمها، لو عرفت مصيرها.

أفتح محرك البحث، أكتب: «طفلة حية تحت الركام في حلب».

النتائج كلها تظهر، نفس مقطع الفيديو الذي شاهدته منذ قليل، أكتب، «اسم الطفلة التي أخرجت حية من تحت الركام في سوريا».

بعض المواضيع في المنتديات تقص نفس القصة، من دون إشارة لاسمها.

أضع صفحة النتائج ضمن الصفحات المحفوظة، لأحدثها كل يوم بحثًا عن أي أخبار، وأنتقل إلى قصة أخرى.

كنت قد أدمنت الألم الحارق في رأسي، وأنا أشاهد هذه الصور، الخدر الذي يتصاعد من قدمي إلى عنقي، الطنين الثقيل الذي يضغط على أذنيّ.

كان الألم يطهرني، يشغلني عن شعوري المستمر بالذنب، عن تفكيري الدائم في خالد، عن فتح صفحته، لتأمل الصورة التي لم تتغير منذ ما يقارب العام.

سيول ٢٠١٤

الثلوج بيضاء، كثيفة، تغطي العالم بأكمله، أحكم إغلاق النافذة، ورفع درجة التدفئة في بيتي الصغير، أعد كوبًا من القهوة، وأجلس أمام الحاسوب، بآلية أضغط على زر تحديث صفحة البحث عن اسم الطفلة في حلب، أجد أخيرا مقطع فيديو لقناة عربية، ذهبت للقاء والد غنى، الذي انتقل ببناته إلى منزل شقيقته في بلد أخرى.

اسمها غنى إذن.

كانت الآن أكبر، لا تزال ترتدي نفس الكنزة الحمراء، النظيفة الآن من التراب، تلهو على الأرض مع شقيقتها التي تكبرها، تنظر لأبيها بحب، يحملها ويقبلها، يبكي وهو يقص حكاية قصف المنزل، كان بالخارج، وعندما عاد لم يجد بيته، لم يجد زوجته ولا الخمس بنات، بناته.

أخرج الجيران ثلاثة منهن، ماعدا ابنته الكبرى فاطمة، والصغيرة غنى، أما زوجته فقد وجدوا جثتها فورًا.

«عندما سمعنا صوت البكاء أسفل الركام، لم أصدق أذني، قلت: بالتأكيد أنا أحلم، لكن الرجال نبشوا التراب بأظافرهم حتى ظهرت غنى، ظهرت لتعيد لي بعضًا من الأمل، كنت أحتضنها وأبكي، أحلم أن تخرج فاطمة أيضًا، لكنها لم تفعل، إلى اليوم أحلم أن تخرج فاطمة».

للمرة الأولى أبكي وأنا أشاهد مقاطع الفيديو، لا أشعر بالخدر ولا الثقل في رأسي، أنظر لوجه الطفلة المبتسم، أشعر ببعض الأمل في العالم، صغر سنها جعلها تنسى كل شيء، تلمس وجه أبيها بكفيها الصغيرين، لم تكن ترتعش، لم تكن خائفة، هي بخير الآن، هي بخير، وكفى.

أغلق الحاسوب، وأنهض لألتقط الهاتف، أضغط على اسم آدم، وأنتظر طويلاً حتى يرد.

ـ آدم، متى يمكنني زيارتك؟

يرد بلا تردد.

ـ سأنتظرك مساء السبت.

أغلق الهاتف بسرعة، قبل أن أغير رأيي، أرفع ذراعي لأعلى، أتأمل الندبات القبيحة عليهما، أعرف أن هناك مثلهم على ساقيَّ، فخذيَّ، باطن قدميَّ، أعود إلى النافذة وأفتحها، استسلم لبرودة الثلج، أغسل رئتي بها، تزرق شفتاي وأرتعش، لكني أظل واقفة أمام النافذة، ولا أغلقها.

القاهرة ٢٠١٥

المقهى الصغير الهادئ في المعادي، لا يزال مبتلاً بالمطر كيوم تركته، أقف أمام الباب الزجاجي، أنظر إلى الداخل، أعود بالزمن ٦ سنوات إلى الوراء، أرى خالد جالسًا مكانه، يدير ظهره إليّ، لكني أرى كل تفصيلة من تفاصيل وجهه، المطر يهبط برفق على خصلات شعري، ينساب على معطفي الأسود الجلدي الطويل، يداعب وجنتي، فأبدو وكأنني انتهيت فورًا من البكاء، أقف أمام الباب الزجاجي وأتساءل، هل سأدخل هذه المرة؟ ماذا سأقول، وكيف سأفكر؟

أدفع الباب برفق، فترن الأجراس المعلقة برنين هادئ، يستدير إليّ، يراني قبل أن أرفع وجهي، ينهض من مكانه ويمد لي يده، أصافحه من دون كلمة، أتمكن من رفع عيني أخيرا إلى وجهه، أرى عينيه العسليتين، أنفه الطويل، الشامات الداكنة الصغيرة على ذراعيه، التجاعيد الرفيعة حول فمه، يحاول الابتسام، لكنه يتوقف عن محاولاته فجأة، أجلس فيجلس مقابلاً لي، يداعب كوبه الزجاجي الخالي، إلا من بعض قطرات من الشاي، ينظر إليّ من جديد، ينجح هذه المرة في اغتصاب ابتسامة، يقول: «حمد لله على سلامتك».

أحاول الحديث، فتمنعني الغصة المتزايدة في حلقي، ترتعش يداي، ويدق قلبي، أحاول التظاهر بالهدوء، أحاول الحديث بصوت طبيعي،

أتمتم: «الله يسلمك»، خافتة، بصوت لا يشبه صوتي.

يستمر الصمت دقيقتين، أتأمل فيها تفاصيله من جديد، أستعيد كل كلمة حدثت بيننا، كل تفصيلة، أشم عطره فتتطاير الفراشات حول رأسي، ألمح أصابع يديه الخاليتين من خاتم الزواج، يفهم من دون أن أنطق، مثلما يفعل دومًا، فيقول: لا أحب ارتداء المحبس، أومئ برأسي ببطء.

كان المقهى كما تركناه، لكنه مغلف بالسنين، المقاعد كما هي، الموائد كما هي، هناك شاشة تلفزيون حديثة مسطحة، تملأ جدارًا كاملاً، عليها أغنية مصورة بلا صوت، بينما تتصاعد موسيقى أجنبية، خافتة من السماعات الكبيرة المنتشرة في المكان، أستطيع النطق أخيرا، فأقول:

ـ كيف حالك؟

ـ بخير، وأنت؟

لا أعرف كيف أرد، لم أكن قطعًا بخير، كنت أريد أن أتكلم، أن أحكي له كل شيء، أحمل في حقيبة يدي ورقات مزدحمة، بالنقاط التي كتبتها ليلة أمس بسرعة، بخط غير مقروء، أحاول فيها ترتيب أفكاري، تحضير كلماتي، كتبتها في بيت ريم وأحمد، الذين أصرّا على إقامتي لديهما، لم أكن مستعدة للعودة إلى بيتي، المغلق منذ سنوات، سألتني ريم، وهي تقلني من المطار ليلة أمس، أين ستنامين؟ البيت مهجور لا أحد متاح الآن للتنظيف.

الليلة تباتين لدينا، وغدًا نرى.

لا أعرف كيف تناولت هاتفي، ولا كيف ضغطت على أرقام هاتف خالد، التي لم تتغير، لا أعرف ما الذي قلته بالضبط، نطقت باسمه

فعرفني فورًا، هل كنت أهذي أم أن صوته كان سعيدًا، مندهشًا، يحاول هو أيضا أن يتحدث، أن يسألني أين أنت، ماذا أفعل، طلبت منه اللقاء، فوافق فورًا.

لم نأخذ وقتًا في التفكير، كان المكان والزمان معروفين، مؤكدين، قال: في نفس المقهى فقلت: نعم، لم يكن هناك حاجة أصلاً للسؤال.

يسألني عن ريم وأحمد، فأخبره بأنهما بخير، يسألني عن السفر، فأقول: جيد، أسأله عن أطفاله فيبتسم، رائعين.

أخرج الورقات من حقيبتي، ينظر إليّ باستغراب، فأشرح له أن هذه هي وسيلتي لترتيب أفكاري، يعتدل في جلسته، فأحاول الكلام.

يخرج صوتي خافتًا، مهتزًا، لكني استمر في الحديث، أبدأ من ليلة زفافه، فتتسع عيناه، ينهض، يلف حول المائدة، ليجلس على الأريكة المنخفضة قليلاً جواري، يتلامس كتفانا فأتوقف عن الحديث، يشير لي أن استمر.

أترك الأوراق، أتحدث من دونها، صوتي الآن ثابت، بلهجة تقريرية، أحكي له عن الإمارات، عن سعود، عن والدي، عن عملي في الجريدة، أحكي له عن كوريا، عن تيو، عن يانج شين، عن عملي في الوكالة.

أحكي له عن الجدار، عن زواره، عن هند، عن مآب، عن لمى، يقترب مني أكثر، يمسك بكف يدي، تتشابك أصابعنا، يضغط عليها بقوة، لا ينطق بكلمة.

أحكي له عن ابنتنا، أريه صورتها المظلمة في السونار على هاتفي، يلتقطه، ينظر إليها ويبتسم نصف ابتسامة، ينظر إلى وجهي، يضع كفيه حوله، يعيد خصلات شعري وراء أذنيّ، يمسك بيدي من جديد.

أحكي له عن آدم، عن نظريته بشأن أموري العالقة، أريه خاتم تيو الأزرق الذي لا يفارق حقيبة يدي، أنتهي من كل شيء، ألتقط أنفاسي بصعوبة، وكأنني انتهيت من الركض، نظل صامتين، متلاصقين تمامًا، يحيط كتفي بذراعه، أسند رأسي على كتفه، يداعب أصابع يدي بأصابعه، ينطق أخيرا، يقول: أحبك.

أرفع رأسي إليه، فيعيدها من جديد.

أسأله كيف؟ فلا يرد.

ـ أريد تفسيرًا لكل ما حدث، أريد أن أنتهي منك، كيف أفعل من دون خاتمة؟

ـ تفسير لحبي لك؟ أم لحبك لي؟ أم لكل ما حدث بيننا؟ الإجابة على العموم واحدة، لا تفسير، لا تفسير لأي شيء، هذا ما حدث، وانتهى الأمر.

أنا لم أنتهِ منكِ، وأنت لم تنتهِ مني، نحن لن ننتهيَ من بعضنا البعض.

ـ وأنا، ماذا أفعل الآن.

ـ يرفع يدي، يضع خاتم تيو في إصبعي بنفسه، ويقول:

ـ ترتدين هذا الخاتم.

تدمع عيناي، ترتعش شفتاي ولا أعرف ماذا أقول، ماذا كنت أتوقع؟ ما الذي فكرت فيه؟ يهتز جسمي ببكاء بلا صوت، تتلاشى الغصة الدائمة شيئًا فشيئا من حلقي، تنزل دموعي داخل جسمي فتغسله، أشعر أنني نقيّة، جديدة، أشعر أنني بلا أخطاء، ولا أفكار حتى.

ـ لم أتوقف يومًا عن حبك، ولا التفكير فيك، كل ما قصصتيه أشعر

وكأنني أعرفه، أشعر وكأنني حلمت به، أفكر فيه، لا استغربه، أشعر أنني مجرم، ومسكين، أشعر أنني ظالم، ومظلوم، أريد أن أعتذر لك، وأريدك أن تسامحيني، أريد أن أسامح نفسي فوق كل شيء، ولا أعرف كيف.

ـ لم يكن هدفي أن أشعرك بالذنب.

ـ أعرف، لا أحتاجك لأفعل، لا يمر يوم من دون أن أفعل.

ـ أنا أشعر بالذنب أيضًا.

ـ أعرف، وأريدك أن تسامحي نفسك أيضًا.

ـ أنت وأنا مسكينان، لكنك اليوم، تبدئين حياة جديدة.

ـ وأنت؟

ـ وأنا، أنا أكمل حياتي القديمة.

ـ ونحن؟

ـ نحنُ.

ينظر إليّ طويلاً، أنظر إليه، وأفهم كل ما يريد قوله، تتشابك أصابعنا من جديد، أسند رأسي إلى كتفه من جديد، يحيط بذراعه كتفي من جديد، نصمت من جديد.

نظل صامتين لدقائق، لساعات، لسنين، لا أعرف، تصمت الموسيقى، ويتوقف المطر في الخارج، يزدحم المقهى شيئًا فشيئا، تتوالى الأغنيات الصامتة على الشاشة، يتحرك الناس من حولنا، يجلسون، يغادرون، يتناولون مشروباتهم، يضحكون، يتحدثون بصوت مرتفع، وأنا وأنت ما زلنا هنا، ما زلنا هنا معًا لآخر مرة، ما زلنا هنا معًا للأبد.

دبي ٢٠١٦

أصل إلى مطار دبي أخيرا، ينتظرني أبي وزوجته في المطار، أسرعت نحوهما وأنا أبتسم، احتضنتهما بشدة، كنا نبكي، ثلاثتنا نبكي، لا أعرف لماذا نبكي، لكني كنت سعيدة، كنت أفتقدهما، أحكي لهما عن كوريا، أحكي عن يانج شين ومواقفها المضحكة، يضحكان، نضحك كثيرًا جدًا في السيارة في طريقنا للمنزل، كنت شخصًا آخر، كنت متحمسة، أريد أن أصل بسرعة إلى المنزل، أن أغير ملابسي، أن أرتدي الفستان الذي اشتريته خصيصًا من مصر، أن أستعد لزفاف سعود في نفس الليلة.

تحضر لي زوجة أبي، التي أخاطبها بكلمة أمي الآن، بعض الطعام، تعيد ضبط مكياجي بيديها، تنظر إليّ نظرة فاحصة أخيرة، قبل أن تعلن موافقتها على إطلالتي النهائية، ننطلق جميعًا إلى حفل الزفاف في قاعة فاخرة قريبة، كنت سعيدة جدًا، جميلة جدًا، يزين يدي خاتم أزرق ضخم، تركه معي تيو قبل رحيلي، أرتديه الآن، أرتديه ولن أخلعه أبدًا.

أدخل إلى القاعة فيلمحني سعود من على بعد، يهمس لعروسه بكلمة، ويسرع في اتجاهي، يحتضني غير عابئ بوجود أبي، ويسحبني من يدي نحو هاجر.

تنهض هاجر لتحتضني هي الأخرى، تقبلني وتجلسني بجوارها على الأريكة البيضاء الجميلة، يجلس سعود من الناحية الأخرى، ويشير

للمصور أن يسرع ناحيتنا، يلتقط لثلاثتنا الكثير من الصور، يقول سعود: هذه صورتنا الأولى معًا.

أنظر له بامتنان وتدمع عيناي، لو تعرف كيف غيرت لي حياتي يا سعود، أنظر إلى هاجر وأضع كفي حول وجهها، أقول لها: اهتمي به كثيرًا.

أنهض من بينهما، وأعود لمائدة والديّ، ألتقط لثلاثتنا الكثير من الصور معًا بهاتفي، كان أبي يضحك، يشعر وكأنه وجدني فجأة، يشعر أنه الآن يملك عائلة حقيقية، يتفاخر بي، ويقدمني للجميع، أما أنا فكنت أفكر في تيو، وأفكر في عودتي إلى سيول، أقرر قطع التذكرة بمجرد عودتي للمنزل، ربما بعد أسبوع، أسبوعين، شهر، سأخبر والدي بكل شيء، وسأرجوه أن يسمح لي بالعودة، كنت أشعر للمرة الأولى منذ سنوات أن كل شيء سيسير بسهولة، أن كل شيء سيصبح على ما يرام، كانت الغصّة الدائمة، تختفي شيئًا فشيئا من حلقي، كانت اللمعة تعود من جديد إلى عينيّ، كنت أعود إلى الحياة أخيرا، أعود إلى الحياة من أجل تيو، ولم يكن هذا أمرًا يمكنني أن أتخلى عنه.

سيول ٢٠١٦

مطار سيول يبدو أكبر من كل مرة، وأقل ازدحامًا، أنهي أوراقي بسرعة، وأعيد حمل حقيبتي الصغيرة على كتفي، تركت كل شيء خلفي في منزل أبي، ملابسي، أوراقي، كتبي، عطوري، وحملت معي شيئًا واحدًا فقط، شيئا واحدا يكفيني فقط.

أشير لسيارة أجرة بالوقوف، وأمليه العنوان بسرعة، كانت الثلوج تتساقط الآن، مثل المرة الأولى التي أتيت فيها إلى هذا البلد عام ٢٠١٣، لكنني أختلف تمامًا هذه المرة، أشعر بالحماس يزيد من ضربات قلبي، بالحرارة تسري في عروقي رغم البرد، لكني كنت أرتعش في نفس الوقت، ترى ما الذي سيحدث الآن.

تقف السيارة أمام المبنى، الذي اعتدت العيش فيه دومًا، مقهى يانج شين يبدو مظلمًا قليلاً، أهرع إليه وأدفع الباب بقوة، كان المكان خاليًا في هذا الصباح الباكر، وكانت يانج شين واقفة في الظلام، تبدأ تنظيفها اليومي للمكان، تُنسق أصص الزرع، وتعيد ترتيب الموائد، للحظة ظلت تنظر إليّ باندهاش، وكأنها لا تصدق، كانت عيناي متجمدتين بالدموع، اندفعت نحوي، وهي تضحك وتصيح بالكورية، احتضنتها من دون أن أفهم شيئًا مما تقول.

ـ حياة كنت متأكدة أنك ستعودين.

ـ افتقدتك كثيرًا أوني.

ـ كيف حالك، تبدين متجمدة، تعالي سأعد لك بعض القهوة الطازجة.

ـ أجلس على المائدة، وأنا لا أعرف ماذا أقول، أسألها عن إعدادات الزواج، وعن مستر كيم.

ـ جيدة جدًا، أقل من شهر ونصف.

ـ أنا سعيدة جدًا من أجلك.

ـ ما زلت عند وعدي، سأحضر لك هانبوك ملون رائع، ستكونين وصيفتي الجميلة، أرجو ألا تسرقي الأنظار مني، كما يمكنني أن أحضر ملابس مناسبة للسيد، بالتأكيد ستبدوان جميلين معا، أفكر لكما في اللون.

أقاطعها وأنا أضع يدي على رقبتي.

ـ سيد من؟

ـ سيد تيو، سيحضر بالتأكيد، كيم يدعوه كل يوم تقريبًا، أعتقد أنه سيأتي فقط لكي يُخرِسه قليلاً.

ـ كل يوم؟ أين ترونه؟

ـ السيد؟ إنه يعيش في بيتك الآن، طلب مني أن يحتفظ هو بالمنزل، وسيتكفل أجره، أرجو أن تعذريني، لكنني وافقت طبعًا فهو أولى به، يأتي كل يوم ليشرب القهوة، يبدو حزينًا جدًا، ألم تخبريه أنك ستعودين اليوم؟ لمَ لم يذهب لاصطحابك من المطار، حياة أين تذهبين؟

أهرع لمغادرة المقهى من دون كلمة، كنت أفكر في الطريقة التي

سأقابل بها تيو، لكني الآن لا أفكر سوى في رؤيته، لا أنتظر المصعد، أقفز درجات السلالم وأنا ألهث، دقيقتين، ثلاث، أصل أخيرا لأقف أمام الباب ألتقط أنفاسي.

أضع راحتي على الباب من دون صوت، أبدو كما لو كنت نسيت طريقة طرق الأبواب، أسند جبهتي على المعدن البارد، وأظل هكذا دقائق، لا أفكر في أي شيء، دقائق طويلة مرت وأنا كما أنا، حتى انفتح الباب فجأة.

كان تيو هنا، أمامي، بكامل ملابسه، في طريقه إلى العمل ربما، ينظر إليّ وكأنه يحلم، يبتسم بجانب فمه، يضيّق عينيه قليلاً، يضع يده على فمه وأنفه، كنت ألمح عينيه تدمعان خلف نظارته الطبية العزيزة.

ـ حياة، هل هذه هي أنت حقًا؟

لا أرد، أندفع نحوه لأعانقه، أخاف أن يرفضني، أن يصدني، لكنه لا يفعل، أعانقه أكثر، يزيد هو من إحكام ذراعيه حولي، وكأنني سأهرب.

المنزل من خلف كتفه يبدو مختلفًا، منظمًا، مضيئًا، أتركه وأسير كالمسحورة نحو الجدار، الجدار يبدو كما هو بكل الصور التي تغطيه، أقترب أكثر، لأجده مختلفًا تمامًا.

كنت أقف أمامه، فاقدة القدرة على النطق، لا أستطيع التصديق، الجدار يمتلئ الآن بصور مختلفة، صوري، كل الصور التي التقطها لي تيو بهاتفه كل يوم، مطبوعة، منسقة، متراصة بجوار بعضها البعض، صوري وأنا أضحك، أتناول الطعام، أبكي، أدير وجهي، أتحدث، مغمضة العينين، أضع كفي على وجهي، صوري المشوشة، صوري البلهاء، صوري الجميلة، تغطي الجدار كله، أقف أمامها بانبهار، أسمعه

من خلفي يقول: لم أجد ولا صورة تجمعنا معًا، تخيلي.

أبتسم، أعرف ذلك، ربما حان الوقت لتعديل هذا الأمر، أستدير إليه، وأدعوه للاقتراب، وأنا أخرج هاتفي من جيب المعطف، نقف متجاورين أمام الجدار، أقرب رأسي من رأسه لألتقط أول صورة تجمعنا معًا، أمام نفس الجدار الذي كان جدارًا عازلاً بيننا يومًا، في نفس المنزل الذي أصبح الآن منزلنا.

ـ سنضعها في منتصف هذه الصور تمامًا، أريدها أن تكون الأكبر بينهم.

يبتسم لي، يلتقط كف يدي، الذي يزينه خاتمه الأزرق، وينظر إليه من دون أن ينطق.

ـ ثيودور ألبرت جودفريد، هل ما زلت تريد الزواج مني؟

ـ نعم، تمامًا، وجدًا، وإلى أقصى درجة.

ـ هل ستحبني إلى الأبد؟

ـ نعم، رغمًا عن أنفي.

ـ وأنا أحبك تيو، أنت منحتني كل شيء، كل شيء في العالم، وأعدت لي إيماني من جديد.

ـ لأنني أؤمن بك حياة، أؤمن بنا، منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها، نحن معًا سنغير العالم إلى الأفضل حتمًا.

ـ هل أعطاك آدم تسجيلات الجلسات؟ هل أخبرك كل شيء؟

ـ نعم، أعطاني إياها، وأخبرني بعض الأشياء.

ـ ما زلت متمسكًا بي؟

ـ لم أسمعها حياة، لم أكن أريد أن أعرف سوى أنك ستصبحين بخير، لا يهمني الأسباب، لا يهمني ما الذي حدث، لا يهمني سوى عودتك الآن.

ـ لكني لا أستطيع البدء معك، من دون أن تعرف كل شيء.

ـ يمكنك أن تقصي على ما تريدين، أمامنا العمر بأكمله لتقصي لي كل حكايات الدنيا، مهما كانت القصة، لا شيء سيغير من مشاعري تجاهك.

ـ ماذا فعلت لأستحقك؟

ـ أنت فعلاً محظوظة جدًا.

كنا أضحك وأبكي في ذات الوقت، ربما أقص عليك القصة كاملة ذات يوم يا تيو، ربما لا أفعل، لكني مكتفية الآن، ولأول مرة في حياتي، بأن أكون سعيدة، ببساطة سعيدة، بلا تعقيدات، وبلا دراما، وبلا مشكلات، كان الوضع جديدًا عليَّ، لكنه كان جميلاً جدًا، كنت لا أزال أحتاج إلى الكثير من الوقت للتعافي، ربما إلى المزيد من الجلسات الطويلة مع آدم، لكن معرفة أن تيو سيظل دائمًا إلى جواري، أشعرتني أنني بالفعل، قد أصبحت بخير.

سيول ٢٠١٦

عزيزي خالد.

أكتب إليك الآن من منزلي في سيول، الثلج اختفى من الشوارع، وبدأت الأشجار تزهر ثانية، البلوسوم الملون الجميل يطوق نافذة بيتي، وأمامي يقف تيو، مرتديا قبعة مضحكة وجلبابا كوريا ملونا، يحاول بصعوبة معرفة الطريقة الأفضل لارتدائه، يضع غليونا مطفأً في فمه، كان يفكر جديًا في البدء بتدخينه، أنا أرتدي الهانبوك الكوري الأصفر بالشرائط البنفسجية الداكنة التي جلبته لي صديقتي يانج شين، لحضور حفل زفافها بعد قليل، أمامي كوب من القهوة الأمريكية الدائمة، أكتب إليك هذه الرسالة.

الجميع يستمر في الحياة يا خالد، حتى المذنبون، وأنا، استمريت بعد عناء، لقائي الأخير بك جعلني أدرك بأنني لم أفقد فعلاً إيماني في الحب، رؤيتك أعادت لي التفاصيل الصغيرة التي جمعتنا معًا، أعادت لي سعادتي برؤيتك، الفراشات التي تطير وتحلق عندما ألمس يديك في السلام.

اكتشفت أنني لم ولن أتوقف عن حبك، كما لم ولن تفعل أنت أيضًا.

اكتشفت أنني عشت ٥ سنوات أحاول التكفير عن خطيئتي الكبرى، أتظاهر بأنني أكرهك، وأكره نفسي، وأكره الله، والعالم، لكنني في الحقيقة كنت مخطئة.

ستظل الرجل الوحيد، الذي وضع طفلته في أحشائي، قد تكون ذهبت قبل أن تبصر النور، لكنها ستظل جزءًا مني، جزءًا لن أنساه ما حييت.

ربما كان ذنبي الوحيد هو الحب، لكنني أعلم تمامًا الآن أن الحب ليس ذنبًا، وكيف يكون؟

إن كان الله قد خلق الحب في بداية العالم، وجعله أساسا لإعماره، بل وجعله أساسا لعلاقته بمخلوقاته، وسببًا في استمرار حياتهم إلى اليوم، فكيف يعاقبنا إذن على فعل حب، خالص بلا أغراض؟

نحن نستمر في العيش، من أجل من نحبهم فقط، ونموت من أجل أن يستمروا هم بعدنا.

إن كنت مثلي، تشعر بالذنب بعدما أخبرتك بكل شيء، فلا تفعل، جرائم الحب هي الأنبل والأعظم دائمًا، لذا لا أعتبر أي شخص سقط ضحية لحبه مذنبًا، لا نحن، لا الخائنون، لا العشيقات، جرائم الحب في الأغلب لا تهدر روحًا، إنما تفعل الكراهية وحدها ذلك، لست نادمة على ليلتنا معًا، يوم كنت أمتلئ حبًا وأنت أيضًا، لكني نادمة على ذلك اليوم الذي قررت التخلي فيه عن طفلتي، نادمة على قرار مظلم أحمق بلا تفكير، اتخذته يوم نحّيت حبي جانبًا، وسمحت للكراهية بتقرير المصير، وأنا كنت أمتلئ كراهية في هذا اليوم يا خالد، هذا هو ذنبي الوحيد الذي أحاول التكفير عنه إلى الآن.

أتذكر الآن امتزاجنا العابر الوحيد في هذه الغرفة المظلمة في القاهرة، ولا أقشعر، أتذكر نظراتك ولمساتك، وقبلاتك التي منحتني بعدًا جديدًا للحياة، وأتأكد من نبل الحب وعظمته الدائمة.

حتى يوم فقدت طفلتي الصغيرة، وهي لا تزال بحجم قبضة اليد في أحشائي، أتذكره الآن كيوم رحيل عزيز، مؤلم نعم، مُقبض، أكيد، لكنه بشكل أو بآخر، رحيل حانٍ، من دون آلام، رحيل ربما كنت مذنبة فيه، ربما كنت أنت أيضا كذلك، لكنه كان مكتوبًا لأسباب ربما أعلمها، عندما ألقاها في عالم آخر.

لم أكن أؤمن بشيء بعدك، لكني الآن أُعيد إيماني بالحب، بالحياة وبالله، أستطيع الآن رفع عينيّ إلى السماء ومناجاته، أستطيع طلب محبته ورعايته، كما أنني أؤمن بالكراهية، التي هي في الحقيقة مجرد جانب مكمل للحب، ومُحرّض على استمراره.

حبي لك كان أعظم انتصار لي، كان أكبر دليل على إنسانيتي وحياتي، لا أخجل منه بعد اليوم، ولا أتمنى عدم حدوثه، سيظل قابعًا للأبد في مكان عميق جدًا في قلبي، لكنه لم يوقفني عن الحياة والاستمرار، لن يوقفني عن إيماني بحب جديد عارم، حب لا يُوقف أنفاسي ولا يهزّ كياني، بل يُهدهدني كَيَدِ الله الطيبة، يساعدني على التنفس يُريني العالم بعيون جديدة، مثل حب هذا الرجل، الذي يقف أمامي الآن مبتسمًا.

هذا الرجل الذي غير عالمه من أجلي، ووافق ببساطة على تحويل ديانته رسميًا في المسجد الكبير في إيتوان، بعدما شعر أنني أريد عقد قِراني على الطريقة الإسلامية، بعدما تحسنت علاقتي بالله وبالدين.

أعلم أنه لا ينتمي فعلاً إليه، لكنه لم ينتمي أصلاً إلى أي دين آخر، هو مثلي فقط يؤمن بالله، ولا يؤمن كثيرًا بكل القواعد الصارمة التي سنّها العالم بعد ذلك، أنا أيضا أعلم أن الله يحبنا ويمنحنا بركته، نحن نحبه ونحب بعضنا البعض، الله مدّ لنا يده، ونحن مددنا إليه أيدينا، مثلما يجب عليك أن تفعل يا خالد، وأن تُخرج نفسك من فخ الشعور بالذنب الذي تعيشه الآن، أشعر بك، وأعرف جيدًا كيف تفكر.

أنا سعيدة الآن يا خالد، أخبرت تيو يوم عودتي، أن في قلبي رجل آخر، يحتل مكانه كطيف دائم، ربما أعيش معه في بعض تفكيري، لكني أود أن أعيش واقعي وحياتي معه هو، مع تيو، حبي الحقيقي.

وأنت، أيها العزيز الدائم، يا حبي الأبدي المستمر، ربما كنت أتمنى لو تملك أنت قوة حب هذا الرجل، لو تُغير عالمك من أجلي قليلاً، لو كنت حاربت بعض الشيء من أجلنا، لكنّي غير عاتبة عليك، لا ألومك على شيء، وأعلم أن الظروف والمجتمع والحياة تختلف.

لا أريد منك شيئًا ولا حتى ردًا على رسالتي هذه، أنا أطلب منك فقط، أن تنسى نهايتنا المؤلمة المأساوية، وأن تتذكر تفاصيلنا الصغيرة الجميلة، وأن تعيش، عِش مع زوجتك وأطفالك الرائعين، استمتع بوجودك بينهم، امنحهم كل ما حُرمنا يومًا، أنا وأنت منه، لكن أرجوك، لا تنساني.

المحبة دائمًا.
حياة جودفريد.
سيولكوريا.
٢٥ ـ ٤ ـ ٢٠١٦

شكر خاص

(للأصدقاء الذين ساعدوني في مراجعة وتدقيق هذه الرواية)

محمد هشام عبيه

عبدالله حسن

مروة جمعة

ريم قنديل

ياسمين عادل فؤاد

ميسرة الدندراوي

رغدة محمود

ناجي بهنان